أحواض اللبلاب
أحمد قاسم
عصير الكتب

أحواض اللبلاب

إدارة التوزيع

00201150636428

لمراسلة الدار:

email:P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

- الطبعة الأولى: يناير 2022م
- رقم الإيداع: 3240/2022م
- الترقيم الدولي: 978-977-6902-99-2
- المؤلف: أحمد قاسم
- تدقيق لغوي: د. مصطفى رأفت سعد
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

الآراء الواردة في هذا الكتاب تُعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تُعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة © لدار «عصير الكتب» للنشر والتوزيع
يحظر طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية
أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي من الناشر فقط.

أحواض البلاب

أحمد قاسم

عصير الكتب

إهداء إلى:

من لا تحلو الحياة بدونهما..

إلى حواريَّ السبعة..

إلى صديق ما..

إلى المرأة التي حدثتني.. يمكن لحديثك أن يُرى ويُسمع الآن.

«الفرق بين التاريخ والخيال هو أن التاريخ خيال مثبت..»

أحد الحكماء.

المعلومات التاريخية الواردة في هذا العمل
هي خيال لم يثبت بعد..

- 1 -

«في العاشرة من عمري، بين أحواض اللبلاب الرقيقة، في الفناء الداخلي لبيت جدي، اغتصبني ابن عمي..»

قلبي ينبض بقوة تؤلمني، أمام طوفان الدموع يسقط قلمي وأتوقف عن الكتابة، أرفع وجهي إلى هند وأقول: هذه الطريقة لا تصلح. هند تقترب مني وتحيطني بذراعيها، هي صديقتي المقربة، أستطيع أن أتحرر من تحفظي أمامها أكثر مما أفعل مع أمي.

- ماذا ستفعلين مع وائل؟

أرتبك وتدور بي الحجرة، أدفع نفسي في صدر هند، بطريقة ما أتمنى أن أذوب بداخلها، أقول لها وأنا أسعل بقوة: - لن أتزوجه.

- ثم ماذا يا نور؟! يجب أن تتجاوزي الأمر.

هذا التجاوز الذي تريده هند لا يحدث بالسهل، أشعر أن حياتي توقفت عند تلك اللحظة، بين أحواض اللبلاب سلبت روحي، أنا جسد خاو بلا روح، كيف لا يفهمون هذا؟! أسمع خطوات أمي، أنتزع نفسي من هند وأحاول أن أبدو متماسكة، بعد مرور أكثر من عقد كقطعة رخامية، يصبح من السهل أن تمثل ما أصبحت عليه كقطعة رخامية، تفتح أمي الباب وأنا أمحو آخر دمعة، حين تضيء مصباح الغرفة يضيء وجهي بابتسامةٍ جوفاء اعتادت أن تنخدع بها، الصدمة الثانية بعد ما حدث بين أحواض اللبلاب أن أمي لم تفهم ما حدث لي، السوائل الدافئة وأبخرة العطارين لازمتني حتى تعافيت، كما ظنت أمي، أي فتاةٍ جميلةٍ في هذه السن تصاب بالعين وبعض الزكام، والكوابيس الليلية غزيرة العرق التي راودتني كانت بسبب أفلام الرعب التي شاهدتها مع إخوتي، وهكذا أدركت –في سنٍ مبكرة– أنني خرساء وأمي لا تفهم.

- انتهيتِ يا عروس.

رغم كل ذلك هي صلبةٌ لا تحب الدلع، وبعد وفاة أبي حرصت أن أكون الأخ الثالث لحمزة وسعيد، وبعد وفاة حمزة أصبحت بدوري الأخ الأكبر لسعيد والداعم لأمي، لا أذكر أنها طلبت مني أن أكف عن الدراسة، لا أذكر أنها اشتكت يومًا من ضيق الحال، لكنها لم تبتسم مرةً لشهادةٍ حصلتُ عليها، ما الذي يمكن أن تفعله فتاةٌ محطمة سوى أن تنجز شهادةً تلو الأخرى! تخرجت في كلية الآثار الثانية على دفعتي، كنت آمل في التعيين، لكن لأسبابٍ كثيرة ووجيهة لم أتعين، حبي للتاريخ ما زال يدغدغ أحلامي، الصفحة التي لا أستطيع تجاوزها، وأسطورة الـ «هِمي» أو الحامي التي ملأت كياني.

- وائل ينتظر بالخارج، هيا أسرعي.

تخرج أمي وتشرع هند في ترتيب أشياء في وجهي، أخرج لوائل متعثرةً في لحظات من الخواء والبغض، لكن هذا لا يهم الآن، عليّ فقط ألا أرفع عيني وأنظر، في المرة السابقة التي تجرأت وفعلت مع أستاذ

المصريات تقيأت أمام سبعين طالبًا، هذا الوجه بين أحواض اللبلاب ما زال يطاردني كلما أنظر إلى أي رجل، لا أريد أن أفسد هذه اللحظة الثمينة لأمي، سعيد يلتقط يدي قبل أن أُسقِط أكواب البرتقال، أجلس بجانبه على الأريكة ويكفيني مئونة ملامسة يد رجل، أمي تقول أشياء ويرد آخر وأنا أقاوم رغبةً عارمة في الهروب، لكن سرعان ما هربت أمي وسعيد وشخصان آخران وبقيت وحيدة مع وائل، هذه هي المرة الثالثة التي يأتي فيها، هذه المرة الثالثة التي يتنحنح حتى يعثر على كلمةٍ ما، وهذه المرة الثالثة التي أنتفض فيها وأهم بالهروب، أمي لاقتني على الباب وأمرتني أن أجلس، نظرتها القاسية تجبرني على الرجوع خطوةً للوراء ثم أخرى وأسقط ويختفي كل شيء.

عندما أفقت كنت في غرفتي وهند بجانبي، أنوار الشقة الخافتة توحي أن كل شيءٍ أمسى على ما يرام، ابتسمت هند وهزت رأسها أسفًا، تقول: – خسرنا عريس لُقطة.

وافتني خطوات أمي الزاحفة عندما هممت بالنهوض لنزع ثياب الخطوبة، تخشبت في فراشي وسمعت صوتها النحاسي: – هل أفاقت؟

أومأت هند برأسها وخرجت أمي دون أن تلتقي أعيننا، تقول هند إن أمي حزينةٌ جدًّا، أنا أتألم من أجلها لكني لا أجرؤ على إبداء أي أسباب. بعد أن تخففت من هذا الحِمل، تقول هند: إن هذه المشكلة كبيرة جدًّا وتحتاج إلى حل، تسأل: كيف تطور الوضع إلى هذه الدرجة؟ يسحبني السؤال إلى صندوقي الأسود هناك؛ حيث الثقب الذي يبتلعني، هند هي الوحيدة التي عرفت ما حدث لي، أخبرتها بهذا السر في الثانوية العامة وأنا أحاول الهروب من امتحان الجيولوجيا، كنت أمقت هذه المادة لطبيعتها الرجولية ومدرسها الخشن، عندما قررت أن أنهار أمام الجميع احتضنتني هند بطريقةٍ عفوية، وقتها سال السر مع دموعي ورأيت دموعًا تُزرف لأجلي للمرة الأولى.

تقول هند:

– يجب أن نذهب لطبيبٍ نفسي.

تنظر إليّ في رفق، هذه الفكرة ليست جديدة، لكن الطبيب رجل!

أمام حاجبي المرتفع تصحح هند ما قالت: – طبيبة نفسية.

تظل هند تلح في الذهاب إلى طبيبة طوال أسبوع كامل حتى أقرر في النهاية الرضوخ لإلحاحها، لكن المال شكّل عائقًا لا يمكن الاستهانة به، في اليوم التالي يطرق سعيد باب غرفتي ويضع مئتا جنيهٍ ثم يخرج، يبدو أن نيتي أصبحت مكشوفةً للجميع، أنظر إلى هند في رعب فأجدها تبتسم، ثم تقول أمي: إن الدراسة وكتب التاريخ هي ما تسبب لي الصلع فأتنفس الصعداء وأعرف ما فعلت هند، طبيبة تجميل تعالج تساقط الشعر أهون ألف مرةٍ من طبيبة نفسية تعالج أعراض اغتصاب، هند تحمل عني الكثير من الأعباء، لكن شيءٌ قاسٍ جدًّا أن تكون همزة الوصل بيني وبين أهلي، لا أتوقف عند هذه النقطة طويلًا أمام الوخزات اللاسعة في أنحاء جسدي، لا يعقل أن تطلب مني الطبيبة الحديث عن أحواض اللبلاب، لكني عندما أسندت ظهري للوراء وأرخيت جسدي صارت الأمور بشكلٍ سلس، وأمام ابتساماتها

وتفاعلها صرت أتحدث بشيءٍ من الوهن، وضعَتْ كفها على رأسي وظلت صامتةً وأنا أحكي، علمت منها أن لدي حالةً تسمى «أندروفوبيا» أو رهاب الرجال.

بعد جلساتٍ عدة أصبحت أكثر ثقةً مما كنت بطريقة ما، صارت نظراتي المصطدمة بنظرات الرجال لا تفقدني رشدي، مرتين فقط تقيأت فيهما على سكرتير العيادة في بداية الجلسات، شعرت بخوفي يغادرني بعيدًا كذكرى تآكلت بمرور الزمن، لكن إحساسًا آخر أخذ يتمدد في جوفي، وعندما فتح لي سكرتير العيادة وشممت رائحته الذكورية تقيأت مرة أخرى، أنا أتقزز من رائحة الرجال ووجوه الرجال وكل ما ينتمي إلى عالمهم. وأنا في الأتوبيس عندما رأيت الفتاة التي بجانبي تلتصق بزوجها شعرت بروحي تخرج من صدري، وعندما نقلت مشاعري الجديدة للطبيبة أخبرتني أن حالتي تتحسن لكن المسألة مسألة وقت، بالنسبة لي كان الوقت يستنزف مالي ومال سعيد، أصبحت أمي تتضجر بجلسات علاجي التي لا تنتهي، ومما أربكني أن اقتراب سعيد مني على مائدة الطعام ذهب بشهيتي النهمة إلى الأبد، أصبح كل حلم يراودني كابوسًا محققًا إذا حمل شيئًا من عالم الرجال، العرق الغزيز هو هو، والبعد الحذر عنهم لم يتغير، وحدهم الرجال القدامى في صفحات الكتب يمرون كالحمائم، هند جلست معي لنفكر في أمر المال، عند هذه النقطة بالتحديد لم يعد التوقف خيارًا مطروحًا، وأنا أشرح لها تقززي من الرجال لا خوفي سألتني هند عن اسم ابن عمي للمرة الأولى، لم أغضب أو أشعر بانقباضة كعادتي لكني قلت بسهولة: - اسمه حسن.

كررت هند الاسم كأنها تتذوقه وشعرت أنا بالمرارة في حلقي، حاولت أن أستعيد صورته لأجد أنها أقدم من أن أتذكرها، لكن طيفًا أسود بعيون حمراء ظهر لي، أقول لها ما الذي يدور في رأسك، هند تقول إنها أرسلت رسالة إلى مجموعة لمناقشة هذه الأمور وأشاروا عليها بأن تواجه هذا الغاصب وتجعله يتحمل تكاليف ما أفسد.

يسقط فكي السفلي من شدة البله، أظل أحدق إليها فترة وأنا صامتة لا أجد ما أقول، تقول هند إنها آسفة لهذا، لكنها أرادت أن تساعدني، أشعر أن الآلاف من النمل يسري أسفل جلدي، تشتعل بشرتي وتتوهج وهند تضع يدها على جبهتي وترتبك ملامحها، تعتذر مرة والثانية والثالثة، تقول إنها لم تذكر أي شيء عني، تمضي دقائق قاسية من الصمت تقطعه خطوات أمي في الخارج، أشعر أن صديقتي كشفت سري، وعندما أرادت أن تغادر لم أتشبث بها كعادتي، كنت باردة بطريقة فاجأتني، وبعد قضاء ليلة كاملة من التفكير مستيقظة في فراشي اقتنعت بخطة هند.

أخرجت هاتفي وقمت بإجراء المكالمة، كانت لاهثة وهي تحادثني: - نور، أنا آسفة لم أقصد أن أسبب لك أي أذى.

- لا بأس يا هند لقد اقتنعت برأيك.

تسأل هند بتوجس: هل ستذهبين إليه؟ الطريقة التي تتحدث بها والنبرة المتشككة في صوتها تخبرني بوضوح أنني مريضة وأتعالج في عيادة نفسية، هذا التصور يجعلني أفكر في جدية علاقتي بصديقتي

الوحيدة، هي تقف بجانبي في أحلك الأوقات، ما الذي أقدمه لها بدوري؟ أتذكر سنوات الكلية الأربع، إذا كان لأحد فضل في نجاح هند في كلية الآثار فهو أنا، كنت أعد لها الأبحاث وخطط المذاكرة وحتى الكلمات التي كانت تلقيها في اجتماعات اتحاد الطلاب، لا أدري لِمَ أتذكر كل هذا الآن؟ لكني أشعر بالضعف وفقدان الثقة في الحياة، أشعر بهشاشة تُحيلني إلى رماد يتبعثر في الهواء، وحتى الشاب الذي أحبته وكانت تروي لي تفاصيله السخيفة فاجأني وأنا أخرج من المدرج تائهة ضعيفة ليخبرني أنه يحبني! وقتها لم يكن هناك بدٌ من التقيؤ على وجهه، وقتها أيضًا ضحكت هند حتى سال خيطان من الدموع على وجنتيها الفاتنتين، كانت حزينة لا شك وقلت لها إنهم مرضى لا يستحقون الرثاء، لماذا أتذكر كل هذه الأشياء؟! هل ما يسمى بكرامة الأنثى ينضح الآن، ولِمَ ؟! تقول هند: – أين ذهبتِ؟

أعتذر لها عن خواطري المسممة ونلتقي أمام الحارة القديمة.

- 2 -

في تمام السابعة صباحًا وبمعجزةٍ ما أستيقظ من النوم، هذه عادتي التي اكتسبتها منذ دهرٍ مضى، لا يعتمد الأمر على ميعاد نومي فمهما زادت ساعاته أو نقصت فتوقيت الاستيقاظ واحد، بصوتٍ جهوري محمل بآلاف الذكريات تتهادى إليَّ تلاوة الشيخ «رفعت» على إذاعة القرآن الكريم، عادة أخرى اكتسبتها من البيت القديم في المنشية ولحقتني إلى أغوار أكتوبر، سلمى مستلقية بجانبي، زوجتي الرقيقة تتخذ وضعية جنين ضخم مشعث الرأس، أمد يدي وأزيح خصلة من الشعر علقت بجبينها، أضع قبلتي بعيدًا عن خيط اللعاب المدلدل من فمها نصف المفتوح، أفرغ من حمامي وأشرع في ارتداء ملابسي، في الغرفة المقابلة يكون سيف، ذو الخمس سنوات، مستلقيًا على بطنه كضفدع مصلوب لم يفشل مرة في إضحاكي، قبل أن أنتهي من إفطاري أحرص على وضع الحليب في أكوابٍ تختلف عن أكواب عصير البرتقال، سلمى تتضايق من الخلط بينهما، أجهز الخبز المحمص لسيف وشرائح الخيار والطماطم، رقائق اللانشون وقطعة الجبنة وحبتين زيتون فقط لأن سيفًا مثل جده يكون حصوات الكلى بسهولة، وأترك البيض لسلمى لأني مهما حاولت يلتصق القرص اللزج بالطاسة ولا فائدة من إقناعه، أدرك أنني نسيت شيئًا ما، سلمى لن تفوته في أقرب خناقة، ينتظرني كمال أسفل البناية، عندما يراني خارجًا يضغط على بوق السيارة كنوع من الاستفزاز، كمال زميل العمل وصديق الطفولة، شخص لا أملك الاستغناء عنه وهذا يكفي.

- الشحنة وصلت الميناء والحاج يستعجلنا.

طوال الطريق يظل كمال يتحدث عن الشحنة ويلتقط كل خيط يربطها بالصين، الصينيين وعبقريتهم ومرونتهم في العمل، حتى الطعام الصيني الذي حظي به ينوي أن يبحث عن مثيله في مصر بعد العودة من الميناء، هو من رافق والدي إلى الصين ليعقد الصفقة، لكن سروره الجارف كان لشراكته لنا بنسبة عشرين في المئة، شاب في الثلاثين من عمره قد يتعدى ربحه مليون جنيهٍ في أقل من نصف عام، قطع غيار السيارات بضاعة لا تكسد لكن المنافسة شديدةٌ مع التوكيلات الكبرى، نحن لا نعوِّل في تجارتنا على السيارات العالية، فقط الفئة المتوسطة والشعبية تمثل السوق الذي نتقدم فيه بخطى راسخة، يتوقف كمال عن حديثه فجأة ويقول: - شكرًا لك يا حسن على ما قدمته لي.

أتأمل عينيه الصادقتين وابتسامته الممتنة، أقول: - لا عليك يا كمال، أنت تستحق الأفضل دائمًا.

لم يكن يملك المال ليدخل بسهم لكني أقرضته ما يلزم، لم يعرف أبي بهذا، أبي لا يحب الشركاء، وإذا كان الشريك مجرد عامل في الورشة مثل كمال فهذا أمر يمس الكرامة، لكن كمال ليس سوى شخصٍ مستعد تمامًا لبذل روحه من أجل العمل، هذه النوعية من الأشخاص لا تختلف كثيرًا عن العمود الذي يقف في منتصف الورشة، لو سقط نسقط كلنا معه.

نصل إلى الميناء، يتقدم كمال ليقودني إلى الحاويات، يقف أمام المستطيل المعدني الضخم ويطرق بكلتا يديه ويقول هنا يكمن الكنز، يقترب موظف الجمارك، يضع قلم حبر خلف أذنه، وواحدًا آخر بيده اليمنى يدوِّن به بضع كلمات في دفتر على ساعده الأيسر، أتأمل تكشيرته المصطنعة وانشغاله الوهمي حين يقول:

- يجب إخلاء الحاوية في غضون ساعة يا باشمهندس للضرورة القصوى.

- يا أستاذ منير سنقوم بالجرد في حضور المندوب الصيني كي لا نتحمل الخسائر.

- الحاوية موجودة من الليلة الماضية، المواعيد يا باشمهندس أنت كلك فهم.

كمال ينظر إليَّ بقلق، هو جديد في زيارته للميناء، أبتسم بود إلى منير شكري الموظف المخضرم، بضع دردشات وخمسمائة جنيه ويمكن أن نترك الحاوية تنتظر للأبد.

يرحل منير ويتقدم كمال ويفتح العملاق الرابض أمام البحر، لا يفتأ كمال يضرب بيديه على الصناديق الخشبية ويردد «الكنز يا حسن»، أُلقي نظرة عابرة على الكشوفات وأقوم بإحصاء الصناديق لأكتشف الصندوقين الإضافيين، في المنتصف بالتحديد هناك مكعبان من الخشب لا يحملان أي شعار، بالنظر إليهما هناك مساحة تعزلهما عن باقي الصناديق العشرة، وإذا أخذنا عملية النقل والشحن في الحسبان فلا بد أن تكون الصناديق مرتبة بنظام عشوائي، هذان الصندوقان إن صح ظني أُضيفا على الأرض وبعد هبوط الحاوية من السفينة، بالقرب وقف كمال بمطرقةٍ وإزميل وأخذ يطَّلع على محتوى الصندوق الأول، مصابيح سيارات ومرايات وعواكس يقلب فيها كمال منتشيًا، ما زلت أستكنه حقيقة الصندوقين، الصندوق بحجم مكتب ضخم، لكن نظرًا لتفاوت الصناديق الأخرى في الحجم فلن يصنع هذا فارقًا، ألتقط المطرقة والإزميل من يد كمال، فوجئت بتجانس الجوانب الأربعة، لا مكان لفتح الصندوق سوى كسره، هذه علامة فارقة لا تقبل النقاش.

- كمال، تعال!

كان يرفع عادم سيارة «جيلي» ويقول: وضعت هذا بنفسي معهم، جذبته من ياقته حتى كاد يسقط: - انظر إلى هذا الصندوق.

لم يبد إشارة على الفهم.

- هذا الصندوق يختلف عن باقي الصناديق.

- كيف عرفت؟

- سنعرف الآن.

أشرت إليه فأخذ مني الإزميل وبدأ في إحداث فتحة، أصبحت كافية لإدخال يدي، تحسست ما بالداخل، مقابض جافة صلبة باردة ويمكن أن أسحبها معي، شهق كمال وتجمد كالصنم الذي في يدي تمامًا، كنت مذهولًا بدوري، ما أقبض عليه هو تمثال فرعوني من الذهب أو هذا ما يبدو لي، تلفت حولي بطريقة لا إرادية، عدا كمال إلى بوابة الحاوية ثم عاد.

- لا يوجد أحد بالخارج.

مددت يدي مرة أخرى إلى باطن الصندوق، هناك تماثيل أخرى بالداخل يحيط بها بطانة من القش لحمايتها من الصدمات، لم تصل يدي بالطبع إلى كل شيء، كمال ينظر نحوي بعدم تصديق، حدقتاه متسعتان وحاجباه الكثان يرقصان بلا توقف، بقليل من التفكير قلت لكمال أن يخرج ويحضر السيارات.

- سنشحن البضاعة الآن.

- كل البضاعة!

صرخت:

- نعم، كل شيء يا أحمق!

هو ليس بأحمق لكن المفاجأة ذهبت بنا بعيدًا وقررت أن أصل معها إلى النهاية.

في غضون ساعةٍ كانت سيارتا نقل تحمل الصناديق الاثني عشر إلى القاهرة، يقول منير قبل أن نخرج:

- أين المندوب الصيني؟

أُلقي له بعلبة سجائر ميريت يلتقطها ويشيح لنا مودعًا، ركب كمال مع السيارة الأولى التي تحمل الصندوق الذي رآه، الصندوق الآخر لم ينتبه له ولم أنبهه، القليل من الأسرار مثل كنز وكنز فرعوني قديم، تبعت الحمولة حتى قلب القاهرة، عبرنا البوابات، حييت الكمائن التي مررنا بها، لا شيء غير طبيعي يحدث سوى أفكاري المتلاطمة، وظنوني التي تنهش قدرتي على التركيز، لا يمكن أن يشكل كمال عقبة، وحتى يصير عقبة فهناك سؤال أكثر إلحاحًا، من وضع الصناديق في شحنتي؟! هل يصل إلينا؟! قبل أن نغادر ميدان التحرير، هاتفت كمالًا، قلت: - في أقرب جراج أو محطة بنزين أوقف السيارات.

- لماذا؟!

- نطمث آثارنا.

بعد ساعتين كانت الشحنة قد نُقلت إلى سيارات خاصة بنا، انتظرنا حتى غادرت سيارات الميناء ثم تنقلنا لمدة ساعة أخرى بطريقة عشوائية في شوارع القاهرة حتى تأكدت أن أحدًا لا يتبعنا، كان كمال مرتبكًا جدًّا، جلس بجانبي في السيارة ونقل إليّ مخاوفه وآماله، هو سعيد كأي شخص يعثر على كنز، لكنه يخشى البوح عن أشياء مثل نصيبه وغيرها من الهواجس، هو أيضًا يخشى والدي كثيرًا، سليم مختار كان ليرث «البشوية» عن جدي ومئات الأفدنة وغيرها من الأشياء التي نزحت بنزوح الملك، إلا أنه ورث فخر آبائه وأشياء أخرى لا يفهمها سوى من عاشها كما يقول، يقول إننا مصريون لم نكن خواجات ولا أتراك لكنهم لم يميزوا بين مالك مصري ولص أجنبي، كنت أنصت له جيدًا وهو يذكر التاريخ، كانت ذكرى البيت القديم تجعله يبتسم، أبي لا يبتسم كثيرًا، وتوقف تمامًا عن الابتسام منذ موت عمي في البحر غرقًا بشحنة مثل هذه، وما يقتله كمدًا أن السبب هو السفينة المهترئة التي لم نستطع الدفع لنستبدل بها

أحسن منها، لعل التقاليد القديمة هي ما جعلته بعيدًا ومهيبًا، أنظر إلى كمال، وجهه أصبح مسرحًا للكثير من المشاعر والتناقضات: - لا تخشَ شيئًا يا كمال، نصيبك محفوظ.

تتبدل ملامحه لتتخذ شكلًا واحدًا صادقًا أعرفه جيدًا: - أنا لا أريد شيئًا.

دعنا نكتشف قدرنا، أتمتم بها شاردًا، تخترق المجهول وترتد إليّ محملةً بالكثير من التناقضات، مثل كمال تمامًا، نصل إلى وجهتنا وقرص الشمس يفقد الكثير من توهجه، الواجهة الزجاجية واللافتة المعلقة فوقها يمسيان أكثر إثارة وجاذبية من ذي قبل، يهبط كمال ونقوم بإفراغ الحمولة، يفعل كما وصيته تمامًا، يتصرف بطبيعته الجادة ويتجاهل تمامًا الصناديق، يقف من بعيد ويشرف على شحنها إلى المخزن، تعمدت إبقائه بعيدًا حتى لا ينتبه للصندوق الآخر، لكنه كان يسترق النظر بين الحين والآخر للصندوق المثقوب، كان الثقب الذي أحدثناه في الميناء مثل العارضة الفاتنة التي تخطف أنظار الجمهور ليقوم الساحر بحيلته، كنت متحمسًا لإخبار أبي، لكنه غادر المكان منذ ساعة، انتظرت حتى فرغ الجميع من العمل، قلت إن الشغل سيتوقف حتى نقوم بجرد البضاعة الجديدة، الكل يغادر، تخفت الأصوات، تميل الشمس إلى مخدعها، لم يبق سوى كمال ينظر إليَّ، ابتسمت وأمرته أن يتبعني بعد أن يغلق الأبواب، كان المخزن في الجهة الشرقية من الورشة، حاجز كبير من الخشب حفظ له خصوصيته، أتى كمال وقمنا بإفراغ محتويات الصندوق بالكامل، تماثيل فرعونية مدفونة في الكثير من القش، أحجامها مختلفة وأشكالها كذلك، لم تكن لي خبرة في التمييز بين الأصل والتقليد، لكن الشواهد لا تكذب أبدًا، تأملت تمثالًا بطول ذراع، لم يكن ثقيلًا كما خمنت، يمكن ببساطة أن تعرف أنه ليس حجرًا أو جبسًا، إنه معدني ولونه لون الذهب، كان كمال يحدق إلى تماثيل أخرى، خمسة تماثيل متفاوتة الحجم هي كل محتويات الصندوق الأول، في هذه اللحظة يمكن للتفكير أن يتصلب كقطعة من الخشب عصية على الاشتعال، كمال كان غارقًا في ذهوله كمريض ذهان، حركت كفي أمام عينيه لينتبه: - ما العمل؟

- أحضر السيارة.

ينطلق كالصاروخ، يدخل إلى الورشة بمؤخرة السيارة.

- أين سنضعها؟!

أتأمل عادم سيارة سبرانزا ملقى بجانبي ثم نقوم بإخفاء التماثيل في العوادم كلٌ على حسب حجمه، نضع العوادم في المقعد الخلفي وننطلق في شوارع القاهرة: - أين نذهب؟

- نذهب للم الشمل.

لم يفهم كمال ما يدور في رأسي، لكنه أدرك كل شيء ونحن نتوقف أمام مقابر المقطم، كان الصمت يجثم على المقابر كغول أسطوري، الليل مخيف ومؤنس في ذات الآن، نصف الهلال الذي تعلَّق في السماء كفل لنا ما يكفي من الضوء لأهتدي للعائلة القديمة، انتظر كمال في السيارة لحين انتهيت من قراءة الفاتحة على قبر جدي، دعوت لعمي وأمي والصغيرة شهد، بدأ كمال في نقل العوادم، كنت أفتح قبور العائلة وأضع فيها التماثيل، قبر جدي حصل على تمثالين أحدهما الأكبر، أما شهد فكان الصغير هو

المناسب لها، أعطيت أمي تمثالًا هو أقرب لصورة الملكة نفرتيتي، فبينهما أمور مشتركة كثيرة، مثل الحب والعطاء والموت من أجل بناتها، التمثال الأخير كان يحمل ملامح قاسية، قسوته تذكرني تمامًا بالأحلام المفزعة التي كان عمي يطاردني فيها وهو يصرخ «ضيعت الأمانة».

شعرت بيد كمال تحط على كتفي.

- لنرحل.

أتبعه إلى السيارة وخاطرة قديمة سوداء تطاردني، في السيارة يقول كمال: - لماذا في المقابر؟! يمكن أن تنكشف.

أتأمل مشاعل النار المتناثرة في حشايا القبور، الكثير من الحشاشين والمتجرين وحتى من يسكن لكنهم غارقون في القبور كالموتى تمامًا، أقول: - كل يوم جمعة، يحضر أبي ليسقي الزرع ويبكي القرن الماضي، اخترت المكان الذي نتردد عليه بسهولة دون أن نثير الريبة.

- الله يرحم جدك!

- لم يعد جَدًّا بل ستة جدود.

في الطريق أرفض أن يوصلني كمال إلى شقتي: - لقد نسيت الهاتف في الورشة، سلمى توشك على الانتحار بالتأكيد.

يضحك كمال وأوصله إلى حارته أولًا لأنها الأقرب، ثم أنطلق للورشة لألتقط الهاتف الذي وضعته بنفسي في درج المكتب، حيث يمكن أن أنفذ إلى داخل الصندوق الآخر وحيدًا، قبل أن أهبط من سيارتي أتأكد من عدم الملاحقة، كل شيء مغلف بالصمت، المحال التجارية أغلقت أبوابها منذ ساعة تقريبًا، الواحدة بعد منتصف الليل تنفث لعنة السكون في هذه الحارة وتعزلها تمامًا عن قلب القاهرة النابض، أمرق داخل الورشة وأوصد كل باب خلفي، أختلي بالصندوق كأنه عذراء خدرية محصنة، أولج الإزميل بين الجانبين المتعامدين ويخرج السر العتيق لامعًا أمام عيني، تمثال آخر بطول ذراع من الذهب ممزوج بخطوط حمراء وأخرى ذهبية متدرجة مع باقي الجسم، أتخلص من كتل القش وأعثر على لوح جرانيتي مستطيل الشكل يحمل الكثير من النقوش المرمّزة، أحاول جذبه فأكتشف ثقله الكبير، بمساعدة الحوامل أستدرجه إلى الخارج، أنفخ فوق نقوشه فيرتفع غبار ثقيل وتتبدى النقوش أكثر رشاقة، أزيل المزيد من القش لألمح لفافتين من أوراق قديمة بالية محفوظة داخل حافظات شفافة لم أتبين مادتها، لكن يبدو أنها حافظات خاصة تمنع تآكل الورق الذي ربما هو ورق بردي قديم، أفرغ كامل القش الذي في الصندوق ولا شيء آخر، فقط الورق والجرانيت والتمثال المميز، أتناول هاتفي وألتقط صورة والثانية والثالثة حتى أنتهي من الأوراق البالية جميعًا، وأنطلق بهم إلى مقبرتي الخاصة إلى أن يقضي الله أمرًا كان مفعولا.

***

في تمام الثانية صباحًا أضع مفتاحي في باب الشقة وأدير المقبض بسلاسة، أعلم أن سلمى تنتظر، أفضل المرور على الضفدع المصلوب أولًا، أجده كما تركته مستلقيًا في وضعه الطقوسي الحاضن للفراش، أجلس بجانبه وأتأمله بحماس على نسيج الضوء المتسلل من الخارج، المستقبل الذي سيعيشه سيف سيكون أفضل من مستقبلي لو صار كل شيء كما أخطط له، تنتقل يدي إلى شعره وتعبث به قليلًا، أتساءل عن فائدة أصالة عائلتي إن لم تستطع أن تطعم هذا الصغير الخبز بصورة كريمة، لكنه على كل حال سيرث الكثير من الأموال عن أمه، هذه النقطة تؤرقني بقدر ما تريحني، أموال أبيها في مقابل تاريخي! لأيهما يا ترى سيشعر سيف بالامتنان؟! لكن مع وجود ستة تماثيل سيكون الوضع مختلفًا، أبتسم عندما أشعر بالضفدع الصغير ينهض ويتشبث برقبتي، نهوي كلانا على سريره ونحدث ضجة صاخبة، يضحك بصوت عالٍ وأتعجب إن كان النوم قد غمره كما كان يبدو!

- شششش، ماما قادمة فلتنم!

- أنا مش بحب الكندر.

ولا أنا...

- لكن أمك لن تقتنع بالفكرة.

يحني رأسه ويحرك ساقه المدندلة عن سريره كبندول الساعة.

- ما الذي يزعجك من الحضانة؟

يظل صامتًا ويحافظ على وضعية الخاضع ببراعة، أدرك أنه ارتكب فعلًا ما ونال عقابًا، أقبض على ساقه المتأرجحة برفق وأجذب رأسه نحوي ثم ابتسامة كبيرة باتساع الغرفة: - ما الذي حدث؟!

أضع كتفيه الغضتين بين كفي وأرجهما فيقرقع كتغريد ألف عصفور في انبلاجة فجر.

- المُدرسة عاقبتني.

- ماذا فعلت حتى تعاقبك.

- ضربت نودي.

- لماذا ضربتها؟

- نودي ليس فتاة.

- لماذا ضربته؟!

- يضايقني.

- ماذا فعل كي يضايقك؟

يصمت سيف، يفتح كفيه ببراءة ويهز رأسه.

- ضربته بلا سبب يا سيف؟!

- لا.. كما أنه يأخذ أقلامي!

سلمى قادمة، خطواتها الضجرة تسبقها إلى أذني، تشعل نور الغرفة فيحجب سيف عينيه، أفتح عيني بعد أن اعتادت الضوء، ترتدي روبًا أبيض مخمليًا، رأسها مائل إلى اليسار قليلًا وذراعاها متشابكتان أمام صدرها، تتقدم دون أن تنظر نحوي إلى سيف وتدثره في فراشه، كل هذه علامات احتراق ذاتي، تهمس له بعد أن قبلته بين عينيه: - يجب أن تنام الآن.

تخرج متحاشية النظر إلي، أتبعها بعد أن أغمز لسيف الذي كشف أعلى وجهه فيبتسم، أقول له: - لا تسمح لأحد أن يأخذ أقلامك دون رضاك.

يومئ برأسه ثم أطفئ النور.

تستلقي سلمى على ظهرها في نصف رقدة وتتظاهر بالقراءة في كتاب، يمكن التأكد من ذلك من خلال النظر إلى حدقتيها الثابتتين! هناك الكثير من المواضيع المؤجلة التي يجب أن تُحسم الليلة، أشرع في نزع ثيابي، كانت هناك لحظات قديمة ساعدتني فيها على نزع السترات ووضعها في خزانة الملابس، لا أتذكر المرة الأخيرة لاقتراب زوجتي منى وممارسة هذا الطقس الدافئ، متى تسرب كل هذا الخريف إلى علاقتنا؟! رغم ذلك أنا أحبها، ربما كان الحب وحده هو ما دفعني للزواج منها وهو وحده دافعي للإبقاء عليه، لم تكن ثروة أبيها بهذا الحجم عندما تزوجنا، وكان يكفي فخر عائلتي وحده لإتمام المصاهرة، عشر سنوات كانت كافية لينمو أبوها من سمكة قرش عادية -يمكن اصطيادها بسهولة- إلى ميجالودون، ترى ما الذي يتغذى عليه حماي؟! انتهيت من الثياب وسلمى تترقب، أخمن أن تبدأ بتجاهلي الرد عليها طوال اليوم ثم تقفز بمهارة غزالة سافانية إلى شغلها الجديد، انتقيت مشكلة سيف كبداية وسألتها عما حدث.

- المُدرسة تشتكي منه، سيف شقي ولا يجلس في مكانه وغير متعاون مع أصدقائه.

- وأنت ما رأيك في كلام المُدرسة؟

ترفع عينيها إليَّ للمرة الأولى.

- تلمح إلى انشغالي عن ابني؟

هذه دعوة عاجلة للتصادم، أقترب منها وأجلس على حافة الفراش، وعندما بدأت في تدليك ساقها قلت:

- المُدرسة لا تعرف سيفًا أكثر مما نعرف.

- إنه يفتعل المشكلات دائمًا شاهدت ذلك بنفسي كثيرًا، ومسؤولة الصحة النفسية في الحضانة تود نقله إلى فصلٍ خاصٍّ.

- فصل خاص لأنه يرفض أن يشاركه أحدٌ في أقلامه!

- ويتحرك كثيرًا ولا يجلس في مكانه! مسؤولة الصحة النفسية تقول إنه مصاب بفرط الحركة.

- عزيزتي، المُدرسة تريد تدجين الصغير وجعله مثل فتاة جميلة صغيرة طائعة، ومسؤولة الصحة النفسية ليست طبيبة بشرية حتى نثق في آرائها!

يرتفع جانب شفتيها لأنها لم تقتنع.

– حبيبتي سلمى، الأولاد الذكور لا يستطيعون المكوث على نفس المقعد طوال هذه الساعات دون حركة، هذا جحيم يا طفلتي الجميلة.

تبعد يدي الممتدة إلى خصلاتها، تنهض من الفراش وتقف في مواجهتي كالمُدرسة تمامًا لو كنت سيفًا:

– والأزواج الذكور يمكثون خمس عشرة ساعة خارج المنزل دون أي اهتمام بأحد لأنه جحيم، أليس كذلك؟!

هذه البداية فحسب، أقول:

– كنت مشغولًا وحدثت اليوم مفاجأة صادمة لو تعرفين.

أتمدد في الفراش تمهيدًا لانسحاب فاشل: – لقد عثرت على كنز يا سلمى!

حاجباها القاتلان يرتفعان في دهشة مصطنعة، ينفغر فاها قليلًا وتقول: – تسمي الخردة التي تحصل عليها كنزًا؟!

أشعر بالإهانة، هذا شعور طبيعي لزوج تسخر زوجته من عمله، رغم ذلك أنظر إليها باهتمام كاذب، تقول: – ليسانس إدارة الأعمال من كلية الاقتصاد والعلوم السياسية يؤهلك لأن تعمل لدى أبي فما المانع؟ الآن تصبح أنفاسي صعبة الالتقاط.

– نسمتي الرقيقة، هل تعلمين لِمَ لا يشارك سيف أقلامه مع الآخرين، لأننا، معشر الرجال، نحب السيطرة والتملك وبناء الشركات من الصفر كما فعل أبوكِ تمامًا، يكفي أن تعملي أنتِ لديه، دعيني وشأني أرجوكِ.

تقول سلمى:

– أنت ما زلت غاضبًا من عملي في الشركة.

تبدأ دورة الخلاف الليلية بسرعة الضوء، بدوري أقول إن تربيتك لسيف أفضل من تربية المُدرسة وأفضل من عملك في الشركة.

– أفكارك قديمة جدًّا، أتمنى أن تعثر على قطع غيار صينية لعقلك في وقت ما.

أطفئ المصباح الذي بجانبي رغبة مني في إنهاء النقاش، أعرف أننا لن نلتقي أبدًا، سلمى تعمل رغم رفضي لعملها، تنازلت بسبب ضغط والدي ووالدها، هي على كل حال تعمل لدى أبيها، لكني أشفق على سيف وأشفق على زواجنا، كمحاولة أخيرة أمد يدي إليها وأفتح الأخرى لكي تهوي في حضني كعهدنا سابقًا، رفضتُ الإنصات إليها فترفض هي حضني وتذهب للنوم في فراش سيف، أحتضن ذاتي وأفكاري وكنوزي ومقابري، أنسى أن أقول لها لو أن سيفًا شعر بامتلاك أقلامه واطمأن إلى غريزته في التملك فسيمنحها عن طيب خاطر، وأغط في نوم عميق!

- 3 -

تكفلت هند بعنوان ما يسمى بحسن، إن صح ظني فقد حصلت عليه من سعيد، لولا أن أخي يصغرنا بعامين لقلت إن هناك علاقة آخذة في النمو بينهما، أعرف ما تريده هند وهو بالطبع ليس سعيدًا لكني أجهل حقيقة أخي، تقول هند: لماذا انقطعت علاقتكم بعمكم طوال هذه الفترة؟ ما أذكره أن عمي حضر عزاء أبي ثم بعد خلوته بنا اتهمته أمي صراحةً بالتسبب في قتل أبي، كنت منزوية على نفسي في غرفتي، أكابد ويلاتي وحدي، هدر عمي غاضبًا وتبعته أقدام كثيرة ميزتُ بعضها جيدًا وتقيأت، حامَ صمت قاسٍ في الشقة ثم ترامى إليّ بكاء أمي الصامت، أرملة ثلاثينية جميلة وحيدة انتهكها الزمن.

- نور، أنت تسرحين كثيرًا!

- أين نحن بالضبط؟!

تقول هند نحن أمام ورشة سليم المختار لقطع غيار السيارات وتشير إلى الأمام مباشرة، الواجهة الزجاجية تعكس نور الشمس بفظاظة بالغة فأنحي وجهي جانبًا، نعبر الطريق بحرص أمام السيارات السريعة، أتوكأ على هند كعجوز في خريف العمر، ندور مع الصينية التي تتوسط التقاطع ثم نقف على حافة الطريق أمام الواجهة الزجاجية مباشرة، أقرأ اللافتة القديمة وأردد الاسم مرارًا، ورشة الحاج «سليم المختار»، يبعث الاسم شجونًا في نفسي تهشم قدرتي على الوقوف، تشعر هند بارتباكي، أشعر بارتباكها هي الأخرى، تتساءل إن كنت أفضل الرحيل، أطالع السيارة التي خرجت من أحد جوانب الورشة والعامل الذي يتمدد أسفلها، بطريقة ما، ربما من تأثير التعب وحرارة الشمس، أشعر ببعض العزم، أتخذ خطوة إضافية ناحية الباب، تدفعه هند فيتحرك مُصدِرًا أزيزًا ينخر العظام، النسمة الباردة التي يبعثها مكيف الهواء ترد الروح، المكان متسع ويشمل الدور الأرضي للعمارة ومقسم بحواجز خشبية إلى عدة أقسام، هناك شاب يستقبلنا بابتسامة مبتذلة ويسأل عن الخدمة التي نطلبها، أقول بصوت مبحوح أسبق به هند: - حسن سليم لو سمحت.

تزداد ابتسامته بشاعة ثم يقول: - حسن بيه مشغول من يطلبه؟

- ابنة عمه نور شاذلي مختار.

قالت هند مشيرة إليَّ؛ يتفرس ملامحي ثم نتبعه إلى الداخل، لم أعد أشعر بالخوف أو التقزز، في الحقيقة لم أعد أشعر بشيء، وحين عثرت يد هند على يدي انتفضتُ كأني لُسعت، ابتسمت هند وهمست إن كل شيء على ما يرام، تنحى الشاب اللزج ليكشف عن غرفة صغيرة في نهاية الورشة واجهتها من الزجاج ويشغلها مكتب كبير، طرق الباب وأفسح لنا وأصبح بإمكاني رؤية الطيف القديم بعد خمسة عشر عامًا، نهض واقفًا فبدت قامته الفارعة ونظر إلينا في تساؤل، عندما كانت هند تعلن عن هويتنا غامت الدنيا وهويتُ مغشية.

أفقتُ وأنا مضطجعة على أريكة جلدية داخل المكتب، كانت هند تسند رأسي وهناك رائحة نفاذة تلتهب في أنفي، عدة وجوه تطل من أعلى بذهول بالغ، نهضت مفزوعةً وجلست دافنة وجهي بين كفي، شعرت بالحرج يغمرني كموجة من الحمم، صوتٌ رصين فولاذي لغاصبي يأمر الجميع بالخروج، رفعت رأسي للمرة الأولى لأُقيِّم وضعي المزري، هناك زهرية في جانب المكتب ومنضدة صغيرة تحمل علبة سجائر وولاعة، انتبهت لكوب الماء الذي مده نحوي، تناولته دون أن أرفعه إلى فمي، جذب هو كرسيًا من الركن وجلس في مواجهتي، بشرته ملوحة مليئة بالتجاعيد ولحيته قصيرة، أمال رأسه للأسفل فظهر شعره الخفيف، قطع الصمت بصوته الفولاذي: - أنتِ نور، أليس كذلك؟

هززت رأسي بخضوع غريب ونظرتي معلقة بعينيه، شبح ابتسامة يظهر في وجهه ويقول بشيء من الارتباك: - كيف حالك يا نور؟

يتلجلج، يقول:

- كيف حال سعيد والست فريدة؟

تتحرك أمعائي، أكتفي بالتحديق إليه، لا أعلم ما الذي يفكر فيه الآن لكنه لا يبدو على ما يرام، يسترق نظرة من هند ويكرر سؤاله لي: - هل أنت بخير؟

تتنحنح هند وتخبره بما جئنا لأجله، وأصبحت أخشاه. يربد لونه، ينفغر فمه وتتسع عيناه، تصل هند لنقطة المال، ينكس رأسه ثم يرفعه نحوي، يعتصر كفيه، تتجدد رغبتي في التقيؤ، أشعر أني مهانة ومكسورة أكثر من ذي قبل، أطلب المال ممن اغتصبني لأتكفل بنفسي، هل سيرتاح ضميره الآن؟ أم ربما يراودني مرة أخرى؟! لم ينكر ويتظاهر بالدهشة ويقم بطردنا على كل حال، إنه صامت ومنكس الرأس وربما يبتسم قبل أن ينفجر ضحكًا، تبًا لي وتبًا لهند، أي حقارة هذه! تتصاعد رغبتي في التقيؤ، يسيل لعابي حتى يملأ فمي، لا أتحمل، أنهض وأشير لها في حزم، العصارة تتصاعد إلى حلقي فأدفعها بلعابي إلى الداخل، التقزز سكن ملامحي وأصبحت مفعمة به.

- لنخرج من هنا.

بحزم قلت لهند فتبعتني، إحساس داخلي يدفعني للهرب من هذا المستنقع، شيئًا فشيئًا ترتخي عضلات وجهي وشعرت بنفسي أبتسم، وعندما لامس شعاع الشمس بشرتي الناصلة شعرت كأن جناحين خرجا من أطرافي لأحلق أعلى من الورشة والسيارات والعالم كله.

طوال الطريق وأنا أردد «كانت فكرة سيئة يا هند»، لكن صديقتي لم تحر جوابًا، وابتسامة غامضة تعلو شفتيها، أسفل بنايتي رفضت هند الصعود، تظاهرت بأنها تذكرت شيئًا ثم دفعت يدها في حقيبتها وأخرجت لفافة من المال ألقتها نحوي وقالت: - هذا حقكِ، لا تكوني حمقاء!

***

قضيت ليلتي بأكملها في التفكير بأمر المال، نمت بين دفتي كتاب موسوعة مصر القديمة دون أن أستقر على قرار، عندما استيقظت في الصباح كانت لدي قناعة جديدة وراسخة تمامًا، سآخذ المال لأنه حقي كما

قالت هند، وفي أثناء طريقي إلى العيادة كنت أفضل حالا من ذي قبل، ظهر ذلك جليًا من أول لقائي بسعيد ومزاحي معه بلا أي تقزز أو خواطر هلامية، أمي أيضًا ابتسمتُ لها ابتسامة حقيقية، حملتها كثيرًا من الإشفاق والحب، لا أدري ربما لقاء البارحة للورشة هو السبب، ربما تنكيس الرأس والمال الذي حصلت عليه حمل نوعًا من الاعتذار كنت في حاجة إليه! وللمرة الأولى أذهب إلى العيادة بمفردي، كان شعاع الشمس أدفأ من ذي قبل، ومشيتي أكثر ثقلًا وثباتًا على الأرض، أحسست أن بإمكاني السير إلى العيادة دون الحاجة للسيارات، لمحت أيضًا صيدلية دكتور وائل رشيد، كم كانت قريبة من منزلي ولم أدرك ذلك!

قالت لي الدكتورة ملك الخولي إن ما فعلته البارحة لم يكن صائبًا الآن، لكنه ساعدني بطريقة إيجابية على التقدم، رويت لها حقيقة شعوري واستمتاعي حتى بأشعة الشمس، ومنها عرفت معنى أن تكون متفائلًا، انتهت جلستي وخرجت لأجد هند تنتظرني، في طريق العودة خطرت لي فكرة طائشة، سأجلب العلاج من صيدلية وائل رشيد، لم تبدِ هند أي اعتراضٍ، كانت حركة بطولية ستسعد الجميع على حد وصفها، انتظرتْ بالخارج وخطوتُ إلى داخل الصيدلية، كانت مشبعة بالضوء ورائحة عطرة نفاذة، أجلت نظري سريعًا فعثرت على وائل يجلس أمام حاسوب وفتاة أخرى تمسك بروشتة وتنتقل بين أرفف الدواء، تنحنحت بصوت مسموع، نقل إليَّ وائل عينيه بخمول ثم هب واقفًا، غمرتني سعادة شديدة، ما زلت أعني لوائل الكثير، تقدم نحوي باهتمام مشوب ببعض الحيرة، ناولته الروشتة فأخذها من يدي ثم ذهب بتلقائية إلى أحد الأرفف واختار العلبة البيضاء ووضعها أمامي مباشرة، وجدت أن لدي الشجاعة الكافية لأسأل: – لم تنظر حتى في الروشتة؟

يعلق عينيه بعيني ويقول:

– أنا أعرف.

قبضة جليدية تعصر قلبي، يقول: – تتناولين مضادات الاكتئاب، أعلم أنك تعانين من اكتئاب حاد في الآونة الأخيرة.

أشعر ببعض الراحة، وألتقط شيئًا من أنفاسي.

– لم يتم تعيينك في الكلية وهذا شيء قاس.

أسترخي تمامًا وأستعيد أنوثتي الضائعة من جديد.

– لكن يا نور، الحياة لا تتوقف على حلم واحد!

يصمت ويحاول أن يستوعب الموقف، هو يتحدث إليَّ بعد كل المحاولات التي فشلت، أنا أيضًا أتشرب الإحساس الجديد وأتيه به، أعرف أنه يرغب بالاستمرار، المواضيع التي يطرقها كثيرة ومتشعبة، يظهر ذلك في الفوضى التي بدأت تجتاح كلماته، يعيد إليَّ المال الذي دفعته، أرفض بحسم وأذهب، وبعد عدة أمتار في الشارع أنظر خلفي لأجده يقف أمام الصيدلية يتابعني بعينيه.

– إلى هذه الدرجة يا هند!

- أنت جميلة يا نور، ألا تلاحظين ذلك؟!

- أتمنى أن يشفع لي هذا الجمال، قبل أن أنسى.. كيف عرف أني مريضة اكتئاب حاد؟

- أراد أن يعرف لم ترفضينه بهذا الشكل، طلب لقائي وأخبرته أنك تمرين باكتئاب نتيجة لرفض تعيينك في الكلية. وكم بدا حزينًا لأجلك؟!

- أنت شريرة جدًّا يا صديقتي!

وأمام المارة احتضنتُ هند شاعرةً بالكثير والكثير من الامتنان. تربت هند على كتفي وتقول هذا يكفي ما زلنا نتقابل: - لكن من الآن فصاعدًا أنت من سيأتي للزيارة.

ترحل هند وأصعد إلى شقتي، قبل دخولي أشم الرائحة التي شممتها في الورشة، ولصدمتي أراه جالسًا في غرفة الاستقبال مع أمي وسعيد.

- 4 -

في اليوم التالي عندما استيقظت من نومي كان ضوء النهار كثيفًا يخترق السدل البيضاء في غرفة النوم، سلمى ليست بجانبي فتذكرت الليلة الماضية، الساعة الرقمية على الكومودينو تشير إلى الحادية عشرة، أنتفض كالملدوغ، ولأول مرة منذ سنوات يجرفني تيار النوم بعيدًا عن واقعي بهذا الشكل، أجول في الشقة لأجدها خالية تمامًا حتى من صوت الشيخ رفعت، فراش سيف مهندم وسلة المهملات في المطبخ تحتوي على بقايا طعام جديد، أعود إلى غرفتي أصلي الصبح وأتهيأ للنزول.

في الشارع يحضرني إحساس غريب، لست مستعدًا لتلقي شعاع الشمس بهذا التركيز بعد النوم مباشرة، كما أن تفكيري مشتت وشيء من الوحشة يملأ كياني، لا يعقل أن استيقاظي متأخرًا يصبح كاللعنة بهذا الشكل، أصل إلى الورشة وأنزل من سيارتي وألاحظ أخرى «جميس» أمريكية سوداء يصعد إليها ثلاثة أشخاص، بنيتهم عضلية ومشيتهم نظامية، يرتدون سترات داكنة ونظارات معتمة، وعندما تندفع السيارة في قوة أشعر أن للأمر علاقة بالليلة الماضية، أمام تركيزي المترنح لا أملك إلا تلقي المفاجآت. في الداخل يخيم صمت مريب على المكان، لا عمال ولا سيارات مفككة، أخطو خطوات بطيئة مستطلعة ثم أتقدم إلى غرفة المكتب، وأنا ألقي نظرة أخيرة على المكان الخالي تصطدم عيني بفؤاد ميكانيكي السيارات في الورشة، منبطحًا خلف ركام سيارة قديمة ويداه ترتجفان.

- فؤاد، ما الأمر؟

يتشبث بساعدي كالغريق ويشير نحو المكتب، لا يحتاج الأمر إلى مزيد من التفكير، عندما دخلت غرفة سليم مختار كان أبي منبطحًا بجزعه على المكتب، أرفعه فأجد حنجرته مشقوقة وسيلًا من الدماء يغطي صدره وملابسه ويسري على أرضية الحجرة، بكل سنواتي الأربع والثلاثين أصبحت طفلًا لا يملك إلا الصراخ.

لا أدري كم مضى من الوقت لكني عندما رفعت رأسي وجدت حماي وكمال والبحث الجنائي والكثير من الاستجوابات، الدكتور جمال عبيد يجلس بجانبي، قبض على كفي وقال: - شد حيلك يا بطل... هاتفت سلمى، ستمر على سيف لتحضره. يجب أن تكون زوجتك بجوارك الآن.

- أفكر في أبي، أخشى أن يخضعوه للتشريح.

كان صوتي بعيدًا وغريبًا عني، لكن تشريح الجثة يحمل نوعًا من الامتهان لذكرى أبي.

- لا تخشَ شيئًا. لن يحدث رغم صعوبة الأمر، أنت تعرف.

أعلم أن حماي نافذ وسيحقق رغبتي لكنه يستمتع بإذلالي.

- وكيل النيابة قادم.

شاب ثلاثيني يرتدي بدلة سوداء ورابطة عنق سماوية، يجلس أمامي ويسأل الأسئلة التقليدية، هل كان لكم أعداء؟ أين كنت؟ من وجده؟ وكل هذا الهراء الذي لا يؤدي لشيء، وعندما انتهى طلبت من كمال أن يجهز إجراءات الدفن، كانت العلامات واضحة لمن يقرأ، من وضع التماثيل في حاويتي هو من قتل أبي، ما يشغل بالي ويستحق التفكير هو وجود التماثيل في الحاوية، هل كان متعمدًا أم مجرد صدفة قاتلة؟ كمال مرتبك، يبدو أنني غبت طويلًا عن الواقع، صدمتي جمدتني في مكاني طويلًا، الآن يتحرك بنوع من الانفعال، أعتقد أن انفعاله تجاوز حزنه على أبي. انفعاله وصل إلى المقابر وما بداخلها.

- كمال!

أنتحي به جانبًا، يتحرك حماي إلى حيث نقف، قبل أن يقترب أقول: - سيُدفن أبي في مقبرة جدي، عند اللحد سأفعلها أنا وستقف أنت على باب المقبرة.

يحمل كلامي الإشارة التي انتظرها، كان يشعر بالورطة بشكل أعمق، سندفن أبي في مقابر ملأى بالتماثيل، كما أن موت أبي كفانا اختبار أصلها من زيفها، لا أحد يُقتل من أجل تمثال مغشوش، وصل حماي إلى دائرتنا الصغيرة فتعمدت أن يسمع ما أقول عن باقي إجراءات الدفن، ولم أنسَ أن أذكر فضله في تسهيل الأمور، يومئ كمال برأسه وينصرف، يربت حماي على كتفي ويشد أزري.

يتم كل شيء كما هو مخطط له، أنتظر في باطن القبر وأستلم جثة أبي، مددته على جنبه الأيمن ووجهته للقبلة، حاولت أن ألتقط شيئًا لأسند به ظهره كي لا يسقط، وقعت يدي على رأس التمثال الأكبر، خليته والتقطت قالبًا من الطوب، سالت دموعي بلا توقف، حاولت أن أحبسها تحقيقًا لرغبة أبي، كان يرفض أن يراني باكيًا، يهزني بشدة ويقول حسن سليم لا يبكي، لا أتخيل كل هذا الكبرياء يتم سنده بقطعةٍ من الطين حتى لا يسقط، لا أتخيل أيضًا أن تكون هذه ميتتك يا أبي! قتيلًا على يد حفنة من لصوص الآثار، تنتهي تلاوة الملحد الذي ظل بالخارج احترامًا لرغبتي، دعوت لأبي وقبلت وجهه مرةً أخرى من فوق الكفن الأبيض، خرجت من المقبرة وسد كمال بابها، استقبلت العزاء من كثير من الأشخاص بعضهم كان نافذًا مثل حماي، شرع الجمع بالانصراف، لمحت سيفًا يجري نحوي، رفعته إلى صدري وضممته بقوة، كان قد كف عن البكاء لكني لم أكف، سيف يقول: - جدي راح عند ربنا؟

قبل أن أجيب تلتقطه سلمى، تأمره أن يذهب إلى السيارة، شعرت أني أكرهها بشدة في هذه اللحظة، قبضت على يدي وأسندت رأسها إلى صدري كأنها تطلب عزائي، ظلت صامتة على هذا الوضع حتى استقبلتني حماتي السيدة جميلة محجوب وتحركنا جميعا صوب السيارة، وذهبنا إلى بيت العائلة، سراية قديمة متداعية الأركان من أيام المجد الغابر، لم يغادرها أبي في حياته، عاصرت طفولتي وملاعب صباي وتجاربي الأولى الساذجة والكارثية، في الفناء حيث باقي تقاليد العزاء ألمح كمالًا، أشير إليه فيأتيني مسرعًا: - لم يكن أحد من العمال في الورشة. أين ذهبوا في هذا الوقت؟

- ليس هذا وقتًا مناسبًا يا حسن!

يشير حماي إلى كمال فيذهب، لكن رأسي لا يتوقف عن التفكير، كيف حدث الصدام بينهم وبين أبي وكيف أدى إلى قتله؟ أتذكر فؤاد الميكانيكي، كان هناك ورأى كل شيء، يا إلهي فؤاد الميكانيكي! أنهض متوترًا وأستدعي كمال: - اذهب إلى فؤاد الميكانيكي وضعه في مكان آمن.

لا يبدو أن كمال فهم شيئًا، لكنه يأخذ السيارة ويرحل، أعود إلى موضعي في العزاء، يهز حماي رأسه حزنًا، يقول: - دع التحقيق للجهات المختصة، سيفرغون الكاميرات التي في الشارع ويتحققون من السيارة التي وصفتها ويتتبعون الجاني أيًا كان.

الجهات المختصة! في أثناء التحقيق تم إفراغ كافة الصناديق، لا أعلم أهمية ذلك في جريمة قتل! إن صدق ظني فنحن في كابوس حقيقي، يرن هاتفي، يقول كمال: إن فؤادًا لم يذهب إلى بيته منذ خرج إلى عمله في الصباح، بعد العديد من الاتصالات تعثر الشرطة على جثته، كما توقعت، في أحد صناديق القمامة.

***

انقضى يوم والثاني وأسبوع كامل ثم وجدتني معزولًا في شقتي، كنت بحاجة للحزن على أبي كما ينبغي له، لكني محاط بهواجس تفسد عليّ حدادي، تُرى كيف يكون تصرفه لو علم أني عثرت على كنز؟! هل كان سيفرح ويخطط لبيعه والاستفادة من المال؟ أم كان سيقرر التخلص منه بأي طريقة، أنا حقًّا لا أستطيع توقع أبي.

- ألن تأكل؟

دعوة إلى العشاء مقدمة إليّ من سلمى، متى كانت آخر مرة تعشيت مع زوجتي؟! هل يجب أن يموت أبو المرء حتى تدعوه زوجته للعشاء.

- لا أملك شهية للطعام.

تقترب مني وتحتضن وجهي بكفيها.

- أنت لن تصوم العمر كله، يجب أن تأكل لتتمكن على الأقل من مواصلة الحزن.

تبتسم وتجذبني كطفل إلى مائدة الطعام، عشاء جاهز طلبَته من أحد المطاعم، أظن أنها لم تعد تجد الوقت الذي تعد فيه طعامًا لأحد، ما فائدة كل هذا التعب يا تُرى؟!

يأتي سيف ويجلس على الكرسي المجاور، كانت الطاولة مستديرة بحيث تجعل جلستنا حميمية، سيف على يميني وسلمى على يساري، يا لها من سعادة مفتقدة، لا أملك شهية لشيء، أكتفي فقط بالمراقبة وأنصت لكلمات سيف العذبة.

- كانت أمي لتسعد بإقامتنا معهم لو وافقت يا حسن.

أهز رأسي وأتظاهر بانشغالي بقطع الدجاج المتبلة، لست في حاجة لحديث مزعج هذا المساء، لكن هزات ساق سلمى المتوترة ونظراتها المختلسة توحي بشيء مزعج ستحدثني عنه، كل ما علي هو الانتظار إذًا حتى تبدأ، ينتهي طقس العشاء البارد، تقود زوجتي الجميلة سيفًا إلى مضجعه، وقبل أن يدخل يلوح لي

بقبلة هوائية ألتقطها بحركة تمثيلية كحارس مرمي، يضحك ثم يختفي، تهيِّئ سلمى الجو للشيء المزعج، أخرج إلى البلكونة لتدخين سيجارة «LM» من علبة أبي، أفضل أن أختنق بالسجائر على الاختناق بكلام سلمى، لم أكن مدخنًا من قبل، عندما أخذني أبي من ذراعي وعنفني على السيجارة التي سحبتها من علبته وأنا لم أقربها، لكن استعادة مسكته للسيجارة وتقليد الطريقة التي ينفث بها دخانه لا تُقاوَم، لحظات وتلحق بي، تتفاجأ أو تدعي أنها متفاجئة من تدخيني، كأني لا أبيت بجانبها طوال الأيام الماضية ورائحة السجائر تقطر من أعطافي، على كل حال أقول: - علبة سجائر أبي الأخيرة، لم يدخن منها سوى سيجارة واحدة، والآن لم يبقَ لدي سوى سيجارتين.

- أووه صغيري الحزين.

ثم تمد يدها فتعبث في شعري، وتقول:

- هل لي أن أحظى بواحدة.

- ماذا؟!

- سيجارة لأشاركك لحظات حزنك.

أمام غضبي البادي، تقول:

- أمزح فحسب.

لا أظن أنها بداية موفقة للحديث عن شيء سأرفضه بالتأكيد يا سلمى، تطرق برأسها ثم تقول: - مجموعة شركات أبي اشترت قناة فضائية كما تعلم.

تنتظر وقع حديثها عليّ، ما زلت ألفظ أنفاسي منتظرًا ما تقول.

- هناك فكرة برنامج سأقدمه على شاشة القناة، ما رأيك؟

الآن يبدأ العد التنازلي لزواجنا السعيد.

- تريدين أن تصبحي مذيعة؟

- مقدمة برامج، هناك فارق.

- برامج حوارية، توك شو، برامج طبخ واستضافة نجوم وممثلين وإلخ.

- نعم، ما المشكلة؟!

- آه.. لا مشكلة على الإطلاق، ثم هناك فريق إعداد ومخرجون ومساعدو المخرجين وملوك الأزياء وكاتبو السيناريو والمحررون ورجال في حياتنا ومكالمات هاتفية في منتصف الليل وجمهور أيضًا.. أوه يا لها من حياة رائعة.

يتهدج صوتها وتلمع عيناها.

- أنت تكره نجاحي!

– بالعكس. كنتِ معي في كلية الاقتصاد وكنت سبب نجاحك، لكن سلمى ما الذي تعرفينه عن الإعلام والتلفزيون؟

لا ترد، تنظر إليَّ حانقة.

– هل تعرفين جدتي «منيرة الساعدي»؟ كانت هانم من هوانم مصر، هل تعرفين رأيها في النساء العاملات؟ جدتي الهانم كانت تقول: إن المرأة لا تعمل إلا إذا جاعت، النساء الفقيرات فقط هن من يعملن، أما الهوانم فرجالهن خدم من كبار القوم يركعون ليحصلوا على «شكرًا» من غير نفس.

وجهها يشتعل من شدة الغضب، زوجتي الجميلة ستنفجر لا محالة: – متى ستفيق من أوهامك؟ أنت ما زلت حبيس القرن الماضي، أنت لست باشا وجدتك الهانم ماتت وتعفنت في قبرها و..

– اخرسِي!

وصفعتها للمرة الأولى، خيطٌ من الدم خرج من جانب الفم الأيمن، تنظر إليّ في ذهول صارخ، قبضت على ذراعها فتأوهت، قلت بحزم: – مليارات أبيك لن تشتري تاريخًا مثل تاريخي، هل تفهمين؟! أنا أرفض شغلك في التلفزيون رفضًا قاطعًا.

تملصت من يدي وغابت بالداخل، بعد ربع ساعة كانت قد أعدت حقائبها، وأنا أنفث النفس الأخير من سيجارة أبي توقفت سيارة مرسيدس أسفل العمارة، وخرج سائقها منتظرًا، سيف وقف بجانبي كأنه يتحامى من شيء ما، توقفت سلمى أمام الباب ونادته ليلحق بها، احتضنتُ وجهه بين كفي وقلت: – اذهب إلى والدتك.

– تعال معنا.

– لا بأس لدي أشغال كثيرة سأنتهي منها أولًا.

– هل ستتأخر؟

– ربنا يسهل.

أداعب شعره وأدفعه ليذهب، تقبض سلمى على ساعده وتخرج.

***

يبتهج كمال عندما رآني في العمل، الجميع أصبح مبتهجًا بقدومي، قضيت عشرة أيام في حدادي لا أخرج من الشقة، طوال هذه المدة لم أسمع شيئًا ذا بال من الشرطة والجهات المختصة، مكالمة واحدة لحماي يعاتبني فيها على قسوتي مع سلمى، كان متفهمًا حزني على أبي وغضبي من إهانتها للهانم الكبيرة، دعاني للعشاء معه فرفضت الدعوة بكياسة، قرر أن يتركني يومين، ثلاثة؛ لألملم شتات نفسي، اكتشفت بقايا منها ما زالت هنا في الورشة حيث قتل أبي، أقلب في دفاتره القديمة وأتأمل صورته التي يقف فيها بشموخ، أشعر بمرارة في حلقي، أنا من تسببت بقتله، يقترب كمال ويجلس على الأريكة، لا أجد من أشكو إليه سوى كمال، أقول: – لقد قتلتُ أبي يا كمال.

ينتفض، يقول:

- لا تقسُ على نفسك يا صديقي، من كان يعرف؟

- حقًّا، من كان يعرف.

- ألم تصل الشرطة إلى شيء؟!

- يبحثون عن السيارة التي ظهرت في الكاميرات دون فائدة، هؤلاء القوم ليسوا هواة يا كمال ليتركوا شيئًا خلفهم.

- وكيف سنعثر عليهم إذا؟!

أصمت وأسدد عيني إلى السقف، أفكر قليلًا، أنهض وأفتش في المكتب، أقول: - هم سيعثرون علينا، لدينا أشياء تخصهم يا كمال.

- على ماذا تبحث؟

- أي شيء.. قد يكون هناك أجهزة تنصت أو كاميرات مزروعة في مكتبي.

- يقفز كمال واقفًا، يقلب الأريكة رأسًا على عقب، يقول وقد اعتراه القلق: - يعثرون علينا؟ وهناك أجهزة تنصت؟ أنا حقًّا مشوش.

لم نعثر على شيء في المكتب، شعرت ببعض الراحة، قلت لكمال: - هم يريدون التماثيل ويعرفون أنها لدينا وتسبب هذا بقتل أبي، حسنًا عليهم أن يفاوضونا ليحصلوا عليها.

- ولن يقتلونا؟!

- سؤال جميل، هل يعرف أحد مكان التماثيل غيرنا؟

- لا.

- لو قتلونا قتلوا التماثيل معنا.

- لكن بهذا الشكل ستبقى معنا للأبد وهم لن يسمحوا بذلك! فما المخرج إذًا.

- دعنا نكتشف ذلك في الأيام القادمة.

- حسن، أنا قلق جدًّا.

- حريٌّ بك أن تقلق، لكن لا تخشَ شيئًا يا كمال صدقني.

لا تخش شيئًا فأنت مدخلهم إليّ ولن يقتلوك لأني سأرفض ذلك، لو خانني كمال فلن يصلوا سوى لصندوق واحد، ولو خانني كمال فسيقتلونه، لكن هل حقًّا يبلغ التمثال الوحيد واللوح الرخامي وأوراق البردي تلك الأهمية التي أعول عليها؟ يخرج كمال ليطلب لي كوبًا من القهوة، أسند ظهري للوراء وأتأمل مكتب والدي، قطرات من دمه جرت على سطح المكتب، لا شك، قلبي يعتصرني من شدة الألم، دم أبي دَين في رقبتي. لن أهنأ بحياتي لحظة واحدة وهذا الحمل فوق كاهلي، سليم مختار يموت ذبيحًا يا أولاد الكلب! على المنضدة الأمامية علبة سجائره الفارغة والولاعة بجانبها، أفكر في شراء واحدة أخرى وإفراغ

سجائرها في علبة أبي، بهذا الشكل سأحتفظ بها للأبد، يمكن أيضًا وضعها في حافظة من البلاستيك كأوراق البردي حتى لا تتآكل.

- حسن، هناك فتاتان تريدانك.

- من؟

- تقول إنها نور شاذلي ابنة عمك!

يا إلهي! شعرت أن أطرافي تجمدت، نور ابنة عمي والكابوس القديم، قلبي يُخطف خطفة موجعة، أشرت إلى كمال أن يدخلها، ظهرت فتاتان خلف الزجاج ثم برزت ملامحهما أمامي مباشرة، إن صدق ظني فالفتاة البيضاء ذات الهالتين السوداوين أسفل عينيها هي نور، وعندما أشارت صديقتها إليها ونطقت اسمها سقطت على الأرض كوريقة يابسة هزتها رياح الخريف، عندما حاولت صديقتها رفعها لم تقدر، حملتها ووضعتها على الأريكة، أحضر كمال زجاجة عطر مركزة الكحول، قربتها من أنفها ونثرت جزيئات العطر على حافته المتناسقة، الكحول سيهيج نهاياتها العصبية وتفيق شاعرةً ببعض الوخزات، عندما فتحت عينيها أمرت الجميع أن يذهب، لا أحد يعرف ما الذي يمكن أن تقوله فتاة مثقلة بكل هذا العبء، تأملت ملامحها الرقيقة، هي نور، لكنها أنثى مكتملة النضج بعيدة كل البعد عن الطفلة العاجية القديمة، بشرتها شمعية وشفتاها بارزتان وعيناها سوداوان واسعتان، باختصار هي ساحرة منهكة وجمالها ذابل مرهق، ناولني كمال كوب المياه وخرج وبقينا ثلاثة في الغرفة الزجاجية، مددت لها الماء فأخذته بيد مرتجفة واحتفظت به كحاجز بيني وبينها، سحبت كرسيًا وجلست في مقابلها محافظًا على مسافة آمنة تسمح بالتنفس.

- أنت نور، أليس كذلك؟

تنظر إليَّ صامتة، عيناها تحملان عتابًا قاسيًا أليمًا، أهرب منها إلى صديقتها الملاصقة لها، بشرتها خمرية وعيناها عسليتان وبها لمسة جمال غير خافية، تبدأ بالتكلم: - نور تذهب إلى عيادة نفسية لتلقي العلاج.

وما دخلي أنا؟! يبدو الأمر واضحًا وبسيطًا، ما نسيته وتجاوزته كأنه لم يكن سبب لها جرحًا في روحها الهشة ظل ينزف إلى الآن.

- أخذت العديد من الجلسات وقطعت شوطًا كبيرًا في طريق التعافي.

تصمت هند ويظهر عليها بعض التردد، أعرف ما تريد قوله، نصحها الطبيب أن تواجه كابوسها حتى تتماثل تمامًا للشفاء، إن القدر يسخر مني بطريقة مذلة، خيط من اللهب على جانبي عمودي الفقري، وجفاف حلقي يطاردني كأني في صحراء، أستحثها لتكمل بهزتين من رأسي، تنظر لنور، أنظر لنور، يغيض الدم من وجهها فتصبح شاحبة كالموتى.

- إننا لا نتحمل تكاليف العلاج ومن أفسد شيئًا فعليه إصلاحه.

يا إلهي! لوهلة شعرت أنها دعابة سوداء وكدت أضحك، لكني انتبهت للحقيقة القاسية كالفولاذ، الثقيلة كالكوكب، الفقر والحاجة هو ما دفع ابنة عمي لتتسول علاجها مني، لكن مهلًا ربما هي فعلًا خطة المواجهة في العلاج لكن بإطار درامي مخطط من طبيبها لتذكيري بجريمتي، تحجرت ردود فعلي ونكست رأسي للتفكير، حينما رفعتها كانت هناك نظرة خاوية في عين نور، تنتفض على إثرها وترحل، ترتبك هند وتلحق بها، استوقفتها بإشارة من سبابتي قبل أن تخرج، أفتش في جيوبي وأخرج المال الذي معي، ربما ألفان أو ثلاثة وأعطيهم لهند، تأخذهم هند بلا تردد وتلحق برفيقتها.

يقول كمال وأنا واقف خارج الورشة أتابع بعيني الفتاة الهاربة: - ما الأمر؟

- المفاجآت بدأت أسرع مما ظننت.

وأنا أجلس خلف مكتبي، أسأل:

- أخبرني يا كمال عن رأيك فيمن يغتصب فتاةً في العاشرة تقريبًا من عمرها؟

- شرع ربنا أن يقتل فورًا!

- اممم.. وإن كان مجرد صبي في الخامسة أو السادسة عشر من عمره؟

- لن يُحدث ذلك فارقًا.

إذًا المفاجآت بدأت أسرع مما ظننت! يحتمل أن أصحاب الصناديق دفعوا بأولى خطواتهم، أتمنى أن أكون مخطئًا.

- كمال أريدك أن تعرف كل شيء عن الفتاة التي رافقت ابنة عمي، كل شيء يا كمال!

- لا بأس، لكن ما الأمر؟

- المفاجآت يا كمال، المفاجآت يا صديقي.

وقبل أن يخرج كمال يرن هاتفي:

- ألو.

- سيد حسن سليم؟

- نعم.

- لديك أشياء تخصنا.

- 5 -

تقول أمي:

- تعالي يا نور سلِّمي على حسن ابن عمك.

تجمدت مكاني، يا لجرأته! ينظر إليَّ مبتسمًا كأي وغد متظاهرًا بالرقة، يسحبني سعيد ويجلسني على الأريكة.

يقول سعيد:

- إن نور تستحي من الرجال كثيرًا، تخيل أن..

حملقت إلى سعيد فتوقف، أما هو فقد رفع حاجبيه اندهاشًا، شعرت برغبة في سكب القهوة على قميصه الأبيض هذا، يكمل سعيد: - قلت لك إنها تستحي.

تضحك أمي! يا للغرابة كيف أصبح الجميع بهذه اللطافة مع حسن سليم؟!

- كيف حالك يا نور؟

- هل تود أن تعرف حقًّا؟

الغضب يلتهمني.

- هل تريد أن تعرف حالي؟

موجة الاستغراب تنتقل إلى أمي وسعيد، هو ساكن كالليل بارد كالجليد، ينظر إليّ بعينيه الواسعتين.

- أين كنت منذ عقد مضى؟ ها أخبرني.. ما سر هذه الزيارة المفاجئة؟

أتجاهل نظرات أمي الزاجرة، أتجاهل ارتباك سعيد، وأقول سأخبرك بحالي.

- مات أبي.

ينظر إليَّ بثبات.

- وأنا في حاجة لعائلتي، والواقع لم يعد يبقى من نسل مختار كامل سوى نحن.

مسحة من الحزن شملت عينيه فشعرت أنه صادق، هكذا شعرت قديمًا بين أحواض اللبلاب وكنت مخطئة.

- بإمكان سعيد أن يأتي ويعمل معي..

- لا.

تقاطعه أمي، تكمل:

- لن يعمل أحد هناك مرة أخرى.

يبتسم.

– أتفهم موقفك يا ست فريدة لكنه سيعمل بالحسابات ولن يخرج من المعرض مطلقًا.

سعيد مطرق، يفكر فيما سمع، لا أظن أنه قابله للمرة الأولى أو سمع هذا العرض للمرة الأولى، أشعر أنهما متواطئان.

– كما يمكن لنور أن تأتي أيضًا.

– وما الذي يمكن أن أفعله بين قطع الغيار؟!

– نحتاج إلى من يصمم لنا إعلانات للدعاية، يمكن حتى أن تعملي من المنزل.

يعلم أننا فقراء بحاجة إلى المال، ويلعب على هذا الوتر بمهارة، يبدو أنني عريت نفسي أمامه عندما ذهبت إليه، أي أحمق سيعرف أنني لو كنت أملك المال لما ذهبت إليه. أرفض رفضًا قاطعًا، أنهض للاختلاء بنفسي المهانة، ينهض هو أيضًا، يرفض دعوة أمي للغداء ويعتذر بأشغاله الكثيرة، مغرور ومتفاخر إلى أقصى حد، سأنتقم منه ذات يوم.

– آنسة نور.

– ماذا تريد؟

– أنا حقًّا نادم... نادمٌ على كل خطأ وحتى هذه القطيعة الطويلة.

أسرعُ إلى غرفتي فأتوارى بداخلها، أنكمش على نفسي وأبكي، وعندما أسمع خطوات أمي أبذل ابتسامتي القديمة.

– ما بك؟

– لا شيء تذكرت أبي وأخي فبكيت.

تجلس بجانبي، تقول إنها استغربت هذه الزيارة في البداية، لكن الوقت ملائم أكثر من ذي قبل لنستند إلى ابن عم غني وقوي بهذا الشكل، شعرت أن عصارتي تتحرك من جديد، نظرت إليها مستفهمة: – ما الذي أخبركم به حتى تنخدعوا بهذه الطريقة؟

تمسد أمي على شعري وتبتسم:

– لا خداع ولا شيء، الأمر وما فيه أن الأبناء ليس لهم دخل في الخلاف القديم، الموت أخذ كل شيء.

ما زلت لا تعرفين شيئًا يا أمي! وليس الموت ما أخذ كل شيء.

– سعيد قرر أن يعمل لديه وأنت حرة التصرف في قرارك، لكن كان يجب أن تتحلي ببعض اللياقة أمامه.

وهكذا قررت أمي أن كل شيء سيعود إلى سابق عهده، وأضافت سببًا آخر لكرهي لنفسي وكرهي له، مكثت في فراشي طويلًا حتى غزا الظلام حجرتي، لا أدري أين ذهب عقلي بالتحديد، لكن أفكارًا ظلامية وماكرة سخرت مني بشدة، أتذكر أحواض اللبلاب والوقعة القديمة بكاملها، كانت علاقتي بحسن بسيطة

وساذجة، فتاة في الصف الرابع الابتدائي تعدو خلف ابن عمها الذي يكبرها بخمسة أعوام، صبي متمرد ناحل الجسد وطويل القامة، له حشرجة في صوته تعلن عن ميلاد كائن جديد، كنا نلتقي في البيت الكبير كل يوم جمعة، نذهب جميعًا لزيارة قبر جدي وجدتي قبل الصلاة ثم نجتمع على الغداء معًا، أسرتان محدودتا العدد تعيشان على ما بقي لهما من ذكريات، ثم بعد ذلك أعدو في الحديقة مع شهد التي كانت تصغرني بعام واحد، فتاة جميلة ملامحها غربية؛ كالشعر الذهبي والعيون السماوية الداكنة، دائمًا ما كان يقول أبي وهو يدللها أنها تشبه الهانم الكبيرة أمه، ربما لهذا كان يحبها بشكل تضايقت منه أمي، كان أخواي ينضمان إلينا كثيرًا، لكن حسن كان بعيدًا أغلب الوقت، هو الأكبر في السن والأكثر غموضًا، ربما جذبني صمته وغموضه إلى محاولة استكشافه، وحلى لي ذلك التصرف عندما جلس يشرح لي تركيب الجملة في درس اللغة العربية، ثم بعد ذلك كيفية تحويل رقم إلى نسبة مئوية، كان الوقت يمضي معه سريعًا واكتشفت للمرة الأولى أن يوم الجمعة بكل طقوسه الرتيبة ليس سيئًا على الإطلاق، لم يكن هناك أي إشارة -فيما ظهر لي- على ما حدث، كنت أتبعه كظله في الفناء القديم، وشعرت بسعادةٍ بالغة عندما ابتسم لي مرة وهو يشرح مسألة حسابية قائلًا: -أنتِ بطيئة الفهم حقًّا يا نور!

عندها تجرأت للمرة الأولى وركلته في ساقه مباشرة، يبدو أنها آلمته لكنه تظاهر باللامبالاة، كل يوم جمعة كان يصير أفضل من ذي قبل، ثم كعادتي تبعته في الفناء ورأيته يجلس بين أحواض اللبلاب، اقتربت منه وجلست بجانبه، الجميع نائم في قيلولة يوم الجمعة، شعرت بيده على جسمي للمرة الأولى، كانت قاسية وشديدة الإلحاح، قاومته بدهشة ثم بشدة ثم باستماتة، ثم الألم وحده يعلق بذاكرتي إلى الآن، ويصبح يوم الجمعة الندبة الأشد سوءًا في روحي، رفضتُ أن أذهب إلى سرايا جدي وتذرعت أمي بي لتعلن تمردها على طقوس عائلتي، لم تكن ترى في هذا البيت سوى نصيب أبي الذي يساعده على بدء حياته من جديد، رفض أبي فكرة بيع التاريخ وبدأ الصراع بينه وبين أمي، لم يكن يذهب يوم الجمعة سوى أبي وسعيد لأن حازم كانت صحته آخذة في التدهور، وعندما مال أبي إلى رأي أمي أخيرًا أقنعه عمي بتجارته الكاسدة وغرق على سفينة الخردة التي جلبوها من الصين.

- نور ردي على هاتفكِ. هل أنت صماء؟!

أطفو فوق هواجسي القديمة وأنتبه للهاتف الذي يتحشرج بجانبي، المكالمة الخامسة لرقم مجهول.

- ألو!

- نور، أنا وائل كيف حالك؟

أرتبك، أكره هذا السؤال.

- وائل، ما الذي تريده؟

- سآتي لخطبتك في الليلة القادمة، هل أنتِ موافقة؟

أتردد قليلًا، يملؤني شعور جارف للبدء من جديد، أشعر أني مهيأة لخوض تجربتي السعيدة دون عناء الماضي أو تشوهاته، بعثت حلقات برنامج «سلمى جمال» عن المرأة الكثير من الدفء في روحي

الجليدية، تدخل أمي وتقف بجانبي، أهمس لها أنه وائل ويريد أن يأتي لخطبتي، أقول لوائل أن أمي ستحادثك وأترك مساحة لنفسي للتفكير.

– كان يجب أن تأتي بنفسك يا وائل دون الحاجة للاتصال.

–...

– سأسألها أولًا كما تعرف.

أقول لأمي فليأتي كما يريد في أي ليلة، تنكمش ملامحها، تفكر قليلًا، تنظر إليَّ في ريبة، أمام نظرتي الجادة تقول: – لا بأس يمكنك أن تأتي يا بني وربنا يسهل الحال.

تعطيني الهاتف، بكل صرامة تهمس لي: – لن أسمح لك بالتلاعب بهذا الشاب مرة أخرى.

تغادر أمي غرفتي وتغادرني هواجسي إلى الأبد.

***

منذ ثلاثة أسابيع لم أذهب إلى عيادتي النفسية، أتواصل مع الدكتورة ملك على تلجرام بين الحين والآخر، أخبرتني بالأمس إن حالتي لم تعد بحاجة إلى علاج، الرواسب البسيطة التي علقت بذاكرتي يمكن أن تعد تجربة سيئة نتعلم منها للغد، أما جلسة اليوم فهي أقرب إلى وداع حار وتدشين لانطلاقة جديدة من كونها جرعة أخيرة، قد لا يشعر المريض النفسي بأنه مريض لكن الصحة لا تخفى على أحد، أنا الآن أشعر بحيوية جديدة تتدفق في دمائي كالسحر، إكسير حياة يحيل تصحري إلى غابة استوائية كثيفة النماء، يدق قلبي دقة خاطفة بالغة العذوبة عندما أمر بصيدلية وائل، دون أن أنظر أشعر أن وجهي يتورد خجلًا وسعادة، وتلاحقني كلمات «سلمى جمال» في خاتمة حلقتها الماضية كتميمة حظ: «أنت صلبة عصية على الكسر فلا تسمحي لأحد أن يكسركِ، لا تقيمي سدًا بينك وبين سعادتكِ. جميلتي، الحياة واسعة كفاية لتشمل الحزن والفرح، فاحزني لأنك إنسان له قلب نابض، لكن لا تجعلي الحزن وحده هو حياتك، دمتِ ملكة»

دمت متألقة يا سلمى، وحفظك الله لأسرتك وزوجك، وللمرة الأولى أقابل سكرتير العيادة بابتسامة مشرقة، عمي حسين يبتسم لي بدوره ويسمح لي بالدخول، تنهض الطبيبة لاستقبالي، دكتورة ملك شعرت أنها أمي لا طبيبتي، ملامحها رقيقة وبها سمرة مصرية توحي بالألفة، نتحدث معًا ولا تتجاوز جلستنا هذه المرة سوى عشر دقائق، نقلت إليها إحساسي الدافئ، ونظرتي المتفتحة كوردة للحياة.

– أريدك أن تكوني واقعية يا نور؛ حتى لا تنتكسي مرة أخرى إذا وقع لك مكروه، لكن استثمري هذه المشاعر في تجربتك الأولى مع وائل.

كنت قد أخبرتها عن خطبتي فاقترحت أن أوافق بناءً على قناعة حقيقية، فترة الخطوبة كفيلة بدعمها أو تحطيمها لأعود حرة وأبدأ من جديد. لم تكتب لي شيئًا من مضادات الاكتئاب وغيرها، وللمرة الأولى أخرج نقية ومستعدة لمعانقة النجوم، غير أني تسمرت في مكاني أمام السكرتير وهو يتضاحك مع حسن، عندما رآني نهض مبتسمًا.

- هل انتهيت يا عزيزتي؟ لنرحل إذًا.

- 6 -

الصوت الذي يحادثني رخيم وهادئ ويضغط على كلماته بثقة، أشير إلى كمال الذي قرأ ملامحي فجلس أمامي.

- نعم، خمسة تماثيل فرعونية متفاوتة الأحجام، أليس كذلك؟

شهق كمال ويبدو أن محدثي صدم من المفاجأة بدوره.

- يا لها من طريقة للبداية يا سيد حسن، أعترف أنك فاجأتني، أشعر أننا سنتفق قريبًا.

- بالتأكيد، وما الذي يمنع؟

- اسمع، هل نتقابل غدًا لو لم تمانع؟

- لا بأس اختر المكان.

- في الشيراتون الرابعة مساءً هناك في الاستقبال سأعثر عليك.

- هنا في الورشة الحادية عشر، سأنتظرك.

وأغلقت المكالمة.

كمال ينظر ببلاهة حقيقية، أنا أيضًا أشعر بالغرابة من نفسي، لست خائفًا أو مضطربًا، الأمر أشبه بلعبة للمتعة، وهناك بارقة أمل في الثأر لأبي.

- هل سيأتي هنا للقائك؟

- سيأتي أو سيتصل مرة أخرى، اسمع يا كمال أنت لا تعرف شيئًا عن هذه الآثار، تعامل بهذا المبدأ هل تفهم؟

يهز رأسه موافقًا، هو يستشعر خطورة الموقف أكثر مني، لديه ما يحافظ عليه، أما أنا فخسرت خسارة فادحة قبل أن تبدأ اللعبة.

- وهناك شيءٌ آخر... أريدك أن تقيم حجرة زجاجية كهذه وتضع فيها مكتبًا في مقابل هذه تمامًا.

- لماذا؟

-إن دخل الغرفة الحقيقية بدون إرشاد فقد كان هنا في المرة السابقة وإن وقف وسأل فهناك احتمال أنه لم يأتِ.

ألملم أشيائي وأنهض، يبدو أن كمال لم يستوعب الأمر جيدًا، لكنه سينفذ ما طلبت على أكمل وجه، هناك أفكار حمقاء وهلامية تراودني أحيانًا، يكون تصوري عنها غير مكتمل، ما إن أطلب تنفيذها من كمال حتى أراها متجسدة كأفضل مما كنت أنتظر، إن كانت هناك عبقرية في التنفيذ فأنا محظوظ بوجود كمال.

- أين ستذهب؟

- سأزور قبر أبي.

- هل آتي معك؟

- هو ليس أباك وأنت لم تكن تحبه كثيرًا ما الفائدة من قدومك؟! بالتأكيد لم تنسَ ما حذرتك منه، كمال انس تمامًا أننا عثرنا على آثار أرجوك.

يفتح كفيه ويتمتم معتذرًا، قبل أن أخرج بالسيارة أقول لا تنسَ أمر تلك الفتاة هند.

***

أجلس في الشرفة كعادتي كل ليلة لأدخن سيجارة من علبة أبي الأخيرة التي لا أنوي أن تنفد، القمر بدرٌ متلألئٌ في الأفق، تمر أمامه بعض الغيوم الكئيبة، يذكرني ذلك بوجه نور، هل زيارتها اليوم مجرد صدفة حقًّا أم ضربة قاتلة أسفل الحزام، لا يستطيعون إثبات شيء بعد كل هذا العمر، لكن يمكن أن تكون وسيلة جيدة للحصار، كمال يقول إن صديقتها تخرجت في كلية الآثار مثلها تمامًا، تسكن في إحدى حواري القاهرة، فقيرة تبحث عن عمل وليست مرتبطة بأحد، في ثوب عريس يسأل عن سيرتها في حارتها لم يجد سوى سمعة جيدة، هي إذًا شخصية حقيقية وليست مؤدية مهام، وما المانع أن يتم استخدام الأشخاص الحقيقيين؟ أسحب أبخرة النيكوتين إلى رئتي وأتمادى في أفكاري، للنيكوتين أثر محفز على المخ كما يقولون، لكني لا أشعر بشيء، إنني مخدر وبحاجة حقيقية للنوم، لكن نور. لا القهوة ولا السجائر هي من طاردت نعاسي كمكنسة خلف فأر، سأزورها كثيرًا، سأسمح لنفسي بالتكفير عن ذنبي، وسيكف عمي عن زياراته الليلية إلى الأبد، لكن توقيتك مربك حقًّا يا نور!

نفس آخر من سيجارتي وأتذكر سيفًا، هذا الصغير يهفو على خاطري كنسمة باردة في يوم قائظ، أهاتف سلمى وأنتظر طويلًا بلا رد، أهاتفها مرة أخرى وأنتظر، هي غاضبة أعرف ذلك، يجب أن أذهب إليها وأتحلى ببرودة القطب الشمالي حتى أطيب خاطرها، سأمر بنقاشات عديدة مع حماتي الغالية عن الوضع الاجتماعي والعصر الحديث وفن التعامل مع الموضة، الموضة والأزياء تدخل في كل مواضيع جميلة هانم، هي متجددة وحداثية إلى أقصى حد، القديم والثابت والتراث أشياء تعافها نفس جميلة هانم فلا تلتفت إليها فضلًا عن الخوض فيها، كان جليًا لي في الآونة الأخيرة أن طموحاتها في ابنتها قد تجاوزتني كثيرًا وبصورة فارقة، ما أبقى على زواجي بسلمى هو تمسكها بي، سلمى تحبني، أنا أعرف ذلك، لكني أعرف أيضًا أن حبها لذاتها أكبر، وك..

- ألو.

- سلمى؟!

- عفوًا الهانم الصغيرة آوت إلى فراشها.

بالتأكيد هذا ليس صوت زوجتي.

- من يحدثني؟

- دكتورة سارة مديرة أعمالها.

دكتورة سارة مديرة أعمالها!

- دكتورة سارة هل يمكن أن أتحدث إلى سيف؟

- الساعة الآن الثانية صباحًا الجميع نائم حتى سيف.

- اذهبي إلى فراشه وضعي الهاتف بجانب أذنه واتركي الأمر لي.

- لا أستطيع إيقاظه في هذا الوقت.

- اذهبي إلى فراشه وضعي الهاتف بجانب أذنه لا تعني أن توقظيه!

- لكن ذلك يعني أن يستيقظ!

- هل تعرفين من الذي يحدثك؟

- نعم يا باشا.

الكلمة أفزعتني، باشا القديمة تفجر في النفس شجونًا وشجونًا، تومض في الذهن العديد من اللقطات لطربوش جدي، وعمامة والدي، وألف فدان تم توزيعها على قادة الاتحاد الاشتراكي وتبقى الفتات ليجنيه فلاحون بسطاء أقاموا عليها مساكن أبسط.

- دكتورة، لو لم تذهبي إليه سأحضر حالًا وأسبب الكثير من الصخب ليستيقظ كل الهوانم والباشوات لديك ثم سيتم طردك؛ لأنك حمقاء لا تحسنين التصرف.

تغلق الهاتف، وقبل أن أنتهي من ارتداء ثيابي لتنفيذ تهديدي يرن هاتفي.

- حسنًا يا فندم، الهاتف قرب أذن سيف بيه.

قبل أن أقول شيئًا أسمع خربشات قادمة عبر الأثير ثم صوت طفولي ناعم يخترق القلب مباشرة كرصاصة رحمة: - أبي، لماذا لم تأتِ؟!

- العمل يا سيف.

- العمل أهم مني؟!

- أنت أهم من الدنيا كلها يا صغيري المشاكس.

- متى ستأتي؟

- غدًا سأصحبك إلى الحضانة.

في هذه الأيام على سيف أن يبتعد عني بالقدر الكافي لكيلا يكون ورقة ضغط أخرى، قبل أن أغلق الهاتف أطلب منه أن يعطيني السيدة، عندما أتأكد أنها تسمعني أقول: - أعتذر عن فظاظتي سيدتي، فاعفي عني.

- لا بأس.

وتغلق الهاتف.

لزوجتي العزيزة مديرة أعمال حاصلة على شهادة الدكتوراه، بالتأكيد لن يتوقف طموحها عند البرامج التلفزيونية، وبالتأكيد لن يتوقف عندي.

***

في الثامنة صباحًا أكون منتظرًا في منزل حماي مترامي الأطراف، قصر عصري يراعي كافة المعايير الحضارية، حديقة باتساع ملعب كرة وبيوت زجاجية لزهور نادرة، بحيرات صغيرة تسبح فيها طيور مستوردة، وجراج يهبط تحت مستوى الحديقة، وبالخلف صالة للألعاب الرياضية، ناهيك بالقصر نفسه ذي الطوابق الثلاثة وعشرات الغرف والأجنحة، كل هذا لثلاثة أشخاص منهم زوجتي! كأن المالك الحقيقي والمنتفع من هذه النفقات هم العمال والخدم وليس حماي، جلست في الاستقبال أتناول كوب القهوة وأمامي الدكتور جمال يعطيني درسًا في التعامل مع المرأة، يرتدي قميصًا سماوي اللون وشورتًا جمليًّا وحذاءً رياضيًا أبيض، يبدي استغرابه من تمسكي بسلمى في المنزل، يقول إن المرء يجب أن يعيش متحررًا من أي قيود نسائية خانقة، ما الذي سأجنيه من التحديق إلى وجه زوجتي اليوم بطوله؟! يجب أن أوسع أفقي وأستمتع بالفراغ الذي تغمرني به، يبدو الدكتور صادقًا إلى أقصى حد؛ فملامحه تكتسي تقززًا غريبًا كلما أتى على سيرة «زوجة» وتنبسط تمامًا بالفراغ الذي تخلفه. جميلة هانم، امرأة رشيقة ومتألقة كنجمة، لكن نجمة بعيدة شحيحة اللمعان كأي امرأة تقترب من الستين، هي تزحف إلى النهاية ببطء شديد، ساعدها على ذلك النظام الغذائي والتمارين الرياضية وأسباب التجميل التي لن تنقطع أمام واحدة مثلها، لكن الباشا ممتلئ بالحيوية ومشرب بحمرة الصحة، وخريف العمر الذي يهدد أنوثة الهانم هو ربيع ينثر بذوره لديه، يسحب الباشا نفسًا من سيجاره وينظر إلي على حين غرة: - حسن.. أنت لن تصفع سلمى مرة أخرى، أليس كذلك؟

نظرة جامدة بلا ملامح وعينا صقر تلتمعان بشراهة، الباشا يثق حقًّا بمخالبه، كنوع من الاعتذار، أومئ برأسي أسفًا.

- أنت ابني الذي لم أنجبه، أحيانًا أشعر أنك غريب.

أرفع حاجبي متماهيًا مع مناورته الرشيقة، وأضع القهوة جانبًا ثم أقول بانتباه شفاف: - لماذا تقول هذا يا عمي؟

يذم شفتيه ويقول بعتاب:

- سأعطيك شركة تديرها بطريقتك الخاصة، يمكن أن تكون سلمى بجانبك إذا أردت حيث تحق إليها اليوم بطوله وتتخلص من أعباء الغيرة وهذه الأشياء. هل توافق؟

عرضٌ مغرٍ يبرز نوايا راغبة في التوفيق، يبدو أن حماي لا يفضل التخلص مني مثلما تريد نجمته الآفلة، لكنه لا يدرك طموح ابنته فهي تريد تحقيق ذاتها خارج عباءة الزوج المفلس والأب الملياردير،

لكنها رغم ذلك لا تمانع الاستفادة من كل هذه الموارد! أنا أيضًا لدي شركتي الصغيرة وتماثيلي الجميلة والمميتة.

- سلمى لن توافق.

ينظر في ساعته وينهض متأففًا:

- يبدو أن ذكاءك ينحسر في التجارة دون النساء، على العموم العرض ما زال قائمًا متى أردت.

وقبل أن يغادرني يتوقف ويقول:

- هل هناك جديد بخصوص التحقيقات؟

- لا جديد يذكر.

يمط شفتيه ويربت على كتفي ويرحل. لا أرى فائدة من إخباره باللقاء المنتظر لكني أفضل أن يظل سيف في حوزته في هذه القلعة.

يهبط سيف درجات سلم رخامي يشبه موجات ساحلية شاحبة، ألتقطه من فوق الدرجة الأخيرة، سلمى متهادية خلفه كأسطورة إغريقية شديدة الفتنة، يبدو أن الحيزبون والدتها في صالة الألعاب تحاول أن تقطر ما تبقى لديها من أنوثة، تظهر سارة أيضًا، الدكتورة مديرة الأعمال الخاصة بسلمى، تشبه أي مديرة أعمال، على قدر رفيع من الجمال، أناقتها شديدة ورسمية بطريقة منفرة، تصحب سيفًا إلى السيارة دون أن تنظر نحوي، وقبل أن تشبك سلمى ذراعيها أمام صدرها ألتقطها وأجذبها بشدة حتى تمتزج أنفاسها بأنفاسي، وهي تتملص مني، أقول: - أرجوكِ اقبلي اعتذار حبيب قديم.

تنخلع مني:

- أنا لم أعد أفهمك.

أنا أيضًا بت أخشى منكِ.

- لا تفهميني أحبيني وفقط.

- أهذا مفهومك للحب؟

- مفهومي للفرص الضائعة.

صامتة ومشيحة بوجهها بعيدًا فألقي ورقتي الأخيرة.

- يريد أبوك أن ندير شركة معًا. هل تسمحين لي بهذه الفرصة؟

يغلب على وجهها الانزعاج، زفرة نارية كفحيح أفعى، تقول بنفاد صبر: - أنا سأعمل في التلفزيون وفي قناة والدي أيضًا، يمكن أن تأتي لتعمل معي إذا أردت.

- أووه بالطبع أعرف أين أضع عدسة الكاميرا!

- إذًا ما زلت ترفض.

- لا.. لقد غيَّر أبوكِ وجهة نظري!

قلتها بأسًى واضح رغم تظاهري بالمرح، تنظر إليَّ بكثير من الريبة، أبتسم مطمئنًا.

- هل حقًّا توافق؟

- هل يحدث هذا فارقًا؟

- لم أرد يومًا أن أكون عثرة في طريق سعادتك يا سلمى.

أي رجل هذا الذي يرفض أن تسعد زوجته، لكنها ما زالت متشككة، أنا لست بهذه القسوة لألعب بمشاعرها، هذا القرار مناسب لما نمر به، سيبقى سيف هنا معها وسأعثر أنا على طريقة لتصفية حساباتي متمتعًا بالفراغ الذي يسرق مني زوجتي، أقترب منها وهذه المرة لا تتملص، أطبع قبلة بين عينيها، أمر بأناملي على جانب فمها الأيسر الذي أدميته سابقًا، أهمس لها: - أنا آسف.

- هل ستأتي للعيش هنا؟

- أمهليني أسبوعين أودع فيهما الأشياء القديمة.

تبتسم أخيرًا كوردة تتفتح أمام الضوء الأول ثم ألحق بسيف الذي ينتظر في السيارة.

- 7 -

يا للوقاحة!

كانت نظرتي زائغة تبخر منها كل السحر الذي حملته، هناك السكرتير وزوجان ملتصقان على اليسار ولا أحد آخر.

- ماذا تريد؟

يرفع يديه مدعيًا البراءة ويقول:

- أردت أن أطمئن عليكِ.

- كيف عرفت أنني هنا؟

يقول إن الأمر بسيط، أنظر إلى السكرتير لعله يتدخل لكنه يبتسم ببلاهة لي ولحسن، يخرج حسن من العيادة ويشير إليَّ لكي أتبعه، بعد عدة ثوان أجد غضاضة في مواجهته فأنا أقوى مما يعتقد، أسفل البناية يقف أمام سيارة سوداء فارهة، يفتح لي الباب فلا أتحرك قيد أنملة، أحتضن نفسي بذراعي.

- ماذا تريد؟

- سأوصلك إلى المنزل.

- لست ذاهبة إلى المنزل.

- سأوصلك إذًا للمكان الذي تقصدينه!

أشيح بنظري بعيدًا، تتوتر قبضتي على نفسي: - أنا لن أذهب معك إلى أي مكان.

يتفرس في ملامحي ثم يقول:

- هل أنت خائفة؟!

يعلو صدري ويهبط من تسارع أنفاسي، الآن يتحول إلى وغد حقيقي يبتزني بجريمته، يمد شفتيه علامة لليأس ويقول: - ما فائدة كل هذا العلاج إذًا؟

- أنت وقح.

يصمت وينظر إليّ بثبات.

- أنا لا أخشى منك، أنا فقط أشعر بالغثيان من شدة الاشمئزاز.

يرتفع حاجباه في دهشة مصطنعة، يرتدي نظارته ويقول: - اصعدي إذًا لن آخذ من وقتك الكثير، وحاولي أن تتماسكي أرجوك.

باغتني فلا أعرف كيف أتصرف، أنا فتاة قوية وأستطيع أن أتكفل بنفسي، ما الذي يمكن أن يصنعه حسن أكثر مما صنع؟! تقدمت من الباب الخلفي وفتحته ولم أصعد إلى جانبه، وانطلق بالسيارة.

- أين تذهبين؟

أراقب الطريق والسيارات الأخرى عبر النافذة، أتعمد ألا تلتقي أعيننا، وبفتور بالغ أقول: - في الميدان أنزلني.

- هل تسحمين بالجلوس معًا والحديث قليلًا؟

- أنا لن أجلس معك وأتحدث.

- اسمعي، لن أطيل عليك وسنمكث في مكان مكشوف حتى تشعري بأمان.

في طريقنا تقابلنا الكثير من الإعلانات لبرنامج «أنا والمرأة» لسلمى جمال، رؤية عينيها الواثقتين تبعث في نفسي الكثير من الأمان، أقول له بحزم: - ما تريد أن تقوله قله هنا في السيارة، أنا لن أذهب معك إلى أي مكان.

تخفت سرعة السيارة، يقول حسن بصوت هادئ خالٍ من أي انفعال: - هل تصدقينني لو قلت لك إني نادم على ما حدث؟

أنصت وعيني معلقة بالنيل الذي ظهر فجأة.

- أنا لا أستطيع تغيير الذي حدث، ولست أبرره، لكني مستعد للتكفير عنه بأي ثمن.

كلماته حزينة أو هكذا أجاد صياغتها، لكن الثقة التي اهترأت لا تُنسج بكلمات يا حسن.

- لماذا لم تخبري أحدًا إلى الآن؟ لماذا لم تشتكي لأمك وأبيك، كنت سأصير أمثولة.

كلماته تفجر ينابيع الأسى، أبكي في صمت، يضغط على الجرح النازف.

- اعتاد أبوكِ على النيْل مني في أحلامي، كانت أعتى كوابيسي هي التي يزورني فيها، توقفت عن زيارة عائلتي منذ أن انتقل أبوكِ إلى هناك، لكني اعتدت الزيارة منذ شهر حين دفنت أبي بجانبه.

- هل مات عمي منذ شهر فقط ولم نعرف؟!

- في اليوم الذي أتيت فيه لطلب المال نظرت إلى قبره للمرة الأولى، دائمًا كنت أشعر أن عينيه مسلطة علي فهربت من المواجهة، سامحيني لم أكن أثق في البداية في نواياك، أنا تاجر أشك دائمًا في كل شيء وليس من المعتاد أن تطلب فتاة من مغتصبها المال للعلاج لكني أرسلت خلفك من يأتيني بالخبر وتأكدت بنفسي، لا تدري كم مزقني هذا الأمر يا نور! استطعت أن أتخلص من الألم عندما افترضت أن خطة العلاج تقتضي المواجهة مع الماضي... حملتِ كل هذا العبء وحدك، أنا آسف حقًّا.

عندما يوقف السيارة وينظر إليَّ تكون دموعي الحبيسة كلها تسيل على وجنتي، يخرج من السيارة، يقترب مني يردد أسفه ويمد يده إلى خدي ليسمح دموعي، عندما تصل يده إلى وجهي أرتجف وأشيح بعيدًا.

- أوصلني إلى الميدان لو سمحت.

- نور، هل تغفرين لي؟

- أوصلني أرجوك!

وأنا أصعد السلم المؤدي لشقة هند كدت أن أسقط من شدة اضطرابي، لا ينسى المرء ولا يغفر بهذه السهولة يا حسن، لكن عينيه كانتا لامعتين، لو كان كما هو لم يتغير فهذه طريقته في البكاء، لم أره يبكي أبدًا في طفولته حتى عندما سقط من الطابق الثاني في البيت القديم، ظل صامدًا كالحجر يشتكي بين الحين والآخر لكنه لم يبك، عيناه فحسب تراقصت وامتزجت مع ضوء النجوم دون أن تخر قطرة واحدة. استقبلتني هند ووجدت نفسي أسبقها إلى غرفتها، أغلقت الباب خلفها وانهرت من شدة البكاء، كنت أنشج كيوم نهضت من أسفل حسن ممزقة ومهلهلة، تحتضني هند وتسأل منزعجة عما حدث، أخبرتها بكل شيء.

- يا له من وقح! دعكِ منه وليذهب إلى الجحيم.

- لقد أتى بي إلى هنا، رفض أن يتركني على هذه الحال، لم أستطع أن أصده يا هند. كنت أشعر أني عاجزة عن أي شيء!

- يقتل القتيل ويمشي في جنازته!

لكن بداخلي كنت مضطربة وأغلال كثيرة تنفك عن صورة حسن، وفي مبادرة لتغيير الحوار تقول: - لكنك أتيتِ إلى هنا ووفيتِ بوعدك.

أبتسم لها ابتسامة خرقاء، أصافح أمها والتقط منها كوب ليمون بارد، برقة تقول لي: - البلد مليئة بأولاد الحرام يا بُنيَّتي.

تجلس بجانبي وتمرر يدها على رأسي، أريد أن أقول إن حسن ليس ابن حرام، إنه ابن عمي لكني أوثر الصمت، يبدو أنها ظنت أن أحدهم تحرش بي في الطريق أو ما شابه.

- نور جميلة جدًّا يا هند. إنها أجمل من وصفك.

ثم يمضي الحديث أكثر راحة وليونة من حديث حسن.

***

من الصباح وأنا أشعر بسعادة غامضة، ليست بسبب شخص بقدر ما هي سعادة لحظة وسعادة موقف، لا أعرف كيف أصف هذا! إلا أنَّ سلامًا دافئًا وجميلا يشمل روحي المعذبة، هند تحدد ملامحي كفنان يعبث بريشته في لوحة شروق ناصعة، هكذا قالت لي، أشعر أني جميلة وهذا أيضًا شعور كان مفتقدًا طويلًا، أرتدي فستانًا سكري اللون أمشي متهادية فيه كفراشة وأحمل أكواب العصير بسكينة حقيقية، أجلس أمام وائل وأتطلع إليه بثقة وهدوء، أمه تجلس بجانبه تتأملني بابتسامة فاترة، أعرف أنها تعرضت لهذا الموقف ثلاث مرات من قبل، وتخشى بالتأكيد من المرة الرابعة، لا أعرف كيف أقنعها وائل، لكنه قال في رسائله التي لا تتوقف أن هناك الكثير لأعرفه عن هذه العملية الشاقة، أبتسم لها متوددة فتبادلني الابتسامة وتثني على جمالي، تمر دقائق ثم تنفرج أساريرها وتخسر تحفظها أمام سعادة ابنها كأي أم جديرة.

- مبارك عليكِ يا ابنتي.

أكتفي بانحناءة رأسي وابتسامة أخرى ثم تتبخر كل كلمة عندما ألمح الظل القديم يدخل من باب الشقة، يصافح سعيدًا ويتقدم بخطى راسخة إلى حيث نجلس، يرتدي بدلة سوداء ويبدو مزهوًا كطاووس، تقول أمي: - حسن بيه سليم ابن عم نور.

يصافحه وائل بحفاوة ويلقي بظله الثقيل على الغرفة، حتى حماتي يعود إليها تَحفُّظها مرة أخرى، عيوني ما زالت مسلطة عليه، قبل أن يجلس ينحني إلي ويهنئني على الخطبة، لا أعرف من دعاه إلى مناسبة خاصة كهذه، لكن سعيدًا وأمي لا يبدو عليهما آثار المفاجأة، بل كانا في انتظاره على الأرجح، تبدأ أمي في تكرار الأشياء المتفق عليها من مهر ومؤخر وغيره أمامه، يبتسم ابتسامة لزجة ثم يقول: - ما توافقين عليه يا هانم.

هل أصبح حسن ولي أمري الآن! أشعر باختناقٍ كأن الأكسجين الذي في الغرفة انتهبه حسن ولم يبقَ شيء للتنفس، أكبت رغبتي في الانسحاب، السيدة الفاضلة لا أريدها أن تندم على ثقتها في وائل هذه المرة، أكابد اللحظات التالية بصعوبة بالغة، لكن حسن ينهض فجأة ويشير إلينا أنا وخاطبي: - لنترك العروسين مع بعضهما.

أمام دهشتي يخرج حسن ومن بعده أمي وسعيد وحماتي المستقبلية، لا يوجد أب لوائل مثلي تمامًا، مات وهو يتخرج في العام الأخير، الآن أشعر بعقدتي تنحل ويعود إليَّ سكوني من جديد، استرقت نظرة من وائل وعندما عدت إلى الخارج اصطدمت نظرتي بحسن الذي جلس في مقابلي تمامًا، هل هي مقصودة؟! لكنه بدا منطلقًا في حديث جانبي مع السيدة نجاة أم وائل، والغريب أن المرأة كانت مندمجة معه إلى أقصى حد.

- هربتِ كثيرًا والآن أقبض عليك يا نور.

مشتتةً لا أملك سوى الابتسام، حتى ابتسامتي تنكمش وأقول: - إذًا تمسك بي بشدة يا وائل.

- لا أعتقد أنكِ بحاجة لدليل أقوى مما حدث يا نور.

ثم يأخذني في جولة إلى عالمه الخاص، وائل طموح أكثر مما يبدو عليه، يحبني منذ أربع سنوات، دهشت حقًّا لهذه المعلومة، سحبني بلهيب مشاعره بعيدًا، كنت طافية فوق سحابة ناصعة أصافح بأحلامي النجوم، أردت أن أبقى هناك للأبد، لكن نظرات حسن الثاقبة تنخر سحابتي فأعود إليه ذليلة منكسة، أشعر أنني عارية وملطخة، ووائل يبذل الكثير من المجهود ليرفعني إلى سحابتي لكن بلا فائدة!

خرجت إلى الشرفة ولحقني وائل، أردت أن أهرب من عينيه وذكراه الكريهة، لم أرد أن تتلوث هذه اللحظة بسواد أفكاري وقساوة عينيه.

- هل أنت سعيدة؟

- كما لم أكن سعيدة من قبل.

تنبسط أسارير وائل، تنقبض أضلاعي وأشعر أن الخطر أقرب مما ظننت، وبلا تردد أقول لوائل: - هل يمكن أن يصفح المجتمع عن فتاة مغتصَبة؟

- نعم بالتأكيد فما ذنبها؟!

وائل مخدر بقربه مني، لا ينتبه إلى فلتات لساني، يخوض في الحديث معي كنوع من إذابة الجليد بين عاشقين جديدين.

- سلمى جمال في إحدى حلقاتها تكلمت عن ظلم المجتمع للمغتصَبات وتخلي الناس عنهم حتى الأقرب.

- سلمى جمال نجمة صاعدة بسرعة الصاروخ، وتنتقي المواضيع جيدًا.

لا يلتقط وائل الخيط الذي أبسطه له، أقرر المجازفة.

- كانت معها حالة تخلى عنها زوجها هل تصدق؟!

يجيب وائل بتعاطف وهمي:

- أمر قاسٍ فعلًا.

يكتفي بهذا التعليق، ولا أستطيع المجازفة بأكثر من ذلك، تمضي الليلة ويحين ذهاب وائل وأمه، أتحاشى النظر إلى حسن، وعندما يخرج وائل أغيب في غرفتي مع العزيزة هند تنزع عني ثيابي وأفكاري:

- لا أعلم ما الذي جاء به؟

- نقل إليه سعيد رغبة أمك.

أدخل إلى الحمام وأسمع هند تقول من الخارج: أتدرين لو لم أعرف حقيقته لكانت نظرتي له تغيرت تمامًا، لَلكلامُ معه له لذة خاصة.

أطل برأسي.

- هل تحدثتِ معه؟!

تومئ برأسها في ارتباك.

- وعرفتِ أن سعيدًا نقل إليه رغبة أمي من خلال دردشتك معه!

تومئ برأسها مرة أخرى قبل أن تنفجر ضاحكة.

أقول إن الذئب له شكل جميل إذا كنت لا تعرف أنه ذئب، تدخل أمي الغرفة وتحمل علبة مخملية زرقاء، أمام نظراتي المتسائلة تفتحها وتخرج قلادة ذهبية مطعمة بألماس طبيعي -كما قالت- تهرع هند نحوها فاغرة فمها كالمجذوبة، أما أنا فالشك يتحرك تحت جلدي كأفعى، وعندما تقول إنها هدية حسن أصفق خلفي باب الحمام وأغرق في حوض الاستحمام طويلًا وعميقًا. وعندما أفرغ من عبء هذه الليلة وأخلو إلى نفسي في فراشي تضيء شاشة الهاتف، كانت رسالة من حسن على تلجرام.

- أعرف أنك منزعجة لكني لم أستطع النوم حتى أكلمك.

لا أحر ردًا، أنتظر مفاجأة أخرى من مفاجآته التي لا تنتهي.

- كنتِ مضطربة جدًّا وتظاهرتِ بالسعادة، التظاهر بالسعادة هو الخطوة الأولى لتكون سعيدًا، لكن هناك خطوة أخرى عليك أن تبذليها.

كنت قد أظلمت الغرفة، ولا شيء يشع فيها غير شاشة هاتفي وقلبي المنصهر بين ضلوعي، تتأخر رسالته التالية وأتخشب على وضعيتي أنتظر.

- عليك أن تكوني صريحة مع نفسكِ يا نور، أعرف أنك أردتِ أن تخبريه الليلة وحمدت الله أنك لم تفعلي وكان ليصبح خطأً فادحًا.

أشعر أن قطرة من العرق تهبط من مفرقي وتمر على جبهتي ببطء، كيف عرف؟!

- لكن سبب انزعاجي الحقيقي هو رؤيتك ذليلة ومكسورة، وأنت ابنة الأكابر، أمام شخص مثله!

كدت أن أحطم هاتفي من شدة الغيظ، يا للوقاحة! أخذت نفسًا عميقًا وشرعت بالكتابة: - ومن الذي أهانني وتسبب في ذلي بهذا الشكل يا تُرى؟! ثم إني لا أسمح لمثلك بالتحدث عنه هكذا!

وبين أنفاسي المتلاحقة يبعث وجهًا حزينًا ويشرع بالكتابة.

- لو سمحتِ لي، فلدي حلول كثيرة.

- وهل حقًّا تحتاج إلى سماح يا حسن؟!

العديد من الوجوه الحزينة ثم:

- يبدو أنك لم تغفري لي يا نور!

هل يمزح!

- لستِ مطالبة بشيء، لكن أن تغفري لي سيحدث فارقًا في حياتي.

- وما الذي يجعلك مصرًا بهذا الشكل؟!

- لأنكِ عائلتي، أنت وسعيد وأمك وسيف كل ما تبقى من البيت القديم. ما هذا السؤال؟!

سيف؟! من يكون يا ترى؟

- هل يمكن أن تتركني في سلام أرجوك.

بعد فترة صمت أدركت أنه توقف عن الكتابة، آويت برأسي إلى وسادتي أفكر فيما قاله، حقدي القديم لم يعد متأصلًا في النفس، لم تعد ذكراه تسبب الألم ذاته ولا المرارة ذاتها، كأي جرح يبرأ مع الزمن تاركًا ندبة ملمسها لا يحدث ألمًا، لكنه تشوه ليس رفيقًا على العين، إذا كان حسن يريد غفرانًا مني فلن يحصل عليه، إن كان يتعذب حقًّا كما يقول فليتعذب إذًا، وتكفيه أمواله التي يغدقها علينا ليحدق إلى قبر أبي كما شاء.

- 8 -

قبل الحادية عشرة تكون الغرفة الزجاجية مكتملة، لا تماثل مطلق كي لا تكون مزحة ساخرة، أضع كاميرا للمراقبة في مواجهة الممر الذي يفضي للغرفتين، من يعرف طريقه لن يتردد في الدخول إلى المكتب على الجانب الأيسر، من كان هنا في المرة السابقة سيتعجب من التشابه بين الحجرتين.

توقفت سيارة مرسيدس أمام الورشة يخرج منها حارسان شخصيان ثم خمسيني فضي الشعر، يرتدي سترة سكرية وبنطالًا أبيض، حذاءً رياضيًا، ورابطة عنق وقميصه المفتوح يظهر شعيرات باهتة علقت في صدره، كل شيء يوحي بالانفتاح ما عدا نظارته السوداء التي نزعها ما إن دخل إلى عريني، ببطء وعناية شديدة راقبته وهو يقف في المنتصف بين الغرفتين، هناك نظرية تقول إن الأبعد في جسمك هو الأبعد عن عقلك وتركيزك، بالنظر إلى الأقدام واتجاهها يمكن أن تعرف رغبة الشخص في أن يسلك اتجاهًا معينًا لأنه يغفل عن ضبط أقدامه حسب رغبته فتكشف أمره، لو كان يتعمد خداعي فربما تفلت منه بادرة نحو الغرفة التي يعرفها من المرة السابقة، لكنه يتردد حقًّا بلا أي مناورة ويلتفت إلى الخلف فيهرع إليه كمال المتشاغل بفحص سيارة ما، يأتي كمال ويرشده إلى مكتبي، أدرك أنني أمام مفاوض جديد ورشيق كأفعى رقطاء تغفل عنها فتفقد حياتك، أغادر مخبئي في الورشة وأعود إلى الضيف الواعد، نتصافح معًا فيبدو وادعًا بكف رهيفة لم تعتد مسك موس للحلاقة حتى.

- مستر حسن، أليس كذلك؟

أبتسم ابتسامة نصف هلالية وأومئ برأسي موافقًا.

- مدحت سليمان مدير مجموعة شركات «أماسي».

ثم تبادل المجاملات الزائفة، يطلب فنجان قهوة سادة، يخرج «سيجارًا كوبيًا» بني اللون ويمده ناحيتي، أتلقى منه التحية بكل ود، يخرج آخر ويشرع في سحب أنفاسه بهدوء واستمتاع واضح، عيناه زرقاوان وبشرته بيضاء، يحدثني عن شركاته ويعدد مكاسبه وخسائره، البيزنس أصبح خطرًا هذه الأيام والاستثمارات محدودة وتحتاج إلى مجازفة أكبر، يتطرق إلى شركتي الصغيرة ويثني على فكرة استيراد قطع غيار من مصانع صينية صغيرة تحتاج إلى انطلاقة، وتوجيه البضاعة لسوق معينة تشمل حركة تجارية مستمرة، ثم يتوقف فجأة ويقول إن المكسب متواصل لكنه محدود، يمد رأسه للأمام ويقول: - إذا كنت تريد رأس مال كبير يدفعك إلى توسيع البيزنس فلن تسعفك هذه الورشة ولا المصانع الصينية ضعيفة الإنتاج.

يرتشف من فنجان قهوته، مذاقها لم يعجبه رغم تظاهره بالعكس، يقول: - طلباتك يا سيد حسن.

- لا شيء سوى العيش بكرامة في بلدي يا مدحت باشا.

- سأحول إلى حسابك خمسة ملايين دولار. أظن أنها تكفي لتحقيق ذلك، أليس كذلك؟

أنهض من خلف مكتبي وأجلس في مقابله تمامًا.

– بالطبع خمسة ملايين دولار، أي ما يعادل ثمانين مليونًا مصريًا، هذا رقم لا بأس به حقًّا، لكني ما زلت أشعر بالهوان يا سيد مدحت.

ملامحه تتوتر، يقول:

– كيف هذا؟!

– هل قُتِل أبوك ذبحًا على أيدي لصوص آثار أخطأوا الهدف بسبب خطأ ارتكبته أنت؟ هل يمكن أن تعيش حرًا متصالحًا مع الأمر باقي حياتك؟

أمام غضبي المستعر يصمت ولا يحر جوابًا، ملامحه حيادية لا يمكن قراءة مشاعره ولا أفكاره، يقول بهدوء حذر: – ماذا تطلب؟

يضع فنجان القهوة بعد مرارة بالغة في احتسائه.

– رأس من قتل أبي، أقتله بنفسي، وعشرة ملايين دولار. هكذا أستطيع أن أتعايش مع الأمر.

تنبسط خيوط وجهه، يقول:

– سيد حسن، مهم جدًّا أن تعرف أن هذه التماثيل وما معها نحن توكيلها، لن تستطيع تصريفها من غير إرادتنا، نحن من نشتري ونحن من نبيع ونحن من نصدرها للخارج، ستظل في مخبأها للأبد إذا أردنا ذلك، لا تفكر في المراوغة أو الإتيان بحركة غير محسوبة، كل ما في الأمر أنك تخزنها لنا في مكان بعيد عن الشبهات، سأنقل كلامك وانتظر الرد.

ينهض مصافحًا يدي بقوة، يبتسم ويقول سنلتقي قريبًا.

***

في الرابعة مساءً، أمضي في الممرات المؤدية إلى مقابر عائلتي، أتذكر التُّربي الذي كان ينهر الناس عندما يمشون فوق مقبرة واطئة بالخطأ، يقول هنا رجل ميت، لم يكن هذا يعني في خيال الطفل سوى جسم ممدد يغفو في سلام، الأقدام الضالة تقلق مضجعه فيحذرنا التُّربي الحنون، في صغري عندما كنت أزور المقابر مع أبي لم يكن شيء يحطم سحابة الملل التي تظللني سوى هذا المشهد، أحيانًا كنت أشرد من أبي لأرى التُّربي وهو يعد القبر لزائر جديد، يهشم قوالب الطوب اللبن ويحدث ثغرة كالفم الشره، تنظر على أثر الضوء المتسلل فلا تجد شيئًا من الزائر السابق سوى التراب، تساءلت ببراءة أين الساكن الغافي؟! قال أبي إن الإنسان يعود ترابًا كما كان وتصعد روحه إلى الله، عندما أدركت هذه الحقيقة كنت أقفز من ممر إلى ممر عن طريق التربة التي تفصلهما دون الخوف من إقلاق نوم أحد، فكل جسم تذوب ذراته بين ذرات التراب حتى أبي، تحمل هذه الحقيقة الكثير من الراحة والجمال، فلا يوجد أكثر إهانة من الموت نفسه سوى بعث أبي من جديد في صورة ذبابة أو تكون أمي جرادة تنهش عيدان البرسيم، لا أستطيع أن أفهم دوافع من يؤمن بهذه الخزعبلات إلا في إطار حشيشة الماريجوانا، عندما آتي إلى هذا المكان تنسل

مني خيوط تربطني بورشتي وشقتي وحياتي، عندما أكون هنا محاطًا بأكوام التراب يغمرني شعور مؤنس، أرفع يدي أمام وجهي وأتأمل الخطوط العريضة التي تحمل اسم عائلتي وأشرع في الدعاء، لكن هذه المرة وقبل أن أرفع يدي ألمح عقب سيجارة بالقرب من قبر أبي، أخرج منديلًا ورقيًّا وأتأمل العقب بعناية، رائحة التبغ ما زالت قوية، يمكن أن يكون الأمر صدفة، لكن إذا نظرنا لأثر الأقدام المتكثر أمام القبر فهناك من وقف وتحرك ببطء حتى فرغ من سيجارته وطبع آثار نعليه بوقاحة أمام قبر أبي، أقلب نظري في محيط القبر، ألمح شخصًا منتصب القامة على بعد عشرين مترًا، أتتبع أثر النعل البادي بوضوح على أرضية الممر الترابية، عندما اقتربت منه سمعت صوته الرصين يقول: - يبدو أنك داهية كما يقال عنك يا حسن.

يعرف اسمي ويعرف المكان الذي أُوجَد به، وسترته السوداء مرتفعة قليلًا من الناحية اليسرى لوجود مسدس، شاربه مهذب وفي وجهه وسامة لا بأس بها، أمد عقب سيجارته أمام وجهه وأقول: - لا يليق أن ترمي شيئًا كهذا أمام قبر أبي يا باشا.. بالأحرى أمام أي قبر.

يأخذ مني العقب ويضعه في جيب سترته.

- أنت على حق، لكني دعوت لهم بالرحمة كذلك.

يصمت قليلا ثم يواجهني بجزعه ويعلق عينيه بعيني.

- أنت معتز بتاريخك الشخصي بصورة شديدة يا حسن. هل أنت معتز بتاريخ بلدك كذلك؟

ألتقط طرف الخيط، أقول:

- التاريخ تاريخ يا باشا، شخصي أو قومي، المبدأ لا يتجزأ أبدًا.

يبتسم، أشعر بالقلق، على بعد عدة أمتار يوجد خمسة تماثيل، هل يعرف شيئًا عن المخبأ؟

- مدحت سليمان من قادني إليك، أظن أنك قابلته اليوم، مدحت سليمان هو عراب الآثار في مصر، الوجه الجميل لكيان مليء بالقبح، كما أنه لا يخرج إلا للمهام الصعبة.

يتحرك قليلًا ويخرج يده من جيب سرواله.

- أعترف لك أنني ظننتك شريكًا، في اليوم الذي أفرغت حاويتك من الميناء كنت أشن حملة ضارية على حاويات مدحت سليمان، كنت سأجن، وتعرض منصبي لزلزال بقوة 9 ريختر، كانت حملة موسعة للعثور على ما أسموه «مفتاح الجنة» كل شيء كان تحت السيطرة، ثم تأتي أنت وتخرج حاويتك وتمر أمام أعيننا ولا نلتفت إليك، أحدهم تدخل في آخر لحظة ووضع المفتاح في حاويتك!

- بصرف النظر عما يسمى بمفتاح الجنة... أنت مخترق يا باشا.

يهز رأسه في أسى:

- بالتأكيد يا حسن، لكن قتل أبيك وزيارة مدحت للتفاوض لا تعني سوى شيء واحد، إن من اخترقنا ليس شريكًا لك بل أنت متورط، لذا ما الذي عثرت عليه في حاويتك يا حسن؟ ما هو مفتاح الجنة؟

أنظر في عينيه، حدقتاه متسعتان وتحمل نبرته الكثير من الحزن.

- معذرةً، لكن كيف أتأكد من صحة ما تقول؟

يخرج لي بطاقة التعريف الخاصة به: مقدم خالد صوفي رئيس مباحث الآثار، أقول: - عفوًا يا باشا، هل تطلب مني أن أعترف على نفسي بحيازة مفتاح الجنة؟!

نصل إلى مقابري، لا تبدو منه أي إشارة على معرفته بالمكان، بل ظل يستجوبني عما عثرت عليه، وصف وضعي بالكابوس، حياتي مهددة وسيف مهدد وسلمى مهددة، بالتأكيد جمال عبيد يجيد حماية نفسه، الحل الوحيد هو التعاون المطلق مع هيئته المخترقة.

- اسمع يا حسن، إذا كنت تبحث عن ضمانة فلن نعرف منك سوى تحركات الآخرين. لن أسأل عن المكان الذي خبأت فيه الصناديق، سيكون مجهولًا لي وبالتالي مجهولًا لمن بيننا.

أبدأ في الاقتناع الآن، لكن طبيعتي المتشككة تسمح لي ببعض الوقت للتفكير.

- لو أخبرتك الآن بمكان الآثار -إن كانت لدي- تقول إن هذا غير آمن! هل أنت العنصر المدسوس يا حضرة الضابط؟

يضحك، يقول إن الشرطة لا تسعى خلف كل بلاغ خصوصًا إذا كان مكررًا وأفضى إلى كارثة في المرة السابقة.

- أنا أستطيع الحركة بشكل فردي الآن حتى أعثر على دليل يمكن أن يهيج أنوف الكلاب البوليسية، هل تفهم يا حسن؟

أومئ برأسي متفهمًا، يصافحني بقوة ويهم بالانصراف: - سنتقابل كثيرًا في الأيام القادمة.

أراقب خطواته المبتعدة، يغيب عن ناظري فأعود إلى عائلتي، أتم أدعيتي، أتفقد الأبواب المبنية بالطوب اللبن، كما هي منذ بنيتها أنا وكمال في المرة الأولى ثم قبر أبي في المرة الثانية، أشعر بفقدان الثقة في كل شيء، وأندم على عدم نقلي لها في مكان آخر قبل أن تصبح كل هذه العيون مسددة نحوي.

***

أتلقى مكالمة هاتفية من مدحت سليمان، هذا الرجل مفاوض عنيد، لكن ورقة الضغط الأولى والأخيرة ليست بحوزتهم، مفتاح الجنة والذي أظن أنه اللوح الرخامي وأوراق البردي ليس بحوزتهم بل بحوزتي أنا، يقول إن شرطي تسليم الرجل الذي قتل أبي هو شرط تعجيزي، تعجيزي أو غيره هو شرطي ولن يتغير، يحاول أن يجعل نبرته أشد عنفًا فأغلق الهاتف وأستدعي كمالًا، أطلب منه أن يجعل أحد المهندسين يثبت كاميرا صغيرة في المرآة الأمامية للسيارة.

- لماذا؟

- أريد أن أصور فيلمًا وثائقيًا عن شوارع القاهرة وأنا أقود السيارة! نفذ يا كمال ولا تكن فضوليًا.

ثم قبل أن يخرج أقول:

- أخبرني يا كمال، ألا تثق بي؟!

يرتبك ويبتسم ابتسامة رثة، يقول:

- لماذا تقول هذا؟

- لماذا تذهب لزيارة قبر أبي يا كمال؟

يصمت ويبدو كطفل مهدد بالعقاب على كرسي معزول كمريض الجدري.

- اسمع يا كمال، أنت لن تذهب هناك مرة أخرى إن كنت تفضل أن نبقى أحياء، هل فهمت؟

وقبل أن يخرج أقول:

- أبي لم يكن يحبك، لا أظنه سيسعد بزيارتك.

يبتسم وتكون هذه كلمة آسف أقولها مخبأة بين عتابي القاسي، أنهض بدوري وأنتقل إلى الغرفة الأخرى، سعيد يجلس خلف مكتبه الجديد منهمكًا في الكتابة على حاسوبه، كان يعمل محاسبًا في مول تجاري قبل أن يتم تصريفه وأعثر عليه، هو ماهر حقًّا في عمله ومتفانٍ إلى درجة كبيرة.

- كيف حال فريدة هانم؟

تمر سحابة حمضية على وجهه البشوش، يقول:

- هي بخير وتعود تدريجيًا لفريدة هانم القديمة، أخشى أن أفاتحها في موضوعي كما تعلم.

- لا تخش شيئًا يا شاذلي، بالرغم من عدم اقتناعي بهذا الحب لكن أنت مقتنع على كل حال وهذا يكفي.

أشعر أني ارتكبت خطأً فادحًا بضم سعيد إلى الورشة في هذا التوقيت، لو حدث له مكروه فهو ذنب جديد يضاف إلى قائمتي الكبيرة.

- اسمع يا سعيد أود أن أخبرك بشيء، لكن أرجو ألا تسيء فهمي.

أصمت وأنتظر حتى يتهيأ للإنصات.

- أنا رجل أعمال صغير كما ترى، لكن أعدائي كثر وعمك سليم مات قتيلًا بسبب هذه العداوات، بالطبع سمعت هذا الأمر في الورشة، أليس كذلك؟

يومئ برأسه مشدوهًا فأكمل:

- أريدك أن تعمل من المنزل، لا تأتِ إلى هنا وتعرض نفسك لصراع لا جدوى منه.

تحمر عيناه.

- وثأر عمي هل تتركه؟!

أعترف أني تفاجأت، بحثت عن كلمة مناسبة للخروج من هذا المأزق.

- ثأر عمك له تدبيره، لكن أنت بعيد عن هذا يا سعيد.

- بل أنا معك.

حدقتاه متسعتان وقبضته متوترة وملامحه صارمة، هذه نية حقيقية باعثها الغيرة لا شك، هذه نية تسعدني وتقلقني في الآن ذاته، أفضل أن أجنبه الصراع دون أن أدفعه إليه بحماسته الزائدة.

- يمكن أن تعتبر أن الثأر قد حصلت عليه وأخشى رد الفعل يا سعيد.

- أنا معك أيًّا يكن.

على هذا الوضع أخسر النقاش تمامًا فأرمي بورقتي الأخيرة، أخرج مسدس 9 مللي وأضعه على المكتب:

- هذا مسدس مرخص باسمك سيعلمك كمال كيف تستخدمه لكن ستعمل من منزلك وهذا قرار نهائي.

هكذا أنهي النقاش وأحاول أن أقدم منفذًا لهذا الفتى الشاب حتى يهرب من لعنتي، فأنا دائمًا أتسبب في قتل عائلتي، أقود سيارتي إلى البيت القديم، حيث الذكريات الكثيفة والمتناقضة كالحياة، سور خارجي عتيق ومتهالك يحتضن سرايا جدي كعاشق قديم، ينهض عمي لطفي ببطء مضنٍ، يرزح تحت ثقل سبعين عامًا حتى تقوس ظهره، يفتح لي الباب، في كل مرة أحاول أن أثنيه عن هذا العمل يرفض بحسم، يقول إن اليوم الذي يترك فيه هذا العمل سينتقل إلى القبر، في التجاعيد الكثيرة في وجهه تستطيع أن ترى تاريخًا كاملًا لعصر مضى، لا أظن أنه سيسمع تحيتي بأذنيه اللتين أنهكهما الزمن، لكن ألقي سلامي وأضغط على بوق السيارة لعله يسهل مروره إلى أذنيه، أوقف السيارة أمام السلاملك الذي أصبح جحورًا للعشرات من الجرذان، أنتقل في الفناء كعادتي منذ كنت طفلًا، أتوقف أمام أحواض اللبلاب، جف اللبلاب ونبتت في الأحواض حشائش نجيلية متشعبة، أزحزح الحوض الرخامي القديم وأرفع بابًا معدنيًا جعلته غطاءً لحوض آخر دفنته على عمق متر، أخرجت التمثال المميز ذا اللون المتدرج، لوح الجرانيت وأوراق البردي في القاع كما هما، مررت أناملي على النقوش فانتابتني قشعريرة، هنا يكمن السر، هنا مفتاح الجنة، أغلقت الباب ورددت الحوض كما هو وخرجت.

في الطريق يهاتفني خالد باشا، يقول ما الذي وصلت إليه مع مدحت سليمان.

- سأقابله.

- وهل ستعطيه الصناديق؟

- إذا صدق معي فسأصدق معه.

- ماذا تقصد؟

- سأعطيه تماثيل مزورة ليست حقيقية.

- هل تمزح؟! هؤلاء الناس لا يمزحون، سيقتلونك ويقتلون طفلك!

أقطع الطريق بسيارتي إلى الورشة، شوارع القاهرة صاخبة كعادتها، يأتيني صوته ممزقًا: - يا حسن، احتفظ بالخمسة تماثيل وأعطهم المفتاح، بهذا الشكل تكون قمت بصفقة ناجحة، التماثيل لا تعني لهم شيئًا أما المفتاح فهو الذي يطلبونه، بأخذك التماثيل تصبح شريكًا لهم؛ فهم من سيشترونها منك في

النهاية وربما استعانوا بحاوياتك مرة أخرى، والمفتاح يكون طريقنا إليهم، نراقبهم حتى نعرف ما المقصود به ونقبض عليهم متلبسين، دعهم يقودونا إلى الجنة يا حسن. هل تفهم؟

كلامه منطقي إلى حد كبير، هذه الصفقة تصب في صالح البلد لكنها لا تقيم لي وزنًا، سأموت قتيلًا دون أن أثأر لأبي حتى، ما الفائدة إذًا من التضحية بالنفس في مقابل الآخرين ما دمت قادرًا على التضحية بشيء آخر، التضحية بالنفس في ظرف لا يحتاج إلى التضحية هي انتحار يا باشا، لن أكون شريكًا لهم، بل ذبابة تحط فوق طبقهم وعليهم أن يتخلصوا منها ليهنؤوا بطعامهم، لكني تاجر وأعرف كيف أساوم بمهارة، تاجر يعرف أن بضاعته هي حياته وحياة أهله.

– لا بأس يا خالد بيه، الأمر يتوقف على صدقهم.

– لا تخش شيئًا أنت لست وحدك.

هكذا انتهت المكالمة بيني وبينه وفي رأسي فكرة واحدة لم تتغير، بعد ساعة من التجوال في شوارع القاهرة رن هاتفي.

– سيد حسن، لك ما تريد.

حدد مدحت سليمان مكان اللقاء، كما فهمت منه فإن قاتل أبي معهم وهو رهن إشارتي، انطلقت بسيارتي وخرجت من القاهرة، توجهت إلى الصحراء، ملت عن الطريق العمومي وتوغلت بين رمال ذهبية، على جهاز تحديد المواقع أرسل لي مدحت النقطة المطلوبة، ساعة ونصف من القيادة المستمرة وأصبحت في فوهة الجحيم نفسه، لا يوجد سوى الشمس والرمال، الخامسة مساءً كسرت حدة الحرارة واستطعت أن أميز سيارتين لاندروفر رباعيتي الدفع، عندما نزلت من سيارتي وجدت عملاقًا جاثيًا على ركبتيه أمام مدحت وأربعة حراس شخصيين، قمنا بمصافحة باردة وابتذلت ابتسامة أبرد.

– من هذا؟

– هذا رجلك الذي قتل والدك، هل أتيت بالبضاعة كما اتفقنا؟

أمط شفتي وأخلع نظارتي الشمسية.

– لو صدقت معي فسأصدق معك.

بنفاد صبر يُخرج حاسوبًا لوحيًّا من السيارة ويقوم بتشغيله، على شاشته أرى الرجل الجاثي على ركبتيه وهو يتحرك في غرفة المكتب ويقف خلف والدي تمامًا، يثبته ويقوم بنحره، أنا غاضب بشدة، غاضب لدرجة لا تعبر عنها كلماتي ولا تتحملها أعصابي، أشعر أن خلايا جسمي تتفكك وتنتثر في رمال الصحراء، أريد أن أبكي وحيدًا وأنتحب كطفل نُزع من قماطه وألقي في الشارع حيث تنهشه الكلاب وتهرسه السيارات، بصعوبة بالغة أحافظ على ابتسامة سخيفة وأنا أنظر إلى الرجل، أعرف أنه مجرد أداة صدئة تم استعمالها وحان وقت التخلي عنها، أتأمل نظارة مدحت وأستقبل تأففه ببرود، حينما أقترب من الرجل الجاثي أشعر بجسده ينتفض، كل هذه الثقة التي في الفيديو تخور تمامًا ويصبح صاحبها خائفًا يترقب.

- مهلًا يا حسن، نريد أن نطمئن على بضاعتنا أولًا.

أضغط مفتاح الحقيبة الخلفية فيرتفع الباب ببطء، أشير نحوه وأقول: - هناك عينة لإثبات حسن النية.

تنكمش ملامح مدحت.

- حسن النية؟!

يسأل باستغراب مصطنع، يتوقع حركتي هذه لا شك، أضع يدي على كتف قاتل أبي في حين يخرج حارس مدحت سليمان التمثال من سيارتي، يضوي اللون الذهبي أسفل الشعاع المنبعث من القرص الأحمر، يقول مدحت: - هذا فقط؟

أطلب من أحد رجال مدحت أن يعطيني خنجره، حافة المقبض برزت أسفل حمالة قميصه، أتناول الخنجر وأضعه على رقبة الرجل الباكي، أسمع همسه بين دموعه: - كنت أنفذ الأوامر فحسب.. أرجوك لدي أبناء.

أحز رقبته ببرود جليدي وتتدفق الدماء على يدي وتهطل فوق رمال الصحراء، يسقط الرجل جثة هامدة، أخرج منديلًا ورقيًا وأمسح حد الخنجر وأناوله للحارس الذي يتأملني بذهول أخرق.

- لو صدقت معي يا مدحت بيه فسأصدق معك، لو أتيتني بقاتل أبي فسأعطيك المفتاح.

يرفع مدحت كتفيه ويفتح كفيه متسائلًا:

- ومن الذي قتلته الآن؟

- كان مجرد أداة والكل سمعه وهو يقول نفذت الأوامر، أريد من أذن له بقتل أبي.

تتوتر ملامح مدحت، ينظر إلى الجثة المسطحة على الرمال وترتفع شفتاه تقززًا، يقول: - أنت تصعب الأمور على نفسك يا سيد حسن.

أخرج زجاجة مياه من سيارتي، راقبت توتر أذرعهم على ستراتهم المنتفخة بالمسدسات، آخذ جرعة وأحركها في فمي ثم أبصقها فوق الرمال، أشرع في سكب الماء بحذر على كفي الملطخ بالدماء، تسقط قطرات باهتة، أنظر إلى مدحت الذي يحترق من شدة الغيظ: - كما قلت لك أنا رجل أحترم كلمتي، لو أتيتني بقاتل أبي فسآتيك بكل بضاعتك.

ينظر إلى التمثال ويقول:

- سأنقل وجهة نظرك، لكن كما قلت لك أنت تصعب الأمور على نفسك.

تحتنق عيناه رغم محاولته البائسة في السيطرة، ويشير لرجاله فيحملون الجثة ويصعدون إلى سيارتهم، أما أنا فأظل مستندًا إلى مقدمة سيارتي أراقب النقع الذي أثاروه وهم يمخرون عباب الصحراء، أستشعر شعاع القرص الدامي وأحدق إلى بقعة الدم الجاثمة على الرمال كاللعنة، ثم أرسل الفيديو الذي قمت بتصويره إلى خالد صوفي.

- 9 -

ماذا يمكن أن أقول؟! لكن الشخص الذي اعتدت أن يكون صلبًا وقاسيًا أراه اليوم ضعيفًا وهشًا للغاية، أرى بشرته شاحبة وعينيه زائغتين كأنهما سقطتا في غور ماضيهما، أقبلت على أمي وهي تستند على حافة الطاولة، همست لها: - هل أنت بخير؟

ابتسمت في وهن على غير عادتها، كانت رقيقة وخائفة.

- أمي! هل أنت بخير؟

تومئ برأسها وتكز على أسنانها من شدة الألم، خبط قلبي خبطة عنيفة، خبط باب الشقة أيضًا فأمرتني أن أفتح، كان وائل هو الضيف المنتظر، اليوم سنخرج معًا لأعيد اكتشاف أطلال أنوثتي وأكتشف معها رفيق العمر، حمدت الله عندما رأيته، أخبرته أن يدخل بسرعة ليلقي نظرة على أمي، عندما وقف أمامها لم يقل شيئًا، أمي من قالت: - أنيميا واضطرابات النساء كما تعرفون.

لم أقتنع، أرادت أن تأمرني بالذهاب مع خطيبي بقسوتها المعتادة، خانها صوتها وعيناها وكل ماضيها الجاف، وجدت نفسي أحتضنها، للمرة الأولى تدمع عيناها على كتفي، أدركت أن الأمر خطير، ما يجعل أمي تبكي على كتفي خطير، أقرر عدم الذهاب مع وائل.

- سنذهب إلى الطبيب الآن.

يعرف وائل طبيبًا ماهرًا في العجوزة، هو أستاذ كبير في أمراض النساء والتوليد، تقول أمي أنها ذهبت لطبيب بالفعل وتعرف ما لديها، أهيئ نفسي للصدمة، لست وحدي من يخفي أسرارًا.

- متى ذهبتِ إلى الطبيب؟

- منذ شهر تقريبًا.

أفضل أن أجلس على كرسي المائدة، أتطلع إلى شفاه أمي المرتعشة وهي تقول: - أورام سرطانية في الرحم.

الآن أنا هشة وفارغة أكثر من أي وقت مضى، وريقة بائسة تحوم في قلب إعصار، رحمتك يا رب، ليس أمي وليس الآن، غامت الدنيا، تقترب الأرض مني بسرعة وتصطدم جبهتي بالكرسي المجاور، خيط من الدم سال على وجنتي واستطعت أن أستشعر الملوحة في فمي، لكني لن أفقد الوعي، أنا قوية وصلبة وأمي بحاجة إلي، أول يد وصلت إلي كانت يد أمي، تتشابك أصابعنا وأقبض عليها خوفًا من رحيلها، كأن المرض ينهشها ويمكن أن تختفي من أمامي حالًا، كأني بحاجة لأتحسسها وأشعر بوجودها حية وحقيقية وصلبة كعادتها، تربت هي على كتفي ووائل يحضر كتلة من المناديل الورقية ويسد بها الجرح النازف، انقلب المشهد من لهفتي على أمي إلى لهفة الجميع علي، يا لضعفي وانكساري! حتى حسن لاحظ كم أنا هشة وخاوية إلى هذا الحد! ومذاق الدم في فمي أقول: - لماذا لم تخبري أحدًا يا أمي؟

لم تحر جوابًا، ملهية برأسي الذي يضغط عليه وائل، ينفتح باب الشقة ويدخل سعيد ومعه حسن، يندهش سعيد وحسن هذا قطعة من الجليد لا تبدي أي انفعالات! لكن مهلًا ما الذي يأتي بهما من الشغل باكرًا هكذا؟

– ما الذي حدث؟

تشير أمي إلى الدماء التي لوثت ثيابي كطفلة خرقاء لا تحسن آداب الطعام، وتخبرهم بما حدث، وهنا تتكشف خيوط المؤامرة، كان وائل سيصحبني معه ثم يأتي حسن وسعيد ليصحباها إلى المستشفى لموعد إجراء العملية، يا لتعسي! هل يعرف حسن ولا أعرف؟! ويعرف وائل ولا أعرف؟! ربما تعرف هند بهذا الأمر هي الأخرى! أبدأ في البكاء رغم محاولاتي البائسة في السيطرة، أشعر بالحنق والحزن والخوف في نفس الوقت، نفسي ملأى بالأوجاع وأمواجها متلاطمة بلا هوادة.

– الجرح ليس عميقًا، أليس كذلك؟

– مجرد خدش سطحي ليس إلا.

وفي الطريق يحضر وائل ضمادة صغيرة ويطبعها فوق جبهتي، أتأمل أمي وأحتضن كفيها بين كفي، أجلس في المقعد الخلفي وألتصق بها كتوأم سيامي، كظلها الذي تحركت يومًا للانسلاخ عنه، بين الحين والآخر تلتقي عيني بعين حسن عبر المرآة الأمامية فأشيح بعيدًا، كم أكره أن أجلس خلفه في سيارته، كم أكره أن أكون مضطرة إلى نفقاته!

عندما وصلنا إلى المستشفى الخاص وحملوا أمي إلى الداخل اكتشفت أنها ستقوم بالعملية بعد ساعة، استطاعوا بعناية أن يخفوا عني أي أثر، واكتشفت الآن أنني كنت غائبة عن الوعي، كنت منشغلة بنفسي بعيدة عن أمي بأعوام سحيقة، أنا لست سوى مسخ لا يفكر في أحد! دمية من الزجاج يخشى الكل أن تتحطم، جلست على كرسيٍّ معدنيٍّ في ممر طويل يؤدي في النهاية إلى غرفة العمليات، غاضبة على الكل بما فيهم وائل، اقترب ليجلس بجانبي فتجاهلته تمامًا، قلقي على أمي وسخطي على نفسي جعلني قنبلة قابلة للانفجار لدى أدنى اهتزازة، يتحدث وائل بصعوبة محاولًا البحث عن كلمات مناسبة، أنا لا أريد اعتذارًا من أحد، أنتم حفنة من الحمقى متبلدي المشاعر لا تعرفون سوى رغباتكم، وتظنون أن كلمة مثل «آسف» تكفي للبدء من جديد! نظرت بعيدًا فلمحته يقف كتمثال منحوت من الصخر، عيناه ثابتتان علي، لا أستطيع أن أفهم نظراته ولا أحاول، لكن فكرة جنونية نابعة من رحم اليأس تهبط على روحي فتشعلها، أنهض وأتحرك في البهو المتسع، أخرج هاتفي وأرسل رسالة لصفحة برنامج أنا والمرأة، بلا تردد أكتب لسلمى مستفتحة بعزيزتي وأتخيلها هند وأشكو لها ما قاسيت في حياتي وأنني أخشى فراق أمي ولم أهنأ برفقتها بعد، استطعت كبح جماحي ولم أذكر أسماء، طلبت منها أن تنصحني لأني تائهة ومشوشة ولا أشعر بالأمان.

– يجب أن تأكلي شيئًا حتى لا تفقدي الوعي.

كان سعيد يحمل طعامًا مغلفًا وأكواب عصير بلاستيكية، رفضت أن أتناول شيئًا، الجميع يصر على أني ضعيفة وقابلة للتحطم في أي لحظة، رفضت بعنف، كدت أن أقذف طعامه بعيدًا، رسخت انفعالاتي قناعة سعيد ووائل أكثر، أما هو فظل يتأملني ببرود القطب الجنوبي دون أن يتحرك، وعندما تكلم طلب من سعيد أن يأتي له بالطعام فهو لم يأكل من البارحة ويوشك على الانهيار! شرع في التهام طعامه كأن شيئًا لم يكن، والأدهى من ذلك أن سعيدًا ووائلًا قلداه فيما فعل، أين هند؟ على أحدهم أن يرحمني من هذا الجنون! يأتيني صوتها بعيدًا جدًّا.

– هند! أنا في المستشفى، أمي في العمليات يا هند، تعالي بسرعة أرجوكِ!

الشبكة مشوشة ولم أسمع منها سوى أين أنت، أرسلت لها عنوان المستشفى على الواتس وانتظرت بصبر مزعزع.

يضع أحدهم علب الطعام على المنضدة، يقف أمامي حتى أرفع رأسي إليه، يقول بطريقته الرتيبة كأنه إنسان آلي: – لا يوجد تعارض بين الحزن والأكل، وأن تكوني قوية لا يعني أن تموتي جوعًا. ستخرج أمك قريبًا من غرفة العمليات وبالتأكيد تفضلين البقاء بجوارها حية.

الرائحة جميلة وأشعر أنني مخدرة من شدة التعب، أنتبه للمرة الأولى كم أنا عطشى! أنحّي الطعام جانبًا وأبتلع جالونًا من العصير عبر ماصة بيضاء واسعة.

– هل تعرفين أنني تسببت في قتل أبي؟

جرعة من العصير دخلت في مجري تنفسي وسعلت بشدة، نظرت إليه، تمثال الصخر تلين ملامحه ويبدو حزينًا حقًّا.

– هل قُتل عمي؟!

– نعم.

لحظات صمت ثقيلة ثم يقول:

– هل تعرفين أنني تسببت في قتل كل عائلتي!

لماذا أسمع هذا الآن؟ لكني لم أجرؤ هذه المرة على تجاهله وهو يتحدث، نظرت إليه وسمعت ما قال: – عندما كنت أقود سيارة أبي أحمل أمي وشهد إلى طبيب الأسنان، تجاوزني أحدهم، كنت أشعر بجبل من السأم ووجدت ضالتي في تحدي السرعة هذا، بسبب تهوري انقلبت السيارة مرتين أو ثلاثة في حادث تصادم، ماتت شهد في الحال وخرجت أنا سالمًا بلا خدش واحد لكن أمي لم تلفظ نفسها الأخير إلا بعد أن اطمأنت عليّ!

يمط شفتيه ويقول إن آفته في الماضي هي السأم، ينظر في عيني: – ربما كان السأم هو ما دفعني إليك في تلك اللحظة.

يرتج عليّ ولا أنطق، وجهي يحمر، يلتهب، يقول هوني عليك لست هنا لإغضابك، ثم ينهض، وقبل أن يخرج يقول: – ما أردت قوله هو أني أتفهم فزعك على أمك لكن كل شيء سيكون على ما يرام صدقيني.

تصل هند قبل أن تخرج أمي بدقيقة واحدة، نجحت العملية كما قال الطبيب واستأصلوا الرحم وأصبح جسمها نقيًا من أي خلايا شرهة ومميتة، وعندما أعرف الرقم الذي تكفل حسن بدفعه أدرك ما قصدت إليه أمي بقولها «أنتم بحاجة لابن عم قوي وغني مثل حسن» أدرك السر الذي جعلها تنسى الماضي بويلاته وتفتح أبواب شقتنا لحسن سليم مرة أخرى، وأدرك أن الفقر أخطر من ألف سرطان.

في المساء تكون أمي في غرفة خاصة بها، نحيط بها جميعًا، أتأمل ملامحها الرقيقة التي شفها الفقر والمرض، أتأمل ابتسامتها العذبة وأحاول أن أرتوي منها، ما زلت أحتضن كفها بين يدي، هنا الطب متقدم ومنظم ورحيم، حتى شعرت أن أمي لم تكن مريضة أصلًا، نتحدث معًا كأننا التقينا للمرة الأولى، كلماتها مرهقة وبسيطة لكنها بالغة الأثر في نفسي، أنا من أحكي طوال الوقت رغم توسلات الجميع بتركها ترتاح، لكني لست مطمئنة وأخشى أن أتركها فتغيب عني للأبد، لك الحمد يا إلهي حتى يبلغ الحمد منتهاه، يهتز هاتفي برسالة جديدة، صفحة أنا والمرأة ترد على رسالتي برسالة شكر وتطلب أن أنتظر الحلقة في تمام التاسعة!

كانت الساعة بالفعل التاسعة إلا خمس دقائق، قمت بتشغيل التلفاز في الغرفة الملحقة بغرفة أمي، ظهرت سلمى جمال على الشاشة متألقة ونجمة كعادتها، استفتحت وبدأت بتناول الفقرات حتى حان موعد قراءة الرسائل، يجاورها الدكتور محمود سالم أستاذ الطب النفسي والعلاقات الأسرية، دخل حسن.. سمع الصوت فتوقف، جلس وأخذ يشاهد سلمى بوجه خالٍ من العواطف، امرأة مثل سلمى خطرة جدًا على رجال من أمثاله، قرأت سلمى رسالتي، تفاصيلها واضحة، طلبت رأي الضيف المخضرم، تحدث باستفاضة عن الأضرار الناتجة عن الاغتصاب وحسن يسمع، لا ارتعاشات في وجهه ولا قطرات عرق من فرط الخجل، تمثال من الصخر يسند ذقنه إلى يده ويتابع بصمت، يفرغ الدكتور من حديثه المهدهد لعواطفي وتنظر سلمى إلى الكاميرا، شعرت أنها تراني وتتحدث إليَّ بدون فاصل أثيري.

– «نون شين ميم.. جميلتي الصغيرة لا تقسي على نفسك، لست وحيدة وكلنا معك، كلنا نطلب الشفاء العاجل لوالدتك ولا تكوني قاسية معها فأمك ضحية هي الأخرى، أما ابن عمك فهو مجرم يحتاج إلى الشنق في ميدان عام، وخاطبك صارحيه بالحقيقة فالعلاقات لا تُبنى على الكذب! وإن لم يقدر الجوهرة التي بين يديه فليذهب إلى الجحيم وأعتذر لمشاهديَّ الكرام عن شدتي، لكن المجتمع أصبح موحشًا ومليئًا بالذئاب، دمتي ملكة».

حسن صامتٌ كالقبر، لم يلتفت نحوي، ما زال في وضعه المتأمل لمذيعة أنا والمرأة، لكن مسحة حزن سريعة عرت صفحة وجهه، شعرت بإحساس متناقض، ربما تماثل أمي للشفاء أورثني شيئًا من الامتنان، نهض وخرج دون أن يتفوه بكلمة واحدة، ربما شفاء أمي وسعادتي المفرطة جعلتني أندم على إرسال الرسالة!

***

كانت أمي تتحسن كل يوم عن سابقه، أصبحت علاقتي بها أعمق، تهشمت القشرة الصخرية التي غلفت بها نفسها طوال أعوام مديدة، وتدفق ينبوع الحنان ليروي تربة قاحلة متشققة من الجفاف، ربما لإحساسي الجديد بالسعادة وجدت نفسي قادرة على الكلام مع وائل، جاء لزيارة أمي كالمعتاد، يمضي القليل من الوقت ثم نجلس معًا في الشرفة لنتحدث، ينظر إلي وتتلاقى أعيننا يقول: - أنت جميلة حقًّا يا نور.

بدأ قلبي يتعلق بوائل، أصبحت قلقة من ردة فعله، حاولت الاقتراب ببطء وهدوء.

- وائل، يجب أن أخبرك بشيء.

- كلي آذان مصغية.

- لا أحتاج آذانك بقدر ما أحتاج حبك.

يبتهج وائل ووجهي يتضرج، لا أعلم من أين تواتيني كل هذه الجرأة.

- أنا أحبك يا نور أكثر من أي شيء في الكون.

- عاهدني أولًا أنك لن تخبر أحدًا.

- أعاهدكِ بشرفي.

أصمت وأتهيأ للبوح بسري، يبتسم وائل مشجعًا، يومئ برأسه.

- أنا لستُ بكرًا.

تغيم ابتسامته فجأة ثم يضحك.

- أنتِ تمزحين، أليس كذلك؟!

كان ليكون مزاحًا ثقيلًا بلا أي روح دعابة يا وائل.

- ابن عمي اغتصبني وأنا صغيرة.

يربد وجهه، يحدق إليَّ كأنه يراني للمرة الأولى، يظل صامتًا لفترة.

- أنت من أرسلت الرسالة.. أنتِ نون شين ميم.. نور شاذلي مختار.

أصمت وأهرب بنظري بعيدًا، يصمت هو الآخر، عندما أعود إليه أجده ذاهلًا، صدره يعلو ويهبط، يقول: - هل هو حسن؟

أجد أن من حقه أن يعرف، أهز رأسي موافقة، يضرب كفه بقبضته، يسب ويلعن: - ابن الكلب!

آلمني سباب عمي الميت لكني لم أجرؤ على المعارضة، يدفن وجهه بكفيه، يردد بين لهاثه: - ابن الكلب!

تحررت من تحفظي، قلت:

- أرجوك لا حاجة لسب رجل ميت!

عيناه جمرتان متوهجتان.

- تدافعين عنه يا نور!

- أدافع عن عمي وعائلتي، حسن لا يعني لي شيئًا.

شعرت بقلبه يتكسر، لم يفهم، نهض، قلت: - أين تذهب؟

- أفضل الجلوس مع نفسي قليلًا.

الشك حية سوداء تتحرك في صدري.

- هذا هو قولك!

أنفاسي تتسارع ودموعي قريبة، ينظر إليَّ بوجه كالح.

- لا تضغطي عليّ يا نور.

يخرج بسرعة كأنه يفر من شيء ما، بقيت واقفة في مكاني أتأمل الفراغ الذي خلفه، خرج من باب العمارة، لم ينظر إلى أعلى كما يفعل في كل زيارة، قلبي مقبوض وعقلي تائه، تابعت خطواته المتوترة، ركب سيارته وانطلق، لا يوجد علاقة صحية تُبنى على الخداع، كان سيعرف لا محالة، ونحن على البر أفضل حتى لا تصبح فضيحة فيما بعد، لو تخلى عني فلا أعتقد أن أحدًا آخر سيقبل بي، أشعر بغصة في حلقي وثورة عارمة تتنامى في صدري على هذا المجتمع الفاسد، لا أخلاق ولا دين يقبل أن تصبح الضحية مدانة ومثقلة بذنب لم تقترفه، لا أحد يتحمل فاتورة أحد كما قالت هند، هل أصبحتُ فاتورة أحد؟! وقفًا عليه دون غيره؟! كف أمي يحط على كتفي، هذه المرة أنظر إليها بدموعي واضحة وصريحة، تمد يدها الرقيقة رغم خشونة بشرتها إلى خدي وتزيلها.

- هل تشاجرت مع وائل؟

أومئ برأسي وتهطل المزيد من الدموع.

- لا بأس، الآن تصبح العلاقة أكثر نضجًا.. الآن تكتشفين جانبًا جديدًا في شريك حياتك لتحكمي عليه بشكل أوضح.

تذهب أمي دون توبيخ أو تعنيف، تسدي نصيحة غالية ومطمئنة بأسلوب حميميّ ونافذ، أظل أتأملها مندهشة، أشعر بجرعة ثقة حقيقية بعد أن كدت أنهار، هاتفت هند، لم تعد تأتي كثيرًا كما في الأيام السابقة، تعلق سعيد بها أصبح ظاهرًا للعيان، كنت أتوقع رفضًا قاطعًا من أمي، هند تكبر سعيد بعامين، قصة حب تنسج خيوطها في بيئة مغايرة، أنا أيضًا لم أستطع أن أتعايش مع الوضع دون إبداء استغرابي، هند لاحظت تحفظي، عدته جحودًا لصداقة قديمة جذورها مغروسة في الأعماق، لكنها لم تفهم دافعي الحقيقي، أصبح لسعيد مستشار جديد، أشار عليه أن يختبر حقيقة مشاعره قبل أن يقدم على خطوته، اختبر سعيد حقيقة مشاعره ولا أعلم كيف ثم أتى به وسيطًا إلى أمي، تحدث معها ذلك الحسن بشكل فردي ثم خضعت أمي لرغبة سعيد، أثار هذا الأمر الكثير من النوازع داخلي، تعمدت أن

أرفض تدخله في شؤوننا، انعكس رفضي له في صورة أزعجت هند كثيرًا، لكن صديقتي القديمة تفهمت عندما أفصحت لها عن دواخلي.

- ألو.. نور.

- هند، لقد أخبرت وائل بكل شيء.

صوت لهاثها يخترق أذني.

- تمزحين، أليس كذلك؟

- لا.. قلت له ورحل غاضبًا.

- وماذا ظننتِ يا نور؟!

كان لهاثي أنا هو ما يصل إليها، كنت حانقة عليه بشدة، قلت بصوت محموم: - أنا لن أعيش في كذبة يا هند! إن كان يحبني فليقبلني كما أنا وإلا فليذهب إلى الجحيم.

- 10 -

في الطريق أشعر بشيء من الراحة ينطوي على حزن عميق، لقد قتلت رجلًا قتل أبي، نحرته كما نحره والدماء سالت منه على يدي كما سالت دماء أبي، اليوم أكتشف في نفسي شخصًا آخر قادرًا على القتل دون أن يرف له جفن، في صحيفتي قتل واغتصاب! من أي طينة تشكلت يا ترى؟! تمر سيارتي في شوارع القاهرة كالقذيفة، انتبهت لسرعتي العالية وتذكرت الحادث القديم، ظللت لا أستطيع تجاوز الستين كيلو مترًا عدة سنوات حتى حطمت عقدتي، هل يمكن أن تتحطم باقي العقد؟! شعرت برغبة كبيرة في لقاء سيف، سلمى أيضًا لم أرها منذ دهر مضى، عندما كانت تسبني على الهواء وتنعتني بالمجرم لم أعرفها، شعرت أنها امرأة أخرى لا تشبه زوجتي، أو أنا رجل غريب لا أعرفني، كانت أبهى وأكبر مما هي عليه في الحقيقة، هل كان لبعدها عني ذلك الأثر اللاسع، انتظرت بسيارتي أمام باب القصر، قررت أن أمكث مع سيف وسلمى في بيت أبيها، ربما هي بحاجة إليّ كما أنا بحاجة إليها وتكابر كما أكابر، ربما لم يجف حبها من قلبي كما أتوهم، ربما هو جفاف السنوات السبع ونرتوي أنا وهي بحبنا من جديد، لا بأس سأقطع أنا المسافة إليها ولو زحفًا، ينفرج مصراعا البوابة الضخمة، أنطلق بالسيارة إلى الجراج العملاق أهبط منها وأتوجه صوب البحيرة الأقرب، مياهها صافية شفافة عكست قرص القمر المنبعث في السماء، ظهرت ملامحي كئيبة ومرهقة، حاولت أن أبتسم لنفسي، لدي طفل وعائلة وزوجة متألقة، لم هذا الفراغ إذًا؟! أنسحب عندما تتحجر ابتسامتي دون جدوى، في الاستقبال تكون جميلة هانم جالسة وبجانبها سيف، يراني فيرتمي بين أحضاني، يستقر قلبي بين ضلوعي ويشعر بالأمان عندما أحمل سيفًا بالقرب منه، ألتقط كف الهانم الناحلة وأطبع قبلة رشيقة، أظهر الكثير من الاهتمام الزائف بكل ما تقوله أو تفعله، لا تحبني كثيرًا ووجودي بجانبها غير محسوس، أتساءل هل تعطلت مجسات الأنثى لديها أيضًا عن غزوات الباشا التي لا تنقطع؟ رجل في سنه ومركزه لا ينقصه سوى امرأة تعيد إليه شبابه، امرأة حقيقة لم يجف رحيقها بعد، تربة خصبة ربيعية تفوح منها روائح عطرة، وليست دمية صماء لا تحسن الابتسام من حقن البوتكس، لو أفضت إليَّ بشكوكها لأخبرتها أن السكرتيرة القديمة تم إجهاضها مرتين لأنها حمقاء لم تحسن التصرف، توجهت عيناها المنطفئتان إلى ابتسامات الباشا وهو يقلب في هاتفه، وحديثه الطويل عبر سماعة الأذن وهو يعدو في صالة الألعاب، سأسألها متى آخر مرة ابتسم لها ابتسامة حقيقية، ولماذا يسرف في جعلها رائدة متصدرة؟! ربما ذكرت لها عنوان شقة المعادي التي لا تعرفها وفيلا الساحل ويخته المنتظر دائمًا في ميناء الغردقة، هل حضرت حفلًا واحدًا في يخت الباشا؟ هل تعرف من ضيوفه في هذه الحفلات؟! لكن بعض المعرفة شقاء.

- كيف حال جميلة هانم؟

- بصحة أفضل منك يا ولد.

- نعم بالطبع فليس عليكِ أن تتزوجي امرأة أخرى!

تبتسم وأشعر أن مفاصل فكها تئن.

- أنت تغار من نجاح زوجتك الباهر، لو سمعت كلامي لخلعتك منذ مدة وتزوجت شخص يعرف قيمتها.

هذه الحيزبون تزداد بشاعة، أنا أشفق على سيف من عبثها في شعره.

- لا أفهم أن يكون النجاح في عملها عند شخص آخر مقابل حفنة من الجنيهات، لو كان الأمر كذلك فالعمل لدى زوجها وابنها أفضل بكثير ويمكن أن أعطيها المال الذي تريد.

تمط شفتيها البائستين:

- لا أظن أنك قادر على دفع مرتبها.

- ولا أظن أنها بحاجة لهذا المرتب.

- عقلية قديمة ومتأخرة مثل عقليتك لن تفهم استقلالية المرأة!

- نعم.. تستقل عن رجل بصفة زوج ليستعبدها رجل آخر بصفة مدير شركة وآخر بصفة زبون! والآن بما أنها مذيعة فالدائرة تتسع، أنا لا أغار من نجاح زوجتي يا هانم، أنا فقط أحبها.

تهمس مدبرة المنزل في أذنها أن السيارة جاهزة، تنهض في شموخ ملكي، تقول: - إذا كنت تحبها كما تقول فلا تكن مصدر تعاستها.

مفاهيم غريبة تشكل قناعتنا هذه الأيام، السعادة شغل والاستقلالية تمرد!

- ها يا عصفوري الصغير، كيف حالك؟

الرجل الذي قتلته له أبناء كما قال، سأبحث عنهم وأترك لهم وديعة في بنك ما ليعيشوا كرماء، بهذا أخرس آخر صوت حزين يهمس في أذني، بهذا أستطيع أن ألعب أنا وسيف ونخرج لنتنزه معًا في الحديقة الكبيرة، يسألني عن أسماء الزهور النادرة في أقفاصها الزجاجية، أقرأ الأسماء وألقنها له كخبير في علم النباتات، الرجل الذي قتلته قد يكون له زوجة كما قال، سأحرص ألا ينهشها الفقر كأسماك البيرانا، لكن ألف فك بيرانا مشرشر صغير نهش كرامتي عندما خرجت زوجتي من السيارة التي وقفت أمامنا، في حديقة القصر، الأضواء خافتة فأضفت نوعًا من السحر والشاعرية على جلستي مع سيف أمام البركة الصغيرة، سلمى كانت ساطعة أكثر من أي قرص مضيء مختبئ في الأرضية العشبية، تتقدم نحوي ببطء حذر، أطالع شعرها الهفهاف وأنوثتها الفائضة خارج ملابسها، يستقبلها سيف فتنحني أمامه مداعبة.

- أنت أجمل حقًّا من غير الحجاب.

تنظر إليّ مستطلعة، أبتسم.

- لست غاضبًا مما فعلت؟

- المهم أن تكوني سعيدة!

ما زالت متحفظة في مشيتها لكنها مستعدة للمواجهة، قبضتها متوترة ورأسها منحنٍ قليلًا وروح العداوة ضافية على قرارها.

- كنت سأخبرك لكنك مشغول هذه الأيام.

- أووه حقًّا حتى إني قتلت رجلًا من ساعتين تقريبًا!

تنفرج أساريرها وتندفع نحوي، تستقر رأسها على صدري تمامًا بالقرب من قلبي المتصدع، تقول: - صغيري الساخر الحنون.

رائحة عطرها جميلة وتتغلغل في خياشيمي! هل أصبح لي خياشيم؟! أقرب فمي من أذنها اليسرى وأقول: - سلمى، أنتِ طالق.

***

صوت الشيخ رفعت يطفو على نومي، ألتقط النبرة الخاشعة وأستيقظ، الساعة السابعة في شقتي المعلقة في البرج الكبير، أنظر إلى الفراغ الذي خلفته سلمى وأتذكر بركة اللعاب، أمر على حجرة سيف وأتذكر الضفدع المصلوب، أتناول إفطاري في صمت وأخرج إلى العمل، الغرفة المقابلة لمكتبي فارغة تمامًا، سعيد استجاب لرغبتي بعد لَأْيٍ، أنتظر كمالًا الذي لم يأتِ وأفكر أن هذه المرة الأولى التي يتأخر فيها العمود الذي يحمل السقف في شركتي، أطلب فنجان القهوة وأنتظر، تمر ساعة وأخرى وكمال لا يستجيب إلى مكالماتي، يرن هاتفي.

- خالد باشا، كيف حالك؟

- لماذا لم تعطهم المفتاح يا حسن؟!

- أعطيتك شيئًا آخر يا باشا منذ قرن مضى!

- ما هو؟

- مدحت سليمان.. صورته وهو يستلم التمثال بيديه

- آه، عندما ذبحت الرجل كالخروف!

- استحقها يا باشا.

- ربما.. لكن عليك أن تقنع العالم كله بهذا.

- أي عالم؟!

- افتح اليوتيوب أو فيس بوك يا حسن.

لا يعقل أن!! أتذكر ملامح العمال المرتبكة عندما دخلت، النظرة الفارغة كانت أعمق من كل يوم، ناديت على جميل مهندس الصيانة، اندفعت نحوه وقلت: - أرني الفيديو.

بطريقة آلية، كأنه لا فيديو آخر سواه، أراني الفيديو، على شاشة هاتفه تناولت الخنجر من يد شخص غير ظاهر وذبحت الرجل الجاثي وهو يقول أرجوك لدي أبناء، كانت ظاهرة ومسموعة ومن غير «أنفذ

الأوامر»، الفيديو حقق مشاهدات كبيرة على كل صفحات التواصل الاجتماعي، أصبح وجهي معروفًا للعالم كله!

– حسن، هل تسمعني؟!

– نعم يا باشا.

– قلت لك هؤلاء القوم لا يمزحون. أصبحت القضية الآن قضية رأي عام.

– مهلًا يا خالد بيه، الفيديو الذي معي سيظهر براءتي ويورط مدحت، ذرعت كاميرا في مرآة السيارة تظهر بوضوح الوقعة كاملة، ستكون هذه ورقة ضغط.

– لكنك قتلت شخصًا بريئًا يا حسن!

– ليس بريئًا، هذا الرجل قتل أبي والدليل هو الفيديو الذي بحوزة مدحت زفت، الفيديو الذي معنا سيضغط عليه ليظهر الآخر، وقتلي لقاتل أبي ليست جريمة.

– أنت تتصرف دون الرجوع إليّ وهذا يجعل الأمور أسوأ.

أكبت غضبي.

– لا يوجد أسوأ يا حضرة الضابط، أنت ستخلصني من قضية الآثار أما القتل فقصاص عادل، الأمر بسيط.

– هناك حملة متوجهة للقبض عليك، أرجو ألا تفعل شيء أحمق، لا تنشر الفيديو الذي معك على الملأ حتى لا تصعب الأمور علينا، لو سقط مدحت فلن نحصل على الفيديو الآخر، سيخفيه يا حسن.

قبل أن أنهي المكالمة تتوقف سيارات الشرطة أمام الورشة، عشرات الجنود بأسلحتهم يهبطون منها، لا أظن أن الأمر يستدعي كل هذا الجنون، أنهي المكالمة مع خالد صوفي وأرسل الفيديو إلى آخر شخص وجدت اسمه في آخر الرسائل كخطة ثانوية، أجلس في مكتبي ويتقدم نحوي ضابطان وعشرة عساكر دفعة واحدة.

– حسن سليم؟

– أفندم!

– تفضل معنا.

يتم تقييد يدي مع بعضهما بأصفاد ذهبية كلون التمثال، يسحبني الضابط ويضع أحد العساكر ماسورة البندقية في ظهري، أتقدم كأسير حرب ذليل وسط الأنظار التي طالما هابتني، أعيد ترتيب أوراقي، نشر مدحت الفيديو للضغط علي، إنه يعرف أنني بوابة عبوره الوحيدة إلى كنزه الثمين، الجنة كما يسمونه، إدانتي في قضية القتل يعني هلاكي، هو لن يسمح لأن لديه فيديو آخر يظهر الرجل الذي قتلته يقتل أبي، يساومني على الخروج من القضية في مقابل المفتاح، يبدو أن من أمر بقتل أبي لا يمكن التضحية به أبدًا، لا أستبعد أن يكون مدحت نفسه ويساوم على حياته، طلب مني خالد ألا أنشر الفيديو

الذي بحوزتي؛ فلو تورط مدحت فسيورطني معه أيضًا، منطقه سليم لكني لو تورطت فسأورط مدحت أيضًا بنفس المنطق.. ثم أين كمال؟!

في غرفة وكيل النيابة يجلس شاب ثلاثيني ببدلة رمادية خلف المكتب، يجلس بجانبه من يسجل أقوالي، على مقربة مني المحامي الذي وُكِّل بقضيتي، يسأل وكيل النائب العام ذو الثلاثين عامًا: - هل تنكر أنك الشخص الذي في الفيديو؟

- لا، سيادتكم.

- هل تقر أنك قتلت شوقي محمد سالم عبد المجيد؟

للمرة الأولى أسمع اسمه، للمرة الأولى أشعر أني أزهقت روحًا!

- نعم، أقر.

يغلق الوكيل المحضر، يتم ترحيلي إلى سجن المزرعة لحين عقد جلسة للنطق بالحكم، المحامي يتبعني ويبدي اعتراضه على ما فعلت، أسأله: - من الذي وكلك للدفاع عني؟

- سعيد شاذلي مختار.

بالتأكيد ومن غيره؟! أجده واقفًا بالخارج ينتظر متململًا، يتهلل وجهه عندما يراني، أبتسم له في ود حقيقي، لا يعلم كم كنت بحاجة إلى وجود من يدعمني وإن كنت بارعًا في كبح المشاعر، التاجر الشاطر كما قال أبي هو من يجيد كبح عواطفه، لذا أصبحت مسخًا بلا أي ملامح، عندما يتطلب الأمر. يقترب سعيد فأسأله عن كمال، يهز رأسه: - لم أره منذ تم القبض عليك!

هواجسي القديمة تراودني، كم من المؤسف حقًّا خسارة صديق قديم مثل كمال!

- هل لي أن أطلب منك شيئًا يا سعيد؟

يكافح للوصول إلى صوتي عندما تراكمت ميكروفونات الصحفيين بالخارج، عشرات الأشخاص يتنافسون للظفر بتصريح ممن قتل الإنسانية بدم بارد وأرداها ذبيحة.

- هل أنت نادم؟

نظرت إلى الصحفي الذي ألقى بهذا السؤال، عيناه واسعتان متحفزتان، بشرته سمراء وإصراره مذهل، أنا لست نادمًا حقًّا لو تعلم، بل ما زلت أطمع في المزيد من الدماء، عندما يأس من إجابتي كرر السؤال مرة أخرى، بطريقة ما لم أسمع إلا هذا السؤال، كأني كنت أنتظره أو لعله طُرح على مسمعي آلاف المرات من قبل، القوة التي صاحبتني عبرت بي إلى سيارة الترحيلات، سعيد لم يقترب ولم يعرف طلبي منه، في المرة القادمة سأحرص على أن يقوم بالأمر بالشكل المناسب.

تعبر السيارة التي تحملني بوابة السجن، كبيرة ومتدرجة وصفراء تسر الناظرين، أهبط من السيارة مصفدًا في عسكري ضخم، يتحرك كوتد فولاذي لا يتزعزع، مشيته رتيبة يمكن اللحاق بها بسهولة دون أن تسفح كرامتك، اقتادتني الحملة إلى مكتب المأمور، قامته معتدلة ووجهه مريح، يطلب مني الجلوس

على الكرسي بعد أن يتم فك وثاقي، أجد نفسي وحيدًا وكوبًا من الليمون البارد يوضع أمامي، قبل أن أتناوله أتحسس موضع القيد، خلّف سوارًا أحمر يبث موجة من الألم يمكن التعايش معها، أتناول الكوب المشّبر، أفكر أنهم إما يسخرون مني بطريقة مهينة أو خالد صوفي تدخل بقوة، لحظات ويفتح الباب.

- صديقي العنيد، كيف حالك؟

خالد صوفي بشحمه ولحمه وابتسامته المثيرة للريبة تتدلل من شفتيه، يجلس أمامي ويتأملني كأب معاتب.

- أقنعت المأمور بصعوبة، ولولا العيش والملح ما استجاب لي.

كذبة بيضاء أتجرعها بشربة ليمون أذابت روحي، ينظر إليَّ وتتوتر ملامحه، يهيئ نفسه لقول شيء مريع.

- اسمع يا حسن.. أنت هنا في خطر كبير، لن يقتلوك لكنهم لا يريدون منك سوى لسانك ويمكن أن يحصلوا على المعلومة ويتركوك عجينة بلا ملامح.

يصمت قليلًا، مروحة السقف تصدر أزيزًا مباغتًا كذبابة عملاقة، صار الصمت مزعجًا.

- سأضعك في زنزانة انفرادية بهذا الشكل لن يصل إليك أحد.

زنزانة ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب! أتساءل أحيانًا عن مدى سلطة مباحث الآثار يا باشا!

- ها، ما قولك؟

أجرع ثمالة الليمون وأقول:

- الفيديو الذي أرسلته إليك هل وصل إلى مدحت سليمان؟

يبتلع السؤال، يقول:

- في الوقت المناسب يا حسن.

- أي وقت أنسب من هذا؟!

يسند ظهره للوراء ويشبك كفيه:

- تحلَّ ببعض الصبر يا حسن.

***

حارس السجن اسمه مصطفى، رجل طيب وبشرته طينية، يغلق باب الزنزانة الانفرادية ويرحل، في خلوتي كان لا بد من محاولة تفسير نظرته، دفعني بجدية دون أن يعمد إلى إهانتي، وعندما التقطت أعيننا لاح لي طيف خفي ساخر في بؤبؤيه، سرعان ما توارى خلف تجهمه العميق، من حسبني مصطفى يا ترى، حوت قاتل ولص عتيق أتى ليتريض في غياهب السجن؟ أم مجرد فريسة سهلة وساذجة تلج مربض الأسد؟ أهمُّ بالحركة فأنتبه للمأزق القاتل، الزنزانة ضيقة كاتمة على النفس، الجدران تتقارب ببطء وإصرار، توشك أن تسحقني كقبر يستقبل وافدًا جديدًا، أنفاسي تتسارع وعقلي يغيب، يتسرب إلى

نفسي خوفي القديم كقطرة حبر تتمدد في وعاء ماء، تظهر القطة الصغيرة فأتبعها، في البيت القديم ماسورة صرف تجفف الحديقة إذا غرقت بمياه الري، تدخل قطتي فأسارع إلى التقاطها، أخشى أن يراها أبي، كره أن أقتني قطة، تفسد القطط الصغيرة تربية الرجال، خوفي من أبي دفعني داخل الماسورة، تلوح لي القطة فأمد يدي، أقبض عليها وأهم بالرجوع فأكتشف أني محاصر إلى الأبد في ماسورة الصرف الضيقة كخرم الإبرة، كيف ولجت فيها؟! الفزع يمزق قلبي، تتوتر قبضتي على القطة فتغرس مخالبها في يدي، أصرخ ويخترق صوتي أذني، يحمل خوفي إلى أعماقي فينهشها، أنا مكبل ولا أستطيع الحركة، كل شيء يؤلمني، حتى النفس بدأ ينقطع، أصرخ مرة.. والثانية.. والثالثة تقبض يدٌ على قدمي وتسحبني، أمرق من الماسورة كجنين يمر من رحم الجحيم، كان عمي لطفي يقف مشدوهًا وأبي يسحبني برفق حتى أخرجني، ملامحه غائمة، يحيطني بذراعيه ويمسح على رأسي، بكيت بشدة، بكيت حتى سالت روحي مع دموعي.

نظرت إلى الأعلى، لا شيء ينفذ منه الهواء حتى! آخذُ نفسًا عميقًا كما علمني أبي، أتمهل في إخراجه كما فعل أمامي، ظللت أتنفس بهذه الطريقة إذا شعرت بالخوف من جحر ضيق، قال أبي: – الجحور للفئران يا حسن.. لا تقلق إذا توترت من جحر؛ فأنت لست فأرًا لتتكيف معه.

أشعر بشيء من التحسن، أمد قدمي فتصطدم بباب الزنزانة الفولاذي، بالكاد تتزحزح قليلًا، أقف حتى أفردها بشكل كامل، عندما بدأت أستجمع شتاتي تذكرت أحواض اللبلاب، الذي أتى بي إلى هنا ما حدث بينها أم ما دفن في بطنها؟!

كم مضى من الوقت لا أدري، هنا يمر الوقت ببطء قاتل، لكن دقة على الباب ثم وعاء بلاستيكي يُمد من فرجة في أسفله، في أغواره فاصولياء مطبوخة وأرز مسلوق، من المفترض أن آكل بيديّ المجردتين كما كانت تفعل زوجة عمي لطفي ببقايا طعامنا! يطاردني ضيق التنفس وخبطات قاسية في جدار القلب كأي معقد يخشى الوجود في الأماكن الضيقة، أتبع طريقة أبي في عزف أنفاسي ببطء، أشعر بين فترات الهجوم برغبة في التبول، لا أجد أفضل من الوعاء البلاستيكي لأفرغ مثانتي. بعد مهلة من الوقت جاء أحدهم وأخذ الطعام مرة أخرى، قبل أن يبتعد تهادت إلى أذني سبة حانقة فابتسمت، مهلة أخرى وعاد الصوت ليقول: – لديك ثلاث مرات للخروج إلى الحمام، مرة بعد الاستيقاظ ومرة قبل النوم ومرة أخرى تحددها متى شئت.

في اليوم التالي خرجت من زنزانتي في الصباح إلى دورة المياه، عندما مررت بجانب سجين أربعيني وخط فوديه الشيب، انسلت يده في جيب سترتي ثم انسحبت بخفة، لا شك أن حارسه وحارسي لمحا هذه الحركة، علق في ذهني عيناه الغائرتان وملامحه الصارمة، أُغلقَ باب زنزانتي وفتحت الورقة التي وضعها ذلك الرجل في جيبي.

– هذه المرة استطعت أن أصل إليك بفضل مصطفى، احرص على الذهاب للمرحاض في تمام الرابعة.

يجب أن أفكر قليلًا، بقليل من الحكمة وبعض التركيز تتكشف الأمور. أمام أنفاسي المتلاحقة وكبريائي المسحوقة تتبخر حكمتي وينفرط تركيزي كحبات عقد داخل زنزانتي، هذه المرة أتى الوعاء البلاستيكي يحمل رغيف خبز وحبات فول مهروسة وقطعة من الجبن، يخرج الوعاء بعد فترة كما هو، أمعائي تتقلص، تصدر أصوات محشرجة تشبه أنين قطتي التي حملها لطفي من عنقها وقذفها بالخارج، لم أشتق إليها يومًا ولم أعثر في قلبي على شغف لالتقاط قط جديد، لكن كيف سأعرف الوقت المحدد للقاء صاحب الورقة في هذا القبر؟!

- الساعة الرابعة، هل ستذهب إلى الحمام؟

ينفتح باب الزنزانة، مصطفى يلاقيني بوجهه المحايد، من يطلبني له شبكة كبيرة وعميقة في هذا المكان، من يطلبني يجب أن أخشاه وأحسب له حسابًا، أمر على الطرقة الممتدة بين صفين من القبور المغلقة، الهواء هنا ليس أفضل من الهواء بالداخل، لكن عقلي يتحرر من قيوده ومخاوفه في الأماكن الأوسع. ينتظر مصطفى بالخارج وأدخل إلى الحمام، لا يبدو سيئًا كثيرًا، أمر على دوراته المفتوحة ثم أتوقف أمام الأخيرة المغلقة، يأتي طرق خفيف من الداخل، أفهم الإشارة وأدخل الدورة التي تليها، يأتيني همسه الواضح بنبرة رصينة هادئة: - هنا أفضل، حتى لا يرانا أحد ولو من قبيل الصدفة.

حافة حذائه الطبي تبرز أسفل الحاجز المعدني بيني وبينه، لم أعتد الحديث إلى أحد في وجود الحواجز.

- لن أطيل عليك، لكن معرفتي باستقبال خالد صوفي لك ووضعك في زنزانة انفرادية أثار فضولي وتساؤلي؟ هل يتعمد تحطيمك بهذه القسوة؟!

أصمت لسحب المزيد من الكلمات.

- أظن أن خالدًا أخبرك بقصة العميل الذي خانهم من الداخل، أنا العقيد حسام رشيد وكان خالد مساعدي الرئيسي، اعتمدت عليه أغلب الوقت، وفي اللحظة المناسبة للقبض على الصفقة الأكبر اختفت الصناديق، ليس هذا فحسب، بل تم كشف الكثير من الرسائل على هاتفي تتابع العملية لحظة بلحظة وترسلها إلى أرقام مجهولة، تعب خمسة أعوام انتهى بإقالتي من منصبي ونقلي إلى السجن بتهمة الخيانة.

يصمت قليلًا، أظنه يتجرع مرارة ما يقول.

- هل تعلم مع من كان هاتفي؟ مع خالد صوفي!

- تريد مني أن أفهم أن خالدًا هو من يعمل لدى مافيا الآثار يا حسام بيه!

- ستعرف هذا بنفسك يا حسن، لو فكرت فيما يحدث لك.

هناك أشياء كثيرة تحتاج إلى تفسير، لكني غير قادر على التفكير السليم طوال فترة وجودي في هذا القبر.

- إنهم يخدعونك يا حسن، لا تفصح أبدًا عن مكان أي شيء لخالد صوفي.

- وما الذي تريده مني يا حسام بيه؟

- أنت فرصتي للخروج من هنا، وأنا فرصتك كذلك.

يرفع السيفون فيغمر الماء المرحاض.

- لكن ما الذي يجعلك تظن أنني أثق في كلامك؟

يتوقع ما قلت، يمرر لي من أسفل الحائط المعدني ظرفًا أبيض متوسط الحجم.

يقول:

- لا أملك أي دليل على ذلك ولو كان معي لكنت بالخارج الآن.

أفتح الظرف، يتضعضع صوته.

- أنا أعول عليك لفضحه يا حسن.

في داخل الظرف صورتان، الأولى لفتاة ضاحكة تجلس بين أبويها في متنزه عام، يشبه أبوها الأربعيني الذي وضع في جيبي الورقة، على ظهرها كتب عنوان ما بخط مهترئ، الصورة الأخرى لرجل صارم يخرج من سيارته ناظرًا للكاميرا التي التقطته وعلى ظهرها عنوان آخر بنفس الخط.

- ستخرج من هنا سريعًا يا حسن، هم لن يقتلوك، سيحاولون تحطيمك كما فعلوا بي، أرجوك يجب أن تصمد.

يقترب وقع خطوات رتيب ومحايد، يطرق الباب بخفة، ينفتح الباب الآخر فأفتح بابي وأخرج لمواجهته تمامًا، عيناه الغائرتان كما هما لكن ندبة فوق حاجبه الأيمن أنتبه لها للمرة الأولى، بشرته شاحبة ولحيته نابتة قليلًا، ينظر إلى مصطفى مستمهلًا ويقول: - إذا كنت تريد ضمانة فإن زوجتي وابنتي بيديك ولا أملك ضمانة أكبر من هذه، في الصورة الأخرى صديق قديم من أمن الدولة تقاعد لظروف صحية لن تجد من تثق به أكثر منه.

يضغط على كتفي:

- هذا الشخص هو الوحيد القادر على تخليصك من هذه المعضلة، اذهب إليه وقدم له ما تعرف ونفذ أي شيء يطلبه يا حسن.

يتململ مصطفى فيتحرك حسام رشيد، يشير إليَّ مصطفى أن أنتظر قليلًا حتى يخرج، أتظاهر بغسل يدي، قبل أن يخرج حسام رشيد يطالعني بنظرة مشجعة وحزينة.

يُمد إليّ الوعاء البلاستيكي ويُسحب ثلاث مرات فأعرف أنه مضى يوم، منذ لقائي بحسام رشيد مضى يوم آخر، يأتي الحارس ويفتح الباب، يقول: - وقت الزيارة.

خيار جديد أكتشفه الآن بعد مضي ثلاثة أيام وأنا محتجز مع كل مخاوفي، اليوم المنصرم تذكرت نور، ملامحها الجميلة أربكت حساباتي، عندما جاءتني في الورشة تطلب المال عرفتها من أول نظرة، أقنعت نفسي أنها ليست نور، لم أكن رأيتها منذ كانت طفلة فكيف لي أن أتأكد، لكن هاجسًا دفينًا يطفو كبقعة

زيت فوق إنكاري ويكسره، وعندما رأيتها في منامي كانت شيئًا قبيحًا جدًّا بلا معالم يطاردني، لم أعتد الكوابيس الغامضة والمليئة بالخوف، أنا لا أخاف ولا أشعر بالندم، نصفي بشر ونصفي حجر، كما قال أبي، لكن الزنزانة الضيقة فتحت نافذة من الجحيم على أعماقي المنصهرة، أتبع مصطفى إلى مكان الزيارة، أخرج من المبنى الذي احتُجِزتُ فيه وأتنفس الأكسجين من الأشجار مباشرة، الشمس دافئة وحنونة أكثر من أي وقت مضى، للأرائك المنصوبة حول طاولات خشبية مشهد رائع يدغدغ العواطف، عرفت الجالس أمامي من ظهره المنتصب، وضعت يدي على كتفه فوقف منتفضًا، سعيد ينظر إليَّ ملتاعًا.

– يا إلهي وجهك شاحب كالموتى.

أبتسم.

– ألا تأكل؟!

– بالقدر الذي يبقيني على قيد الحياة.

كان القلق يستبد به، أظن أنني خذلته كابن عم قوي وسند.

– لا تخش شيئًا يا سعيد، سأخرج قريبًا جدًّا.

لم تتبدل نظرته التائهة الملتاعة.

– لكنك مدانٌ في قضية قتل!

– ليست قتلًا.. قصاص يا سعيد وهناك دليل يثبت البراءة، لكن لا بأس أريدك في شيء آخر.

ينتبه، أضع أمامه صورة الفتاة الصغيرة مع والديها، يتأملها باستغراب.

– على ظهر الصورة هناك عنوان، اذهب إليه وتأكد أن هذه أسرة العقيد حسام رشيد.

– هل هذا له علاقة ببراءتك؟

– ليس بالتحديد، لكن له علاقة بي بشكل أو بآخر.

أتجاهل نظرته الغائبة.

– اسمع يا سعيد، أنت لن تطلب البطاقة الشخصية، لكن للفتاة مدرسة، ستذهب إليها وتعرف بياناتها الكاملة من هناك، هل يسهل عليك الأمر.

يومئ برأسه، يقول:

– سأعثر على طريقة ما.

– أعرف أنك ستفعل، لا تنسَ أن تتأكد من الأم هي الأخرى.

بعد أن أبتسم له سعيدًا بوجوده أسأل:

– كيف حال نور وفريدة هانم؟

– كانت أمي ترغب في زيارتك لكني أشفقت عليها من الإرهاق.

- أصبحت أفضل الآن، أليس كذلك؟

- بلى بالتأكيد، وهذا بفضلك.

- لا تكن أحمق يا سعيد.

أردت أن أسمع شيئًا عن نور، هل طلبت أن تزورني، هل ما زالت تكرهني؟! في خلوتي كانت لدي الفرصة لأفتقد الكثير من الأشياء والكثير من الأشخاص.

- ألم يظهر كمال بعد؟

يهز سعيد رأسه نفيًا، أردت أن أسأله عن سيف، ربما لا يعرف سعيد أن لي ابنًا، عندما لا أجد كلامًا لقوله ينهض سعيد ويعدني بالرجوع في أقرب وقت.

عندما حان موعد الزيارة الثانية بعد يومين كانت عظامي تئن وحيويتي تنزف على أرضية الزنزانة، اليوم أشعر بما يشعر به لطفي ذو الظهر المقوس، حقيقةً لا مجازًا، يأخذني الحارس لأتذوق الحياة بنَهَمٍ خارج الجدران الموحشة، هذه المرة لا أعثر على سعيد، شخص آخر بدا مترفًا بشكل صارخ مقارنة بالمساجين وسجَّانيهم وزائريهم، أجلس أمامه وأتوقع الكثير مما سيقال: - مدحت بيه يرسل إليك سلامه.

أمرد وبشرته ناعمة كعارضة أزياء.

- انقل إليه سلامي.

يبتسم.

- ستخرج في غضون يومين بعد أن نقدم الفيديو الذي يُظهر قتل أبيك للنائب العام وتحصل على عشرة ملايين دولار وتعود لحياتك الطبيعية إذا وفيت بوعدك لنا.

لست في مزاج يسمح للنقاش، أنا هنا من أجل ارتشاف جرعة حياة مليئة بالأشجار والسماء والأرض، أنا هنا لأتأكد من كوني حيًا.

- مدحت يعرف ما أريد، أخبره أن يأتي إليّ بقاتل أبي وسيحصل على ما يريد.

بدلته بيضاء ويده كذلك، يخرج صورة من جيب سترته ويضعها أمامي كما فعلت مع سعيد منذ يومين.

- هذا سيف وهو يدخل إلى حضانته يا سيد حسن أظن أنك تشتاق إليه، وهو أيضًا بالتأكيد.

يصمت قليلًا.

- ليحصل كل منا على ما يريد قبل أن نتردى إلى مستويات أقذر مما تتصور.

لا أعتقد أن قطعة الهلام التي تجلس أمامي قادرة على التهديد.

- انقل ما قلته لك إلى سيدك وانظر ما يرى.

أنهض لأجرب متعة المشي، ينهض بدوره ويقول:

– لِمَ ترهق نفسك بكل هذه الحماقات يا حسن؟! لا أحد يهتم بما تهتم من تاريخ وتراث وغيره، المال وحده هو ما يجعلك حصينًا، المال وحده هو ما يستحق التعب.

أتأمل العصافير المتصارعة على غصن الشجرة، لماذا لم أربِّ عصفورة بدلًا من القطة الخائنة، ألتفت إلى المفاوض الجديد: – انقل ما قلته إلى سيدك، وإن صدق معي فسأصدق معه، من قتل أبي سأقتله ما دام فيّ الرمق.

– ومن يضمن إذا أخذت ثأرك أن توافق على إعطائنا المفتاح؟ ألن تقول إنه تاريخ.

ذلَّ بلسانه وأصبحت ظنوني في محلها، إذًا هو آثار وحضارة وتاريخ آخر ينتظر السطو عليه، عندما أخرج من هنا سيتغير مسار بحثي عمن قتل والدي إلى الجنة التي يريدها، أترك المفاوض الجديد يهش الذباب وحيدًا على المقعد الخشبي، حتى الذباب الآن له دندنة فاتنة، من الزيارة إلى الحمام ويتبعني مصطفى كظلي، عندما أصل إلى الدورة الأخيرة أجد بابها مغلقًا وطرقة خافتة من الداخل، أفهم الإشارة وأجلس على مرحاضي في الكابينة المجاورة، يقول برصانته المحببة: – سيرسلون من يذلك ويحطم كبرياءك، ولديهم وسائل عديدة في ذلك.

– أتساءل! كيف تعرف هذه الأمور؟

– لن تتفاجأ إذا قلت لك إنهم من يسربون إليّ هذه المعلومات لأحملها إليك وتبدأ مضاعفات الحرب النفسية، لكن نظرتي في الأشخاص لا تخطئ، أنت لن تنهار يا حسن وما يفعلون يزيدك رغبة في الانتقام.

كلامه مقنع لكني لا أثق في أحد، إذا كانت هذه مكيدة فهي من أروع المكائد، يدفع إليّ بشفرة موسي.

– يمكن إخفاؤها في باطن اليد وستساعد بالتأكيد في المعركة.

يخرج من الحمام، وأنتظر قليلًا ثم يصحبني مصطفى إلى الزنزانة، الآن يجتمع عليّ الماضي الأسود والحاضر الكئيب، لماذا لم يسعَ خالد صوفي لإخراجي، لماذا لم يضغط على مدحت حتى يخرج الفيديو الآخر؟ هل هو يقوم بدوره في الكماشة التي ينصبونها لي، هل هي ثنائية الأبعاد بين مدحت وخالد أم ثلاثية لتشمل حسام رشيد؟ كان أبي يقول لا تثق في أحد، وحدها البضاعة الجيدة يمكن الثقة بها، أتأمل الشفرة الحادة وتتسارع نبضاتي كأني أخرج من حلبة سباق، أود أن أصرخ لكن قبضة أبي لن تمتد إليَّ لتخرجني، الصبر من عندك يا رب، أنظم أنفاسي، يمر الوقت كما هو ثقيلًا وقاسيًا كالصخر، يمد الحارس الوعاء البلاستيكي الثالث، الآن أدرك أن المساء حل، بعد قليل سيطلب الحارس مني الخروج للحمام قبل النوم كالعادة، وعندما خرجت وتحركت قليلًا تحركت أفكاري، لو كان حسام يقول الحقيقة فلن يستطيعوا الوصول إليَّ في زنزانتي، يحتاجون مكانًا سهل الوصول إليه، أدخل إلى الحمام وأتأمل تصميمه بعناية، الحمامات قريبة من بعضها ويمكن أن يجتمع العديد من المساجين في حمام واحد، يقطعون ممرًا صغيرًا ويصلون إلى حمامي، حارس واحد يسمى مصطفى لن يستطيع التصدي لهم.

– أين تذهبون؟

أنظر خلفي، قبل أن يتحرك مصطفى تم تكبيله بذارعين كبيرتين، أربعة أشخاص يتقدمون نحوي بثبات قاس، في وقت آخر كنت لأستطيع المقاومة وربما أتغلب عليهم بقليل من التوفيق، أما الآن فأنا واهن ومرهق ومفاصلي تئن من طريقة الجلوس في زنزانة لا تقبل أن أمدد رجلي إلا واقفًا، أخرج الموس وأتراجع للخلف، أسدد ضربة إلى الأقرب إلي وتسيل دماؤه، لكن الموس يستقر مكانه ولا يغادر الذراع الذي علق بها، أسدد لكمات فاترة للهواء ولا تصل إليهم، أظل أتراجع ويتقدمون نحوي، أنا حسن سليم يا أولاد الكلب، أسدد قبضة والثانية، تدور بي الأرض، يتسارع نبض قلبي وأسمع طنينًا في أذني وأسقط.

عندما أفقت وجدت نفسي في المستشفى، راقدًا على سرير وثير وساقاي ممددتان، لم أكن أنام في زنزانتي إلا منكمشًا في مساحة متر مربع حيث حدَّت الجدران من حركة جسمي الطبيعية، محاليل طبية معلقة وتفرغ سوائلها في جسدي، لا أشعر أني أتألم لكني واهن وبحاجة ملحة للرقاد، تفحصت رأسي، لا ضمادات ولا جروح ناتجة عن معركة، يدي وجسدي كذلك، تحسست كل شيء ولم أجد آثار سحجات أو كدمات، أنهض جالسًا وأتساءل عما حدث، في الركن المظلم من الغرفة يخرج خالد صوفي من العدم: - الحمد لله على سلامتك.

يبتسم ويصافحني:

- لو لم أخرج من هذه المهزلة في غضون يومين سأنشر الفيديو على الملأ وليذهب مدحت هذا إلى الجحيم.

ابتسامته تزداد بشاعة، يخرج هاتفه ويقول:

- انظر.

أنظر فأجد الرجل الذي قتلته يقتل أبي، شعرت بالغضب يقضم كرامتي، رغم الراحة التي غمرتني إلا أن وجه أبي كان ظاهرًا وهو يُذبح أمام الملايين من البشر، سيكون بكائي مريحًا الآن لولا وجود خالد.

- أصبحت بطلًا شعبيًا، والكثير يشيد بما فعلت من أجل والدك.

تعليقات كثيرة بالآلاف تصفني بالرجل والبطل وغيرها من الصفات، ثم وقعت عيني على ميعاد نشر الفيديو.

- منذ متى وأنا هنا؟ وما الذي حدث لي في السجن؟

- لا شيء سوى هبوط حاد في الدورة الدموية وكدت تموت لولا أن تم إسعافك قبل أن يقضي عليك خصومك، ومن وقتها وطوال ثلاثة أيام أنت نائم.

ماذا؟!

- 11 -

فعلت هند كما تفعل دائمًا، أفضفض لها وأخرج الكثير من الخوف واليأس والقلق، تمحو كل هذا الأذى بإنصاتها وصوتها الحنون ونصائحها العذبة، قبل أن أنهي المكالمة أتمنى لها حياة سعيدة وأقول على سبيل الدعابة أنني أحسد سعيدًا على الاستئثار بقلبك وحده، وأغلق المكالمة على صوت بهجتها، وعندما أخلد إلى فراشي تأتي رسالة من وائل، رغم غضبي أقرأها، كلمتان لا أكثر: - أنا آسف.

شعرت بسرور جارف، أحدهم على الأقل يهتم بمشاعري، كتبت: - على ماذا؟

- على تسرعي وغضبي، أنت ضحية يا نور، لكن أنا أيضًا معذور.

تمهلت قليلًا تطلعت إليه يكتب الآن أعلى الشاشة وانتظرت مبهورة النفس.

- هذه الأشياء تقتلنا نحن الرجال، لكنه سيدفع الثمن.

- أرجوك.. دعنا من الماضي.

- أنت تعذبتِ كثيرًا بسبب هذا الوغد، ثم بكل وقاحة يدخل البيت الذي نجسه بجرمه بهذا الشكل!

كنت ممتنة حقًّا لما أقرأ، لم أكن أبكي لكن قطرة سقطت من عيني على الشاشة، أزلتها.

- نور، أنا أحبك ولا يعيبك شيء.

لم أنم في حياتي ليلة أسعد من هذه، حلمت بأشياء جميلة وألوانها زاهية، في الصباح عندما استيقظت كنت مشرقة أكثر من أي وقت مضى، لم أستطع تذكر تفاصيل أحلامي لكن أثرها الجميل علق في نفسي كزهرة فواحة، أكلت بطريقة شرهة حتى لاحظت أمي وابتسمت، ابتسمت لها بدوري، وسرى بيننا تواطؤ جميل نفهم معناه ولا نعبر عنه سوى بإيماءات مازحة، كان سعيد قد خرج في جولة، ستبدأ بهند وتنتهي بها، اهتز هاتفي على صوت الإشعار، نظرت في الشاشة وفوجئت بما أرى، وضعت يدي على فمي مصعوقة ومددت الهاتف لأمي لترى، شهقت هي الأخرى وألقت بالهاتف على المائدة، كنت في حالة صدمة، رؤية الدماء أثارت معدتي، انعدمت شهيتي وتصاعدت عصارتي إلى حلقي، عدوت نحو المرحاض وأفرغت ما بجوفي، عدت إلى أمي ووجدتها مشدوهة، حسن سليم يذبح رجلًا يتوسل إليه بأبنائه بلا أدنى رحمة، هذا المخلوق عصيٌّ على الفهم حقًّا! ارتداد الفيديو عليَّ يأتيني بذكريات عسيرة، يده التي تقبض على نحري بين أحواض اللبلاب ونَفَسي الذي يتوقف، صوتي ينقطع وأغيب تمامًا عن الوعي.

- اتصلي بسعيد.

ألتقط الهاتف وأتحدث إليه.

- ألو، سعيد أين أنت؟

في دقائق معدودة كأنه كان أسفل العمارة يدخل سعيد الشقة مرتبكًا، يرى الفيديو ويتصل بحسن، يرن هاتفه مرارًا ثم يتم غلقه، وأنا أترقب همهماته كالمسوس، أطالع الإشعار الآخر على تلجرام، رسالة من حسن منذ عشر دقائق.

- إذا لم أخرج في خلال أسبوعين، انشري هذا الفيديو على الملأ دون أن تظهري هويتك. نور، لا تخبري أحدًا.

بين نظراتي الزائغة إلى أمي وسعيد الذي يحاول الاتصال مرة أخرى انتظرت الفيديو حتى أصبح جاهزًا، فتحت الفيديو، وجه لرجل رأيته مرة على شاشة التلفزيون ومعه حراس صارمون، الأصوات غير واضحة، لكن حسن يشاهد شيئًا على حاسوب مسطح، يغضب ويطلب سكينًا من أحد الحراس، قبل أن يحصل عليها يحصل الرجل الآخر على تمثال فرعوني يضعه في سيارته ويسيل الدم أنهارًا، أغمض عيني، صدري يعلو ويهبط، لم أفهم شيئًا، لكن حسن متورط في أمر كبير لا شك! وبالمقارنة بين الفيديوهين هناك حقائق غائبة، ينتفض سعيد كالملدوغ: - ما حدث في الفيديو له علاقة بقتل عمي، يجب أن أذهب إلى الورشة لأستطلع الأمر.

تودعه أمي بنظرات ملتاعة، وأنزوي أنا على سري الجديد لا أعرف كيف أتصرف، هذه المرة يجب أن أفكر قبل أن أخبر أي أحد حتى هند نفسها، تقول أمي: - الشؤم لا يفارق هذه العائلة.

يبدو أنها تتذكر أبي وأخي وكل موتانا، تتذكر الحال التي آلت إليها معايشنا، لا شك أنها حزينة من أجل حسن.

يُطرق باب الشقة، أفتح وأتفاجأ بوائل، يجلس إلى أمي دون أن ينبس بكلمة، ملامحه تقول الكثير من كلمات السرور والتشفي، أنزعج من موقفه رغم تعاطفي معه، أتعاطف قليلًا مع حسن، لا يبدو الوضع على ما هو عليه فعلًا، أحدهم سرب الحقيقة مجتزأة وموجهة، أعود من شرودي على حديث وائل: - الفيديو ركب الترينذ.

يتأمل نظراتي، يبحث عن بادرة إشفاق على حسن، أكره طريقته في التعامل معي، يشكك في ولائي له، يخلط بين الأمور بشكل سيئ، يطلب مني أن أشغل التلفزيون.

- لن تجد شيئًا أفضل مما في مواقع التواصل الاجتماعي.

- هذه المجزرة ستحتل النشرات الإخبارية والبرامج الحوارية، إنها جريمة القرن.

قبل أن ينفلت زمامي تحدجه أمي بنظرة نارية، نظرة كرهتها طوال حياتي إلا أنها بدت محببة وأثلجت صدري.

- ليس لدينا مجرمون في أسرتنا يا وائل.

يرتبك.

- أعتذر يا هانم.

ينظر إليَّ نظرة ذات مغزى، يقول:

- انجرفت مع التيار.

يصمت وأجد نفسي أندفع إلى غرفتي وأشاهد الفيديو مرة أخرى، تتقاذفني حيرتي كشيطان مارد، ما الذي وضعتني فيه يا حسن؟! عندما يأتيني صوت سعيد من الخارج أنساق إليه مدفوعة بحيرتي.

- تم القبض عليه وسيتم تحويله إلى النيابة، يجب أن أجد محاميًا ليترافع عنه.

يدخل سعيد إلى غرفته، يحضر حقيبته، وقبل أن يهم بالخروج شعرت برغبة في الذهاب معه، لن يفسر لي الفيديو إلا حسن، لكن نظرة وائل النافذة أربكتني، قلت: - يمكن أن يوصلك وائل بسيارته.

عندما خرج وائل مع سعيد، استطعت أن أتمدد في المكان بحرية أكبر، أفكر وأتعاطف وتتشكل ملامحي مع تيار القلق الذي بداخلي دون نظرات فاحصة تعريني، لماذا أنا يا حسن؟!

يظل سعيد بالخارج ولا يأتي إلا في المساء، يبدو الإرهاق على وجهه ومشيته وجلسته بتخاذل على كرسي المائدة، يتبعه وائل، أجلس إليه متلهفة دون أن أعبأ بنظرات وائل المتفحصة، يقول سعيد إن حسنًا اعترف على نفسه ولم يسمح للمحامي بأن يقول شيئًا، أخبر وكيل النيابة أنه قتله ثأرًا لأبيه، وعندما طلب منه الدليل على صحة ادعائه قال إنه سيظهر في الأيام القادمة، سرت رعشة في جسدي، الفيديو الذي معي يشكل دليلًا ما، هل أكشفه لهم الآن؟

- تم تحويله إلى السجن إلى أن يتم تحديد موعد جلسة النطق بالحكم.

يقول وائل بتشفٍ صريح:

- لو لم يكن هناك دليل فسيُحكم عليه بالإعدام.

هل هي عدالة السماء أم مكيدة ما؟ لكن حسنًا سلبني حياتي وأصبحت أسيرة له فترة سجنه، أنطوي على نفسي في غرفتي أشاهد الفيديو مرارًا وأقرأ الرسالة التي سبقته، كل يوم يمر من العشرة أيام أشاهد الفيديو وأقرأ الرسالة وأنتظر علامة ما، تناولت صفحات الفيسبوك الفيديو وتفاعل المتابعين بصورة طبيعية وفجة، الكل يطالب بشنقه، أقرأ التعليقات ومشاعري متناقضة، لم أعد أفهم حقيقة كرهي لحسن، إنه ضحية الآن لا شك، لكنه لم يكن ضحية بالأمس، أقرأ تعليق يتهمه بالسادية والجنون ويطالب بحرقه، كلماته استفزتني، رددت عليه في تعليق يحمل اسمه: - أنت لم تكن هناك ولم تعرف دوافعه أو الصورة الكاملة.

ينال تعليقي عشرات التفاعلات الساخرة في دقيقة واحدة، الكل يرسل وجهًا غاضبًا، علق على تعليقي متابعون غاضبون، اتُهمت بصفات مثل الحماقة والسذاجة، وآخرون يستشهدون بآية القصاص، حتى دخل متحمس ما وقال إن مكاني هو المطبخ، نظرت إلى كتب التاريخ من حولي وابتسمت، أدركت أن لا رغبة لدي في الجدال، وائل رشيد ثم صورته يرتدي البالطو الأبيض ويقف أمام رف الدواء ظهر فجأة بتعليق أغضبني.

- وما هي دوافع قاتل وصورته الكاملة؟

أرسلت له رسالة على حسابه الخاص:

- إنه مظلوم، ولم تكن بحاجة للتعليق في صفحة عامة على تعليقي.

- لماذا تدافعين عنه بعد كل ما سببه لكِ؟ وهل تعرفين دوافعه حقًّا عندما اغتصبك؟!

صعد دم يحترق إلى رأسي.

- أنت تكرهه وتصر على الخلط بين الأمور.

- ولِمَ لا أكرهه وهو من اغتصب خطيبتي؟! ولِمَ تصر خطيبتي على الدفاع عنه؟!

- أنا لا أدافع عنه، أنا أدافع عن مبدأ.

- تحترق المبادئ، لا أريدك أن تدافعي عنه أبدًا يا نور هل تفهمين!

تتوقف المراسلة وغضبي لا يتوقف، لا أريد أن أظهر كمتعاطفة مع حسن، وائل لا يفهم أن حياته أصبحت بين يدي، ولو فهم سيحثني على الانتقام بالتأكيد، توشك المهلة أن تنقضي ويذهب سعيد لزيارته، أتى وائل عندما عرف موعد الزيارة، شعرت أنه يحرسني حتى لا أذهب لزيارته، لا أدري لماذا يفكر بهذا الشكل، أنا لن أذهب ولا يهمني الأمر سوى الرسالة الغريبة التي أرسلها حسن قبل القبض عليه، عندما عاد سعيد كان حزينًا جدًّا.

- حسن بدا هزيلًا وشاحبًا إلى حد كبير، شعرت أنه شخص آخر.

كنت أحاول تخيل قطعة الجليد وهي تنصهر داخل الزنزانة، أخيرًا تتحطم كبرياؤه وغروره ويصبح مجرد شخص عادي قابل للانهيار وليس إلهًا كما يظن، يؤنبني ضميري على شماتتي، وعندما أخلو لنفسي أحاول أن أجمع بين مشاعر التعاطف والنفور القديم فأفشل، أجد نفسي محايدة تمامًا لا يعنيني الأمر بقدر ما يعني لسعيد أو لأمي، لا أسعى للانتقام كما يتعطش له وائل، وللمرة الأولى تصبح حادثة الأمس مجرد ذكرى سيئة وصفحة يجب أن تُقلب إلى الأبد، وأنا أترقب الفترة التي حددها حسن في رسالته، وعندما كنت أقرأ الرسالة للمرة المليون أتى إشعار جديد، ظننت أنه وائل يرغب في استفزازي مرة أخرى كعادته هذه الأيام، لكن المفاجأة ألجمتني، فيديو جديد ينتشر على الصفحات كلها كالفيديو القديم تمامًا، إلا أن المذبوح هذه المرة هو عمي نفسه والذي يذبحه الرجل الذي قتله حسن، كنت مصعوقة وهرولت إلى أمي صارخة فقابلتني منتفضة كالمحمومة، وضعت الهاتف أمام عينيها، راقبت الذهول والصدمة وهما يسحقان ملامحها، جلسنا على فراشي مكدودتين، ظلت أمي صامتة لفترة ثم قالت: - هل تعرفين أنه كان يرغب في الزواج مني بعد موت أبيكِ لكني رفضت.

ثم نهضت وخرجت من غرفتي دون أن أعرف لِمَ رفضَتْ أو لِمَ تقول هذا الآن؟ لعلها لحظة وداع أخيرة وحزينة، لكن سعيدًا كان غاضبًا لأقصى حد، كان يشعر بالإهانة عندما انتشر الفيديو بهذا الشكل، يضع المقطعين بجوار بعضهما ويشاهدهما في نفس الوقت، التعليقات تشيد بما فعله حسن وتحول غضب

الأمس إلى نشوة غريبة بتطبيق العدالة كما يصفون، جلست جانبه وربت على كتفه، ينظر إلي ويقول قتله حسن بنفس الطريقة تمامًا، يقولها مفتخرًا ثم لا يلبث أن يتضايق، وائل كان له رأي آخر: - هذه غوغاء! وعلى القانون أن يأخذ مجراه.

يفلت لسانه بها دون أن ينتبه سعيد، أتدخل قبل أن يحدث ما لا تحمد عقباه، أنظر إليه لائمة وأقول لسعيد الذاهل عن واقعنا: - هل سيخرج الآن؟

- بكفالة، لكنه سيخرج.

وعندما خرج حسن كان شخصًا آخر، ازداد نحولًا وسرى خطان أبيضان في شعره كما وصفه سعيد، وعندما رأيته شعرت أنه قضى عشرة أعوام وليست أيامًا، علمت أيضًا من سعيد أنه طلق زوجته لأسباب ربما يكون لها علاقة بما يحدث له، وللمرة الأولى ولدهشتي أشعر بالأسى من أجل حسن! كل هذا دفعني لأن أبعث له برسالة، كدت أن أقول كيف حالك أو حمدًا لله على سلامتك، لكن يدي تخشبت وانحلت عقدتها عندما كتبت: - الفيديو الذي أرسلته، ما الذي يعنيه؟

- نور، كيف حالك؟

شعرت بالخجل، كتبت الحمد لله، أردت أن أتطرق إلى سجنه كتعويض عن عدم سؤالي، لكنه كتب: - لا عليكِ، أرسلي الفيديو مرة أخرى وانسي أمره تمامًا.

يا للوقاحة!

- هل هذا استغلال ما؟!

- لا لم أقصد، لكني أقدر العناء الذي كلفتك به.

- ما الذي يوجد في الفيديو يا حسن؟

- لا شيء.

- لا شيء! اسمع، لن أرسل أي فيديوهات لو لم تخبرني ما الذي ورطتني فيه.

- نور، أنتِ لم تتورطي في شيء.

- كنت سأتورط، أليس كذلك؟ يجب أن أعرف، أنا لست دميتك التي تحركها كيفما تشاء.

بعد فترة صمت يكتب أنت عنيدة كعادتك، يسري تيار كهربي في جسدي، يكتب: - ما الذي تريدين معرفته؟

- من هذا الرجل؟ ولماذا يحمل تمثالًا من عهد الأسرات القديمة كما يبدو لي؟

- مهلًا مهلًا، تمثال من ماذا؟

- عهد الأسرات القديمة! ألا تعرف الأسرات الفرعونية؟ ألم تدرسها في ابتدائي؟!

ثم شعرت بوخزة قديمة.

– أنا لا أعرف شيئًا يا نور، لكن أخبريني كيف تعرفين أنه من عهد الأسرات، أعني أنا أعرف أنك تخرجتِ في كلية آثار، لكن هل استعنت بأحد أم أنك تعرفين بنفسك.

يا للعجب.

– هذا سهل، طبيعة العمل وطريقة التشكيل لها بصمة معينة تشبه الكثير -رغم ندرة الآثار لهذا العهد- من النقوش والصور التي تملأ الكتب.

بعد فترة يكتب:

– نور، لو أردت أن تعرفي سرًا كبيرًا عن هذه الحقب سآتي وأحتسي معك فنجان قهوة ما رأيك.

– لا.. لا أريد.

– إذًا انتظريني الليلة.

– قلت لا أريد.

لكنه ينسحب دون أن يقرأ رسالتي متعمدًا لا شك، يا له من سمج!

- 12 -

أشق الطريق المؤدي إلى عائلتي ببطء وتمهل كأني ألين قدمي على السير كموتور سيارة قديمة يحتاج لعمرة، نسمة رقيقة تداعب مسامي وشعاع ذهبي ينفذ إلى روحي، على حجر ناتئ من قبر أبي جلست وتأملت الجدران الأخرى التي ثقبت وخرجت محتوياتها، كمال نبش القبور وسرق تماثيلها، رفعت يدي ونفضت عني كافة همومي، دعوت لأبي وجدي وجدتي، نظرت إلى قبر عمي شاذلي بثقة كما لم أفعل من قبل، ابتسمت وأنا أدعو لشهد، فاضت عيناي وخذلتني صرامتي عندما شعرت بملمس يد أمي وهي تقبض على يدي، تقول: - لا تحزن.

لفظت أنفاسها الأخيرة بجانبي في سيارة الإسعاف وعلى وجهها ابتسامة، بطريقة ما أرادت أن تزيح عني هذا العبء، لكني ظللت أحمله وسأفعل إلى الأبد، أنا من قتل أمي وأختي بحادث سير ثم ذبحت أبي دون أن يعرف السبب.

- توقعت أن أجدك هنا، لكني لم أتوقع أن تدس التماثيل في قبور عائلتك.

انتظرت حتى تأكدت من جفاف عيوني، قمت وواجهت خالدًا مباشرة، كيف عرف بخوفي من الأماكن الضيقة؟ لم أخبر أحدًا في حياتي ولم يظهر خوفي القديم أمام أي كائن حتى زوجتي السابقة.

- لهذا لم يكتشفها أحد يا باشا.

- كنت أتوقع أن يقتلوا صديقك بعد أن خيب آمالهم في المفتاح، التماثيل لا تعني لهم سوى عينة فحسب.

لن يقتلوه لأن سلمى تريد إذلالي، تزوجته وجعلت منه رجلًا، إشارة بليغة وضربة قاسمة للصراع الناشب بيني وبينها، أنا لم أصارعها كما تظن، لكنها لا تستطيع العيش من غير حرب.

- من النادر أن تعثر على من تثق به هذه الأيام.

تربكه مقولتي، ارتعاشة بسيطة في شفته العليا وهروب عينيه يؤكدان تلقيه الرسالة.

- لدي عرض لك يا حسن.

يصمت ويدلك وجهه بقوة.

- الأجهزة لن تتحرك من أجل إشاعات، فشل العمليات السابقة وضعني في موقف حرج، من السهل أن أطلب منك المفتاح ونذهب للوزارة ثم نأتي بخبير ما ونقوم بهذا الفتح معًا، لكنّ كلينا يرفض هذه الطريقة، أنت تريد من قتل أباك أولًا وأنا أريد الكيان الضخم الذي ينهب ثرواتنا.

يضع يده في جيب بنطاله يتحرك خطوتين إلى الخلف ويستند على حافة القبر.

- فرصتنا كبيرة لو دخل كل منا رأس الآخر، أن نثق في بعضنا، أنا أثق بك يا حسن، هل تثق بي؟

خطبة مؤثرة، وحركاته مقبولة لا تخرج إلا عن ممثل قدير.

– من هو حسام رشيد؟

يتفاجأ، يقول إنه الخلية النائمة، ساعد على تهريب الآثار وتم القبض عليه وسجنه في المزرعة.

– لا أحد فوق القانون يا حسن، لكن أخبرني هل كان له يد في محاولة الاعتداء عليك؟

– لا أظن يا باشا.

– كيف عرفته إذًا؟

– أحاول أن أعرف الكثير عن خصومي.

نخرج من المقابر وقبل أن يقود خالد سيارته ينظر إليَّ، يقول: – هل تثق بي يا حسن؟

– بالتأكيد يا باشا.

أتأمل المعلومات التي جلبها سعيد قبل أن يرحل هو الآخر غضبًا لما فعلته بأخته، الصورة ليست وهمية، حسام رشيد تم القبض عليه بتهمة الخيانة، زوجته وابنته تعيشان في العبور الجديدة، راجعت ملفها الشخصي من المدرسة، رأيتها بنفسي عندما خرجت وركبت في السيارة التي قادتها أمها، هذه الضمانة الأولى، لن يضع بين يدي أسرته ويخاطر بخداعي، أخرج الصورة الثانية لضابط الأمن الوطني المستقيل، أقرأ العنوان وأحدد مكانه جيدًا، لست مستعدًا للقائه الآن، لا أستطيع أن أذهب إليه وأنا لا أدري شيئًا عنه، أقود سيارتي إلى عنوان آخر، كنت أتحرق لرؤية كمال صديقي وأنظر في عينيه وأسأله لماذا خانني، كنت مشتاقًا أيضًا لسيف، أضحك عندما أتخيل كمال وهو يلاعب سيفًا كزوج أمه الحنون، كان يراه كثيرًا معي ويعرف أنه أعز أصدقائي، ربما يسهل ذلك طريق كمال في غزو قلب سيف، لكن هل غزا قلب سلمى؟

في المرأب الضخم أدس سيارتي، أتأمل الحديقة الواسعة وأمر على الطريق المرصوف بالحجر الفرعوني، في أحد البيوت الزجاجية تجلس حماتي السابقة، أتجنب لقاءها، لست بحاجة لتجشم عناء كاذب وثقيل، تنهض عندما تراني وتقبل نحوي، لا أظن أنها اشتاقت إليّ، تضع يدها فوق عينيها تحتمي من شعاع الشمس الواهن، عيناها أكثر حساسية للضوء من ذي قبل، ترتدي بنطلون أسود وقميصًا ورديًا تتدلى عليه ضفيرة أنهكتها الأصباغ والأعوام.

– حسن! متى خرجت من السجن؟!

– أهلًا يا هانم.

أبتسم في هدوء طبيعي:

– ليس منذ فترة طويلة.

– لم أكن أعرف أنك تقدر على القتل بهذه الطريقة؟!

– هل أعجبك الفيديو يا هانم؟

- لا تسخر مني يا ولد، أردت أن أقول إن ما فعلته ليس سيئًا.

تبدو صادقة ويا للعجب، هل حنت إليَّ بعد أن طلقت ابنتها، أراهن أنها صُدمت بالزوج الجديد.

- أعرفك على زوج سلمى يا حسن.

تشير إلى السلم الحلزوني للقصر، كمال يهبط الدرج في غاية من الفخامة والوقار، سترة بلون القهوة وبنطلون أسود، لا رابطة عنق وقميصه مفتوح إلى صدره، بشرته صافية كعارض أزياء، الحزام والجزمة بلون السترة ومنديل من الساتان يتماهى مع باقي الألوان، أعترف أنه يعجبني، أعترف أن حدقتي الهانم المتسعتين وابتسامتها الصادقة تعكس إعجابًا حقيقيًا لم أنله منها يومًا، عندما يراني يتعثر في عشبة صغيرة تملأ حواشي الحديقة، تشير إليه الهانم فيقترب بخطوات متخاذلة، ينزع نظارته ويمد يده نحوي، وأنا أصافحه تقول الهانم: - كمال بيه الدسوقي صاحب مصنع لتجميع السيارات، أراهن أنك تعرفه.

أهز يد كمال وأنظر في عينيه.

- نعم أعرفه يا جميلة هانم.

أعرف أيضًا أن دسوقي نكرة من دون الألف واللام، وكان يعمل لدى جدي جنائني يا جميلتي، يزدرد كمال لعابه وهو يومئ لها برأسه، يرتجل ابتسامة فيخطئ وتخرج كانكماشة في فمه.

- كمال شخصية رائعة يا حسن، ومن يدري قد تصبحان صديقين وتستطيع أن تأمنه على سيف.

تدق الهانم ناقوس خطر قديم، وتتحرك شكوكي كجيش نمل صغير يستعمر صدري.

- لا أعتقد أنني سأفسد على كمال بيه زواجه، أفضل أن أحتفظ بسيف معي يا هانم.

- في أحلامك يا ولد!

ترحل وتطلب من كمال أن يحاول إقناعي بمصلحة الصغير، يبتسم لها في وداعة طفل، وينتظر حتى تعود إلى بيتها الزجاجي.

- حمدًا لله على السلامة يا حسن.

- يجب أن أعترف أنك اكتسبت ابتسامة مترفة يا صديقي.

يكتسب مظهره جدية جديدة كبدلته.

- سيف سيكون آمنًا هنا في القصر.

- امم، هل تصدق نفسك حقًّا؟

عندما يلتفت إلى اليسار يميل بجزعه كاملًا.

- اسمع يا حسن، أعرف أنك غاضب، أنا لم أخنك كما تظن، أنت كذبت عليّ بشأن الصندوق الآخر، ومع ذلك تركته لك بكل ما فيه وهو كثير لو تعرف وأخذت الصندوق الأول.

لم أجد رغبة في الحديث معه، راقبته وهو يتحدث، راقتني علامات الخوف والقلق التي فاضت بها عيناه وكلماته وحركاته العشوائية بين الحين والآخر، وصلوا إليه وأفقدوه ثقته بي، هددوه بالسجن وربما بحياته، أغروه بالنفوذ والسلطة والعيشة الرغدة التي لم ينعم بها يومًا، وأخيرًا سيتزوج ملكة من ملكات مصر فما قيمة الصداقة إذا؟!

– كذبت عليّ يا حسن وورطتني في أمورك دون أعرف شيئًا، وصلوا إلي وأقنعوني، عقدت لك صفقة، تأخذ العشرة ملايين دولار وتعطيهم الصندوق الآخر أو تشاركهم فيما سيخرجون بنسبة تتفقون عليها.

– كيف وصلت إلى سلمى؟

– هي من وصلت إليّ، أعرف أنك انتهيت منها وطلقتها فلا تأخذ الأمر بشكل شخصي.

ثم ظهرت سلمى من الداخل فجأة، وحيدة تمشي بخطى سريعة وذراعاها متشابكتان أمامها، قبل أن تصل إلينا همستُ في أذن كمال: – أريدك أن تعرف أنك مدين لي بحياتك يا صديقي، لو لم أكن أعسُّ خلفهم لقتلوك بدلًا من إعطائك بعض المال على التماثيل الخمسة، لكن مدحت سليمان ليس بحاجة لمزيد من الدماء والشوشرة في الوقت الراهن، عليك أن تلعق مؤخراتهم لأنهم حال أن ينتهوا مني سيمحون آثارهم القديمة.

– أهلًا يا حسن، هل يجب أن أعرف لِمَ أنت هنا؟

أشرت نحو البيت الزجاجي حيث جميلة هانم تعبث بفرشتها في لوحة على مسند معدني.

– جميلة هانم دعتني لأرى لوحتها، يبدو أنها نجمة صاعدة!

تكشر أنيابها كقطتي القديمة في ماسورة الري، يتقهقر كمال للوراء قليلًا.

– أنت لن ترى سيفًا مرة أخرى صدقني.

– سأناقش هذا الأمر مع السيد زوجك، نحن الرجال نتفاهم مع بعضنا بشكل أفضل.

– بالطبع تذبحون بعضكم بعضًا.

– هذه طريقتي المثلى في إزالة العقبات وبالأخص من يحرمني من سيف.

كمال يراقب العشب الأخضر والأقراص المضيئة، يداه في جيبيْ بنطلونه ورأسه منكس، ويستغرق مفكرًا في المؤخرات التي سيلعقها.

– فكر لمصلحة ابنك مرة واحدة، هل يمكث هنا ويتعلم في الخارج أم يذهب ليقطن معك في شقة السادس ويكبر في كل هذا المر؟

– أين هو؟

– ليس هنا!

– أين؟

– في عيد ميلاد أحد أصدقائه، هل تذكر الولد الذي ضربه من أجل أقلامه، أصبح صديقه المقرب الآن، أنت حتى لا تعرف كيف تربي الأطفال يا حسن.

– في عيد ميلاد نودي!

أبتسم فتهز رأسها في أسى.

– سآتي مرة أخرى وسآخذ سيفًا.

– لن تستطيع، ولا تنسَ من أنا.

أشير نحو كمال.

– بعد أن صنعتِ دميتك الخاصة لا أستبعد منك أي شيء!

– إنه أرجل منك لو تعرف!

– إذًا أتمنى أن يعيش معك أكثر مما عشت.

أنادي على كمال، يلتفت إلينا بجذعه كله، يقترب فأسأله وأنا أتحسس أعلى كتفه وعنقه: – لماذا تنام على الأريكة وتترك فراشك يا كمال؟

ينظران إلي في حيرة واضحة:

– أرجوك لا تخبرني أن زوجتك ترفض أن ترافقها في فراشها وترفض أن تنام في غرفة أخرى.

– تظن أنك تعرف كل شيء.

أهمس لكمال بصوت مسموع:

– سلمى تحب العنف، لا تتردد في حملها إلى الفراش بالقوة ولا تتركها وحيدة يا صديقي.

- 13 -

عندما أخبرت وائلًا عن سري القديم لم أكن أتصور أن أتخلص منه ليحمله هو عني، ومن ثم تظل لعنته تلاحقني إلى الأبد، لكني رغبت في التخلص منه وبدء حياة جديدة، حياة سعيدة وخالية من الندوب، كان وائل من خلال صيدليته القريبة من مسكني قادرًا على معرفة من يزورنا وفي أي وقت، وكانت حواسه مشحوذة لالتقاط آثار حسن بالتحديد، كنت أعرف هذا وكنت أرفض لقاء حسن، جلس إلى أمي في المساء كما أخبرني، ملامحه الجامدة كما هي لكن وزنه أخف من السابق، والشعر الأبيض الذي خط فوديه زاده وسامة، كنت قلقة ومرتابة وهواجسي ترهقني، لكن وائلًا عندما دخل الشقة ورأيت غضبه توقعت كل شيء إلا أن يفشي سري.

- ماذا تفعل هنا؟

كان منفعلًا ومتأثرًا إلى أقصى حد، يظل حسن صامتًا ولا يتفاجأ أبدًا ككتلة من الجليد، لكن أمي تنهض متفاجئة ثم تتخطى مفاجأتها وتنظر بقسوة واستغراب إلى وائل، يقترب من حسن ويطلب منه أن يغادر الشقة حالًا.

- وائل! ماذا تفعل؟!

يشير إليّ أن أصمت.

ينهض حسن ببطء، يبدو أنه حدس ما قلته لوائل عن السر القديم، تقول أمي بصوت فولاذي أعرفه تماما: - اجلس يا حسن، هو من سيخرج!

يضحك وائل بعصبية ويشير إليه:

- لا أعتقد أنه يحتاج إلى طلبك يا فريدة هانم فهو يعرف أنه في بيت عمه ولن يسمح لغريب مثلي بطرده إلا لو كان يخشى شيئًا ما!

تمنيت أن أفقد الوعي كعادتي سابقًا، لكني بقيت واقفة كالصنم ووائل يمزق الستر القديم أمام عين أمي لتعرف ما كتمته عنها وتمنيت أن تعرفه أحيانًا، لدهشتي تصلبت قدمي ولم أسقط، يقول وائل: - هذا الوغد اغتصب نور وهي في العاشرة من عمرها وكانت تذهب لمصحة نفسية طلبًا للعلاج.

أشعر أن أمي كبرت مئة عام، تغيض عيناها وتنكمش ملامحها وتصبح شاحبة بلا قطرة دم واحدة، تنقل نظرات تائهة بيننا، يعلو صدر وائل ويهبط وينظر نظرة حيوانية لحسن، أمي تنهار على أقرب كرسي، وحسن يظل كامنًا مكانه بلا حركة.

- هل هذا صحيح يا نور؟

أردت أن أقول لا لم يحدث لقد غفرت وانتهى الأمر، لكن الصوت الرصين قال بخشوع: - يا هانم أنا أتحمل المسئولية أيًا كانت على ذنبي القديم.

- اخرج من بيتي.

- أريد فرصة للتوضيح!

تصرخ أمي:

- اخرج من بيتي!

تخاذل حسن وهو يخرج، لم ينبس بكلمة أخرى ثم غادر الشقة، بكت أمي وحملت رأسها بكفيها، كنت خائفة أن أقترب منها، رفعت رأسها نحوي، فتحت ذراعيها واحتضنتني.

- يا حبيبتي يا ابنتي.

ظللت مدة طويلة في حضنها، شعرت أني أسترد الكثير من طفولتي المهدرة، بكيت وبكت أمي، طلبت مني أن أروي لها ما حدث، نكست رأسها وصمتت، كان وائل لا يزال موجودًا ويسمع، نظرت إليه: - أنت حر فيما ستفعل واحسم قرارك الآن.

- أنا حسمته بالفعل يا هانم، نور لي.

وعندما جاء سعيد آويت إلى فراشي وتركت أمي تتجشم عناء إخباره، لم يصرخ سعيد ويحطم الكثير من الأشياء ويقتل حسن، ظل صامتًا متحجرًا كصنم، بعد فترة أتاني صوته هزيلًا بنبرة كسيرة: - أخبرني بنفسه في الورشة.

خشيت أن يكون ارتكب حماقة ما، خرجت من مخدعي وجلست بجانبه، نكس رأسه كأنه لا يقدر على النظر إلي.

- ماذا فعلت يا سعيد؟

أمي أيضًا تخشى ما أخشاه، دون أن يرفع رأسه قال: - لم أفعل شيئًا.

شعرت بالراحة، قلت للتخفيف عنه:

- وما الذي يمكن فعله بعد خمسة عشر عامًا يا سعيد؟

- أعطاني مسدسًا ووقع شيكًا بمليون جنيه وخيرني فيما أفعل، وكان مستسلمًا تمامًا.

أعرف أن الحسن هذا له طريقة رهيبة في الإقناع، وضع سعيد الشيك المزيل بتوقيع حسن على المائدة، تأملناه جميعًا ولفت نظري يده الملطخة ببقعة دم.

- قال إنها غلطة ارتكبها صبي في صغره وأنه بحاجة إلى عائلته.

- هل تأذيت؟

وتناولت أمه يده، سعيد صمت ولم يعقب، لكنني تأكدت أنها ليست دماءه هو، هل تجرأ ولطم حسن؟!

كان وائل الوحيد المنتشي بما حدث، سعيد كان حزينًا ويغالب كبرياءه، أمي تشعر بالندم والتقصير، تمر بي كثيرًا وتجلس بجانبي دون أن تقول شيئًا، أما أنا فشعرت ولدهشتي بالشفقة على حسن، صارحت هند بما وجدت من نفسي، لم أجد لديها تفسيرًا، ربما احتكاكي مع حسن كثيرًا في الآونة الأخيرة

وعلاجي وانفتاحي على الحياة محى الكثير من الأوجاع، طلبت منه المال وتحدثنا كثيرًا، حدث نوع من المصالحة والتواطؤ على الماضي رغم إنكاري، وما زال الفيديو وتمثال الأسرة الثالثة عشرة يثيران فضولي، هذه الأشياء دفعت علاقتي مع حسن بعيدًا عن أحواض اللبلاب، سعيد أصبح مهووسًا به ولم يكن من السهل أن يقطع علاقته بحسن مرة واحدة بهذا الشكل، تراه أمي يجلس على الأريكة ويتأمل الشيك الذي معه، تقول إن عليه أن يرده له فلن نقبل ثمن عرضنا، يهز رأسه ويبدو أنه نوى ذلك لكنه لا يريد المواجهة، جلست أمامهما وقلت إننا نستحق هذا المال، أرهفا سمعهما.

– هذا ليس ثمن عرضي، لكنه ثمن خطئه.

يغلفهما الصمت، لكن أمي لن تصبح قاسية عليّ بعد اليوم.

– سنرد له ماله يا نور.

أخشى أن يصبح الفراغ الذي خلفه حسن سجنًا لي، هذه الأموال لن تفدي خطأ حسن فحسب، بل ستفديني من حقدهم عليّ عندما ينسون مرارة الألم، إذا أخذوا المال أبقوا على نافذتهم مفتوحة مع حسن، أما أنا فلست خجولة من أخذ المال، بطريقة ما شعرت أن خجلي من شخص انتهك حرمة جسدي ضرب من العبث، لكن سعيدًا حسم الأمر: – لن نأخذ الأموال يا نور، كما قالت أمك.

يتردد وائل على شقتي أكثر من ذي قبل، نظراته تصبح أكثر تحررًا واختراقًا، لم يعد يبتسم كثيرًا كما في السابق، يشرد أحيانًا لكنه ينصت بعناية لكل كلماتي، أصبحت أنا من أثرثر أغلب الوقت وهو من يسمع، في داخلي شعرت بالحنق عليه لأنه أفشى سري، لكن العواقب السليمة فرغت هذا الإحساس وبات حنقي ظاهريًا فحسب، لم يكن سروره خفيًا من انقطاع حسن عن زيارتنا، سعيد قرر بعد فترة أن يعقد على هند، بهذا عثرنا على فرصة للانشغال عن حسن والتعويض عن الأوقات السعيدة التي حظينا بها بفضله.

أثناء زياراتي لهند أمر أمام صيدلية وائل، يخرج ويستوقفني، كنت أرغب في التحدث معه على غرار الأيام الخوالي، أو بالأحرى كنت أرغب أن يحدثني عن أحلامه وطموحاته كما كان يفعل، كلامه الكثير معي كان يضفي عليّ هالة مقدسة، كنت أشعر بحبه يغمرني، وحب شخص بهذه السيولة جعلني أكثر ثقة وحياة.

– أين تذهبين؟

– إلى هند.

– سأوصلك إذًا.

لم أكن معتادة الركوب معه في سيارته، وظننت أنها فرصة للتعافي من آثار حسن علينا، مد يده وقبض على كفي، نظرت إليه، ينظر أمامه يراقب الطريق ويقبض على المقود باليد الأخرى، لم أشعر بدفء أو أي مشاعر في هذه الحركة، أردت أن أسحب يدي لكني خشيت أن يفهم شيئًا آخر، أبطأ سرعة السيارة، توترت قبضته على يدي.

- وائل، أنت تؤلمني.

انتبه وسحب يده، لم يتكلم، ظل يحدق إلى طريقه حتى وصلت إلى وجهتي، أثناء تجوالي مع هند لم أجد تفسيرًا لما حدث، شعرت به يتغير، هل حقًّا تقبل حقيقتي كما هي، هل حقًّا يخشى أن يتحمل فاتورة حسن كما تقول هند؟ ألتفت إليها وأسألها: - هل حقًّا سينسى وائل يا هند؟

تضحك ضحكة خبيثة:

- أنت فاتنة يا حمقاء، عندما تصيرين في حضنه سيبقى الماضي ماضيًا.

عندما أصير في حضنه سيذكر الحضن الآخر لا محالة!

في المساء كان وائل ينتظر بسيارته في الميدان الذي ألتقي فيه بهند وأفترق عنها، تهمس هند في أذني: - ألم أقل لكِ؟!

أودعها وأصعد إلى جانبه.

- أنتظرك منذ مدة واتصلت بك لكن هاتفك مغلق.

- فرغت البطارية.. ما الأمر؟

- سنذهب إلى الشقة لتنسقي الألوان مع بعضها، لا أعرف هذه الأشياء والمهندس سيبدأ عمله غدًا.

- ألا يمكن أن ينتظر هذا الأمر للغد؟

- يمكن بالتأكيد، لكني أنتهز فرصة أن تكوني معي يا نور الآن قبل غدٍ، وأكتوبر ليست بعيدة.

ابتسامته جميلة وإحساسه الرقيق عاد أخيرًا، ركبت بجواره وانطلق، بحث عن يدي مثل المرة السابقة عثر عليها وتمسك بها، بعد فترة سحبتها منه للأسباب نفسها، توقفنا أمام بنايات جميلة وفارهة، قرص الشمس يتحدر نحو المغيب، الأضواء آخذة في الانتشار مثل اللآلئ، نزلنا من السيارة وتبعته إلى الداخل، بالمقارنة مع هذا المكان نحن نعيش على هامش الحياة، فتح وائل الباب ودخلت، الشقة واسعة وفاخرة إلى حد كبير، كانت هناك أريكة في غرفة الاستقبال وسرير في غرفة النوم ومائدة للطعام، أخبرني أنه يقيم فيها منذ مدة، معلومة أعرفها حالًا، ستائر بيضاء من الساتان تغطي النوافذ.

- ما رأيك؟

كنت مبهورة بجمال شقتي، تسللت إليَّ السعادة في البداية على استحياء ثم اقتحمتني كالطوفان، اقترب مني وائل، سحبني من يدي ليريني الغرف الأخرى والمناظر التي تطل عليها، أمام الأنوار المنبعثة من الأحياء المترامية أصبحت طفلة في مدينة ملاهٍ يفيض السرور من عينيها، يقف وائل في مواجهتي تماما.

- هل أنتِ سعيدة؟

- جدًّا.

ينظر إليَّ مطولًا، يقترب مني حتى أصبحت أشعر بأنفاسه على وجهي، تراجعت للخلف فقبض علي، ضمني إليه.

- وائل! ماذا تفعل؟!

- لا أصدق يا نور أنه فعل بكِ ما فعل.

- ماذا تفعل يا وائل؟!

- أنت لي وحدي ولست لأي شخص آخر.

شفتاه قريبتان جدًّا، أدفعه بيدي في صدره.

- ابتعد.

- سأقتله في الوقت المناسب.

تملصت منه فلحقني، قبض على ذراعي، جذبني بشدة آلمتني، دفعني إلى الحائط.

- وائل أرجوك! لا تؤذني كما فعل.

- تدافعين عنه وترفضينني.

بكيت، هاجمتني مخاوفي، ثبت ذراعيّ على الحائط، توسلت بين دموعي لكنه كان غائبًا عن الوعي تمامًا، رفسته بقدمي فهوينا معًا، قبض علي وحاصرني بذراعين قويَّتَين، سقط غطاء رأسي وتهلهل قميصي في محاولاته للظفر بي، صرخت بشدة واصطدمت يدي برجل المائدة، تعلقت بها وهوت فوقنا، باغته الأمر فتملصت منه وعدوت نحو الباب، حاولت فتحه، بين رعشات يدي انفتح، هرعت إلى الخارج، لم يلحق بي، أصبحت في الشارع، لا أعرف أي اتجاه أمضي فيه، تائهة أكثر من ذي قبل، مصدومة ومتداعية كجدار قديم تناوبت عليه الصدمات، كان جزء من كتفي مكشوفًا، شعري تهدل وسقط على ظهري، ضممت فتحتي قميصي واحتضنت نفسي، مشيت منكمشة كذبابة خرجت من كأس مليء بالماء، لا تستطيع الطيران ولا أستطيع الإحساس بما حولي، السيارات تمر على جانبي وتصدر تنبيهات كثيرة، إحداهما كادت أن تسحقني. بعد دهر كامل، وصلت إلى نهاية الطريق انعطفَ وظللت سائرة دون أن أنعطف معه، خضت في الصحراء إلى لا شيء، قطعت سيارة سوداء سيري، هبط منها آخر شخص أتوقع حضوره، لم يكن قطعة من الجليد هذه المرة، كان مصدومًا وعلامات استفهام كثيرة تعلو سحنته، نزع سترته ولفني بها، أمسك بساعدي وسحبني برفق إلى سيارته، جلست بجواره وانفجرت في البكاء، ظل صامتًا يحترم دموعي، مد يده إليَّ وجذب رأسي، التقت أعيننا، قال بحزم: - من فعل هذا؟

- وائل.

- أين؟

لم أعرف، اخترقت دموعي ذاكرتي وفقدت القدرة على تحديد الأماكن، كنت راغبة في فراشي حيث أنطوي على نفسي بعيدًا عن هذا العالم.

- لا أعرف.

أدار سيارته ومضى عكس الاتجاه الذي أتيت منه، خفف السرعة وفتح زجاج النافذة.

- نور، لا أظن أنك مشيت كثيرًا أنظري إلى البنايات وتعرفي على المكان.

نسمة هواء باردة داعبت وجهي، جمدت دموعي، روحي أيضًا تجمدت، لا أستطيع التجاوب معه.

- أريد أن أذهب إلى أمي أرجوك.

وجهه حزين، يكتسب بعض القسوة والحزم.

- ستذهبين يا عزيزتي، لكن بعد أن تستردي كرامتك أولًا.

ثم قال:

- هذه سيارته، أليس كذلك؟

كانت هي، تقف أمام البناية التي هربت منها، أومأت برأسي موافقة، ركن سيارته جانبًا وفتح درجًا بين ركبتي وأخرج منه مسدسًا كبيرًا، قفز من السيارة وركبتني كل شياطين الجحيم، مزقت جمودي كشرنقة لزجة وعدوت خلفه، لم أكن لألحق به لكنه عاد إلي يسألني أي شقة، كنا واقفيْن في الطابق الثاني حيث شقة وائل على يساري تمامًا، تعلقت به ورجوته أن نرحل، يغلق أزرار سترته التي أحاطتني، ويقول بصبر نافد وبنبرة فولاذية: - أين الشقة يا نور؟

أتشبث بذراعيه كطفلة تائهة، أتوسل إليه أن نرحل من هنا، يزداد غضبه ويفتح وائل باب الشقة فجأة، يصوب نحوه المسدس، أصرخ وأسد عليه الطريق: - لم يحدث شيء يا حسن، أقسم لك.

أقترب من فوهة المسدس، أقول برجاء:

- هو لا يستحق عناء السجن أرجوك.

عندما ترتخي قبضة حسن وينحي مسدسه يقول وائل: - لا تظن أنك بطل! أنت مريض نفسيًا مهووس بجنس الأطفال وقاتل حقير.

يهوي حسن بمقبض المسدس على رأسه، ثم أنفه وتسيل دماء وائل على قميصه الأزرق وتخفي معالم وجهه، يجذبني ويغلق باب الشقة، بعدة ضربات يسقط وائل على الأرض، أغطي فمي بكفي وأمنع صرخة فزع تحشرجت في حلقي، ينظر إليَّ حسن ويقول: - لا بأس، لم يمت بعد.

يخرج هاتفه ويجري اتصالًا ما، يجذبني من ذراعي ونهبط الدَرَج بعد أن أغلق الشقة على وائل المسطح على الأرض كجثة متعفنة، ربع ساعة في السيارة صامتة وحسن يجلس بجواري ثم يطرق شخص ما على زجاج النافذة، يُنزل الزجاج ويقول حسن: - أحصل على توقيعه على عقد الشقة والصيدلية وأدفع له ثمنهما، وتأكد ألا يدخل هذه المدينة مرة أخرى.

حسن صامت لا يتكلم، تمثال رخامي يقود السيارة لا تبدر عنه أي بادرة تشي بدواخله، قبضتاه على مقود السيارة أصبحتا بيضاوين من شدة التوتر.

- هل أنت بخير يا نور؟

- نعم.

رغم أن الطقس كان دافئًا إلا أني أشعر ببرودة تنخر عظامي، أجذب السترة الزرقاء التي لفني بها حسن ليستر عورتي، غير أني ما زلت مكشوفة أمامه، كيف تحول وائل إلى وغد بهذا الشكل، كيف لم أنتبه إلى الإشارات التي كانت تصدر عنه؟ شروده وكلامه الغاضب ورغبته في الاستحواذ علي، يعود ليقول: - هل أجبرك على شيء؟

أنظر إليه وأفهم ما يقصد، أنفجر فيه صارخة: - لم يصل إلى ما وصلت إليه يا حسن.

يظل صامتًا كالقبر حتى توقفت سيارته أمام عمارتي، توقعت أن ينزل ليصعد معي إلى أمي، كنت أخشى مواجهتها هي وسعيد، لكنه مكث في السيارة حتى تواريت بالداخل، لم أجرؤ على طرق الباب، سترة حسن تغلفني، قميصي ممزق ووجهي منتفخ، بالكاد أستطيع الكلام، أخرجت هاتفي واتصلت به، بعد مئة عام أجاب: - نور!

- تعال لتدخلني.

ألهث لأضخ المزيد من الهواء.

- لا أستطيع المواجهة.

يغلق الهاتف وأنتظر مئة عام أخرى حتى يصعد حسن، يطرق الباب ثلاث طرقات بينات، خطوة أمي الموسيقية على الأرض تدمي أذني، تفتح الباب.

- حسن!

تفسح له ليدخل، أتبعه كظله، غير أني ظل مجسد وملحوظ وهش، تتسع عينا أمي، جمرتان ملتهبتان تنفذان إلى أعماقي فتحرقها.

- ما الذي حدث؟!

تقول أمي بصوت أجوف يصعد من قعر بئر، أسرع إلى غرفتي لأتوارى بعيدًا أسفل غطائي، يتكلم حسن، لا يصلني من كلامه سوى إيقاعه الهادئ، تجادله أمي بعصبية مفرطة، تصرخ وتندفع ناحيتي، تفتح الباب وتنزع الغطاء من فوقي، كنت لا أزال ملتفة في سترة حسن، تجذبني من ذراعي: - لماذا أنتِ التي تتعرض للشيء نفسه مرتين؟!

ملامحها قاسية واتهامها يربكني ويهيننني ويشتتني.

- تكلمي! لماذا كنتِ معه في الشقة؟!

مشدوهة أكل القط لساني لا أجد ما أستطيع الدفاع به عن نفسي، حسن يتنحنح قائلًا: - يا هانم، تهدأ أولًا ثم نسمعها.

تهوي على فخذيها وتصرخ:

- لا، بل الآن وأريد تبريرًا حقيقيًا.

ينظر إليَّ حسن بعينيه الحجريتين، هل ينتظر تبريرًا هو الآخر؟! عندما أتحدث أكتشف أن لصوتي ترددات عديدة أسمع أحدها للمرة الأولى.

– وجدته ينتظرني عند هند، وأصر أن أرى الشقة لأنسق ألوانها.

– تنسقين ألوانها وحيدة معه في هذا الليل!

لم أجرؤ على البوح بكل شيء، لا أستطيع القول إن طريقته في استعطافي هشمت حواجزي، وإنني كنت مشتاقة لروحه القديمة التي شاخت بعد أن عرف سري، وفي أول بادرة لاستعادتها لم أتردد، ابتلعت أفكاري وبدلًا منها فاضت دموعي.

– والله يا ماما هذا كل شيء.

تهوي هذه المرة بيدها على وجهي، تخشبت ونكست رأسي بين ركبتي واحتضنتهما.

– فريدة هانم إنها تقول الحقيقة، نور ليست مذنبة في شيء هو من اعتدى عليها واستحق عقابه.

– أفسدت ابنتي وحياتي يا شيخ حرام عليك!

تبكي أمي بمرارة، ويصمت حسن حتى تسقط مغشيًا عليها.

- 14 -

عندما غادرت القصر كنت أشعر بخواء عميق، ثقب أسود ظهر في صدري فجأة، أنا حزين كشيطان طريد، عليّ أن أعترف أنها أهانتني بزواجها من صديقي، لست نادمًا عليها وعندما طلقتها كنت قد فرغت منها كما قال كمال، لكن الذكريات القديمة تبهت ببطء وتأخذ المزيد من الوقت حتى تنجرف تمامًا، إنها الفجوة التي يسبق فيها عقلك رياح القلب، لكنّ ثمة ريحًا خاصة جميلة ورقيقة تهب على قلبي بلا سابق إنذار، لماذا تطل نور على روحي المعذبة في هذا التوقيت؟! كأني أستخلصها من حطامي وأنظر إليها لتشعل النار المقدسة في نفسي الخامدة، لم تعد ذكراها تشعرني بالندم كالسابق، باتت تزورني كلما شعرت بالوحدة والمرارة وحاجتي للحديث مع شخص آخر، فكرت في زيارة بيت عمي وأتجاوز ما حدث في المرة السابقة أمام خاطبها، لست محتاجًا سوى لجلسة حميمية مع نور وسعيد وفريدة هانم، لا مانع حتى في تلقي إهانة أخرى من الهانم ثم تتركني بعدها أتمدد على الأريكة بسلام، أشعر برغبة حقيقية في الرقاد، أنا مرهق ومحمل بالكثير من الأعباء، أتجه إلى شقتي بسرعة الصاروخ، أمام ناظري مشية متهادية لشبح نور مبعثر الرأس ومنكمشًا كعجوز أنهكها الزمن، عندما أتأكد أنني لا أحلم أضغط مكابح سيارتي قبل أن أصطدم بها، أحيد عن الطريق وأسيطر على السيارة قبل أن تتدحرج وتنقلب كما حدث من قبل، ألملم شتاتي وأسيطر على أنفاسي، أخرج لأتابع التعيسة التي هبطت عن الطريق وخاضت في الصحراء كالمسوسة، أقود السيارة وألحقها، أعترض طريقها وأهرع إليها، نظرة سريعة ويتحطم قلبي إلى شظايا لن تترمم أبدًا، نظرتها الساهمة، وجهها الملتهب، قميصها الممزق، كتفها العارية وشعرها المنسكب على ظهرها بلا حجاب يستره، كل هذه أعراض اغتصاب آخر لا محالة، يا لتعسك يا صغيرتي! أنزع سترتي وألبسها لها فتستجيب لي كطفل تلبسه أمه ثيابه.

- نور، ما الذي حدث؟

ذاهلة لا ترد، أقودها للسيارة، ليست مجهدة وأنفاسها منتظمة، جبهتها جافة ليست متعرقة، هي لم تمشِ لمدة طويلة، عندما أغلقت باب السيارة انخرطت في بكاء هستيري، غضبت، ارتعشت أطرافي من شدة الغضب: - من فعل هذا يا نور؟

تقول بصوت بعيد جدًّا:

- وائل.

وائل! كدت أن أفقد رشدي:

- أين هو؟

لم تعرف، هزت رأسها في بلاهة وسقطت الكثير من الدموع، مشيت في عكس الاتجاه، لو لم تكن في سيارة وحدث ما حدث في شقة فهي قريبة بالتأكيد.

- هل هو في شقة؟

تومئ برأسها ولا تتكلم، أخفف من سرعتي وأراقب البنايات المتلاحقة، أتابع عينيها لعلها تتعرف على إحداها، في الوقت المناسب تشير إلى سيارته الهيونداي واقفة أمام العمارة، هبطت من السيارة وفي رأسي وجه عمي وهو يطاردني في كوابيسي ويقول: - ضيعت الأمانة!

في الطابق الثالث اكتشفت أنني لا أعرف عنوان الشقة، عندما هبطت لأسألها اصطدمت بها أمام الشقة الثانية باحثة عني.

- أين هو؟

تعلقت في ساعدي ورجتني أن نذهب، في عينيها أرى ذنبي القديم، عندما ألتفت من حولي تلح أكثر في الرحيل، في الشقة التي على يميني عندما نظرت ازداد فزعها، وعندما فتح بابها وظهر الوغد أمامي استطعت أن أرى هلعًا حقيقيًا في وجه نور وهي تقف حاجزًا بينه وبين رصاصاتي، توسلت كما لم تفعل من قبل، صرخت أنه لم يحدث شيء، كانت محاولة عابرة ولم يظفر منها سوى بالقميص المهلهل، هممت أن أطلق لأغسل ذنبي وذنوبًا كثيرة، احتضنت اليد التي قبضت بها على مسدسي، أقسمت إنه لم يحدث شيء، هي صادقة من قميصها الذي ظل يلفها دون أن يتمزق تمزقًا كاملًا، جيبتها تحمل غبارًا من أثر المعركة لكنها سليمة، انتبهت إلى أنني سأفضحها برصاصتي، استقرت نظرتها الراجية في قلبي، أرخيت يدي ونعتني الوغد بنعوت قاسية، لم أكن سأرحمه على أي حال، هويت على رأسه بالمقبض، سال الدم منه ثم هويت على أنفه ووجهه، سددت نحوه العديد من اللكمات، كان هشًا ولم يقاوم، سقط على الأرض في الشقة وهاتفت أحد رجالي في الورشة فتكفل بالباقي.

عندما عدت بنور إلى شقتها فشلت للمرة الثانية في السيطرة على أمها، هذه المرأة عنيدة كحجر، اليوم أدركت حقًّا كيف استطاعت أن تفرق بين أبي وعمي، كيف كان يخشاها أبي رغم محاولاته العديدة لترويضها، لم أترك الشقة حتى أحضرت لها طبيبًا عندما سقطت مغشيًا عليها، تأثير الصدمة أفقدها الوعي، وعندما غادرت العمارة كان سعيد يهم بالدخول، التقينا فحاول أن يتظاهر بالغبن، جذبته من ذراعه فاستجاب، حملته في سيارتي حيث نجحت في إقناعه بما لم أنجح مع أمه، دمعت عيناه في المقهى الذي جلسنا به، استطعت أن أمتص غضبه، أخبرته أنني كدت أقتله لولا أنه لم يحدث شيء.

- الرصاصة أغلى من حياة كلب مثله يا سعيد.

أصر على الحضور ورؤية توقيع وائل على العقود، عندما رأى وجهه المتورم والدماء التي نزفت منه اكتفى بأن أخذ المال الذي دفعته له، أصر ألا يأخذ شيئًا نكاية فيما فعل، وعندما أوصلته إلى بيته أخذت منه عهدًا أن يكون عونًا لنور على أمه.

***

في الأيام التالية، هاتفت نور ولم ترد على مكالماتي، أشعر بها وحيدة ومعزولة، آلمني أنها تحمّلني بعض اللوم على طمع خاطبها بها، شعرت أني بحاجة لمزيد من الراحة، بعد كل ما حدث لم أغادر شقتي، أنام

ثم أصحو لأقف في الشرفة أتأمل النهار وأدخن بعض السجائر من علبة أبي القديمة، تفرغ العلبة فأشتري واحدة أخرى وأنقل السجائر إلى العلبة القديمة، أطرد الدخان على دفعات متتابعة، اتصلت بسيف على هاتف سلمى فلم تجب، جلست على كرسي خشبي ومددت قدمي وأسندتهما على المنضدة كتعويض عن حرماني من تلك النعمة المهملة في الزنزانة، رن هاتفي، ألتقطه بسرعة وأجبت ساخرًا: - صديقي القديم، لم أسمع صوتك منذ العصر الجليدي.

- أهلًا يا حسن، أحمل إليك أخبارًا سارة.

- سيد مدحت، أنت لا تأتي بخير أبدًا، لكن أخبرني هل أحضرت لي الرجل الذي قتل أبي؟

ضحكه يأتي على هيئة موجات إشعاعية سامة، يقول وينفغر فمي من الصدمة.

- أستطيع أن أرد إليك ابنك؟

- هل سافر للمريخ؟!

- ألا تتابع الأخبار أو تدخل على الفيسبوك يا حسن، زوجتك ذائعة الصيت قدمت حلقة كاملة عنك بالأمس، أصبحت شخصية عامة مرة أخرى يا صديقي.

أتلقى الضربة في صمت:

- سلمى قدمت بلاغًا للنائب العام والمجلس القومي للمرأة وحقوق الطفل ومكتب منظمة حقوق الإنسان في مصر، تتهمك فيه بأنك شاذ جنسيًا «بيدوفيليك» عاشق للأطفال وتتحرش بابنك في أوقات خلوتك به، طبقًا لمعلوماتي فالقضية محسومة، لا أريدك أن تظن أنني وراء ما يحدث، صدقني زوجتك السابقة هي من فعلت كل شيء، ساعدتها فقط في حصولها على تسجيلات لابنة عمك وهي تتحدث في العيادة النفسية عما فعلته لها بين أحواض اللبلاب عندما كانت طفلة خضراء، يا إلهي أي وحش أنت؟!

أجلس كما أنا مستندًا بقدمي على المنضدة وظهري مائل للخلف وسيجارة أبي في يدي، لكني أكتشف أنني غير قادر على الحركة، غير قادر على تجميع حروفي وبناء كلمة واحدة لأرد بها على ابن الكلب هذا.

- حسن، أعطني المفتاح وسأخرجك منها كما الشعرة من العجين بالإضافة لعشرة ملايين دولار، اركب دماغك وسأقضي عليك، سأحاصرك في كل حياتك، سأصادر النفس الذي تتنفسه، وتذكر دائمًا ما لديك تخزنه لنا لحين أن نحصل عليه.. إلى اللقاء يا صديقي، وبالمناسبة الشرطة قادمة إليك للمثول أمام المحكمة المستعجلة.

يغلق الهاتف وأظل أحدق إلى سقف شرفتي مذهولًا عن الواقع، عندما تستجيب يدي لي أبحث عن الحلقة السابقة «لأنا والمرأة» على اليوتيوب، سبعة ملايين مشاهد للحلقة في أقل من نصف يوم، تبكي سلمى وتتوسل للعالم كله أن ينقذها مني، تستشهد بكلمات نور في لقاء معها! متى حدث هذا اللقاء ومتى خانتني نور هي الأخرى بهذا الشكل؟! تضع صورة باهرة لي على الشاشة لتظهر كم كنت مخادعًا لا يكشف شيئًا من أهدافه اللئيمة، يا بنت الكلب! قبضة قاسية تدق الباب بعنف، جرس الشقة يتحشرج

كأن أحدهم يخنقه، أنهض بتثاقل، لا يقدم على هذه الخطوة المقتحمة سوى سلطات تنفذ القانون، أفتح الباب.

- حسن سليم؟

- أفندم.

- تفضل معنا.

أنظر إلى نفسي وينظرون معي، أرتدي بنطلونًا قصيرًا يصل إلى ركبتي من الأسفل وما زالت منامتي تغطي الجزء الأعلى: - هل يمكن أن أبدل ملابسي؟!

- لا نملك وقتًا يا حسن.

أنطلق معهم كمجذوب حقيقي مشعث الرأس ومهلهل الثياب ويعاني من أمراض العالم كله، أمام المحكمة آلاف الكاميرات تنتظر، تسري في الجمهور همهمات تتحول إلى مظاهرة وآلاف اللقطات تحمل صورتي وأنا محاط برجال الشرطة، أدخل إلى قاعة ممتدة وهادئة، تتصدر القاعة مائدة كبيرة يجلس خلفها قاضٍ ومستشاروه الثلاثة، نظرتهم متجهمة، تزداد قتامة عندما تقع أعينهم علي، من أعد الكمين بارع حقًّا واختار أنسب وقت ليضرب ضربته، أقف أمام القاضي وحيدًا، يثبت حضوري في محضر الجلسة.

- ما اسمك؟

رفعت رأسي وحركت لساني بأفخر نبراته.

- حسن سليم مختار الساعدي.

ينفتح باب آخر ويستأذن الحاجب في دخول المدعي، تدخل سلمى بكامل خيلائها، يتبعها حشد من المحامين والحقوقيين، والعديد من النساء من المجلس القومي للمرأة وحقوق الطفل، يدخل أيضًا كمال في إطاره الجديد ويسحب معه حماته الشمطاء المتصابية كفتاة في العشرين، انتظرت حماي الموقر لكنه لم يحضر، جلس الجميع وظللت واقفًا كبيدوفيليك تأنف الكراسي من ملمسه القذر، حالة من الاشمئزاز العام أثارتها جرائمي وملابسي وهيئتي الرثة، تسلل بعض الصحفيين بعلم القاضي إلى الداخل لتوثيق قضية إنسانية بالغة التعقيد، وُضِع أمامي ميكرفون يحمله عسكري هرم حتى لا تتحرك بواعث الرغبة نحوه، تحدثت سلمى بلغة فصيحة مغلفة بمسحة حزن مزقت قلبي، أم مكلومة صُدمت من الجريمة التي ارتُكِبت في حق طفلها، أنصتَ إليها القاضي مأخوذًا بمصابها، جلست سلمى وهي تتظاهر بمحو دمعة متمردة على كبرياء محطمة، تولى محامٍ مخضرم تقديم الأوراق والأدلة الخاصة بحادثة اغتصابي لابنة عمي وهي في بهجة الطفولة، حتى روشتات الدواء كانت مرتبة في حزمة واحدة وقدمت لسيادة القاضي، عنفي لم يتوقف عند هذا بل تمت الاستعانة بالفيديو الذي ذبحت فيه قاتل أبي، نهضت حقوقية أخرى واستغلت طريقة ذبحي للرجل في تشريح نفسيتي استنادًا إلى تقرير خبير في سيكولوجية الجرائم، القاضي يهز رأسه هزات صغيرة، لا يرمش بعينيه وحدقتاه متسعتان، يحني ظهره قليلًا للأمام، قبضتاه

تتوتر كلما تم الإشارة إلي في ثنايا الكلام، وعندما ينظر إلي يخفض رأسه ويحدق إلي بعيني صقر، لو صدقت فراستي فهو يبغضني كأنني اغتصبته شخصيًا.

- هل معك محامٍ يا حسن؟

- لا يا سيادة القاضي، لم يسعفني الوقت!

- هل توكل لك المحكمة محاميًا؟

- لا يا سيدي، أفضل الدفاع عن نفسي.

شبح ابتسامة يعلو وجه سلمى، الحقائب المنتفخة التي تحيط بها تبتسم في خبث، يقول القاضي: - هل أنت واثق؟

أصر على موقفي ويقرب العسكري العجوز ميكرفونه من فمي، طريقته المرتعشة تجبرني على التعليق:

- لا تخش شيئًا، أنا متحرش أطفال فقط!

تضج القاعة بالضحك، تنهض محامية متحمسة وتقول:

- هذا اعتراف يا سيادة القاضي.

أرفع صوتي:

- إنها مزحة لا أكثر، لكنكِ فقدتِ حس الدعابة يا عزيزتي.

ينهرني القاضي ويطلب مني أن أكون محددًا.

كنت أعرف أن قضية اغتصابي لنور لن أعاقب عليها طالما لم تتقدم الضحية نفسها باتهامي، ثم بعد ذلك يأتي دور الدليل، حتى الروشتات والتسجيلات وشهادة الدكتوراه لا ترقى لدليل دامغ قوي خصوصًا أن نور في عين القانون مريضة نفسية تتلقى العلاج، قلت: - أنا أنكر يا سيادة القاضي كل التهم الموجهة ضدي، ولم أغتصب ابنة عمي ولم أتحرش بابني ولست مريضًا بأي مرض، والفيديو الذي رأيتموه تمت تبرئتي منه ودفعت كفالة وبحوزتي حكم محكمة.

يمط القاضي شفتيه ويقول:

- حري بك أن تنكر.

وعندما يتأمل هيئتي، أقول:

- إن طليقتي مريضة نفسيًا، وتُعالج منذ فترة بالهلاوس.

تصم شهقات الاستنكار أذني، يقول القاضي:

- هل تدرك حقًّا الوضع القانوني لما تقول وعاقبته؟

- يا سيادة القاضي، أنا لست محاميًا ولكني أحترم ذكائي. لا يمكن أن يأتي أي أحد ويتهمني بتهم شنيعة مثل هذه ليحرمني من ابني ونصدقه.

- تريد خبيرًا إذًا!

- آه بالطبع، شخص آخر ليحكم عليّ هل أنا صالح كأب أم لا؟! هذه ليست عدالة ولا ضمير سيادتكم.

- هل تشكك في نزاهة القضاء يا حسن؟

- حاشا لله سيادتكم، لكني أب محاصر بآلة دعائية ضخمة تحركها زوجتي لسلبي حقي.

- أنت مغتصب قديم يا حسن، والأدلة صريحة.

- وتبتُ ألف مرة! وإذا كان لون شعري تغير وشكلي تغير والحياة نفسها تغيرت فهل تبقى خطيئتي التي ارتكبتها وأنا غلام أخرق لتشكل وعي أب الآن يا حضرة القاضي؟!

- إذًا أنت تعترف أنك اغتصبت ابنة عمك.

- لا سيادتكم ولا يوجد دليل واحد على هذا.

- والطبيبة التي عالجتها واعتراف الضحية عليك على الهواء مباشرة.

- إذا كان المرض النفسي يمنعني من حضانة ابني، فهو يمنعنا من أن نصدق نور في ادعائها عليّ؛ لأنها كما قلتم -سيادتكم- تعالج نفسيًا.

تصرخ متحمسة في الخلف.

- إنه خنزير متلاعب بالكلمات يا سيادة القاضي.

همهمات أخرى كهدير المحركات، يزعق القاضي فيعم الصمت كجبل يهرس صدري، يشير إلى المدعين، فينهض كمال ليشهد على اضطراب شخصيتي، يقول إنني كنت أشاهد أفلامًا جنسية للأطفال عندما كنت في الورشة: - يبدو أنها أعجبتك يا كمال!

ينهرني القاضي مرة أخرى، أصمت وعندما سيأتي دوري في الدفاع سأسقط ترهاته بسهولة، فزوج طليقتي شهادته مجروحة وحتى الأطفال التي نتحرش بها تعرف هذا، لكني أعترف عندما فُتح باب القاعة ومرق الشاهد الثاني كغصة مزقت بلعومي، أعترف أنني صدمت، وقف وائل منتصبًا كسارية علم وأدى اليمين ثم اتهمني صراحة بتشويه وجهه واغتصاب شقته وصيدليته دون دفع فلس واحد، شعرت بالهزيمة تدق أبوابها، سألني القاضي عن رأيي فيما سمعت: - لا أستطيع اغتصاب الأطفال والشقق في آن واحد سيادتكم، كما أنه مجرد ادعاء بلا دليل.

خصومي يضحكون وأشعر بالمرارة، يقول القاضي بنفاد صبر: - هناك شاهد على وقعة الاعتداء على وائل.

يشير إلى الرجل الذي تبع وائل ويقول:

- جاره في العمارة رأى كل شيء من فرجة الباب.

يقف الجار ليؤدي اليمين الكاذبة، هذا الرجل جاء لزيارتي في السجن مع المفاوض الجديد الذي أرسله مدحت، أبتسم وأعترف للمرة الثانية أن مدحت نال مني حقًا، بلا شك استأجر الشقة المجاورة وأعد عقدًا بتاريخ سابق، لا أستطيع أن أقول إنه يتفاوض معي على قطع أثرية، الآن سأفقد الحضانة وأعود إلى

السجن، يقطع وائل حبل أفكاري الواهن، يقول: - لكني أتنازل عن الاعتداء عليّ -سيادتكم- أنا أريد فقط ألا يتعرض ابنه لجنونه.

تنهض حقوقية متأثرة وتصفق للذئب على تسامحه الجارف، يتبعها القطيع ويخفض وائل رأسه امتنانًا، يا إلهي! أحبس ضحكتي حتى لا يظهر جنوني حقيقة لا مراء، يتأملني القاضي بازدراء واضح، يقول: - سأستخدم معك آخر رخصة قانونية وأعرضك على استشاري صحة نفسية للتأكد.. أتعلم لماذا؟ لأنك لم تفقد حس الدعابة.

ترفع الجلسة ويتم نقلي للعرض على الدكتور محمود سالم الذي تستضيفه سلمى في برنامجها، رجل وقور كما يظهر، يتأمل ملف القضية ويكتب تقريره ويسلمه للمبعوث، كنت أعتقد أنه سيتحدث معي قليلًا لكنه حفظ ما بقي من كرامتي وأنهى الأمر، قبل أن يصدر حكم المحكمة، قربَّ أحد الأشخاص الهاتف من أذني.

- حسن، هناك تقريران في طريقهما للقاضي، أحدهما يحمل براءتك والآخر سيحرمك من سيف، أعطني الصندوق وسأعطيك ابنك والعشرة ملايين.

لا أجيب، ويصدر حكم المحكمة بسلبي حضانة سيف وجدولة رؤيتي له بما يتناسب مع ظروف الأم والطرق الآمنة التي تسمح بها، عدت إلى شقتي بنصف بنطلون ومنامة زيتية كما تركتها، تهالكت على الأريكة كجدار متهدم، أفكر في محامٍ مخضرم يطعن في الحكم ويرد إلي سيفًا، أنا لا أستسلم أبدًا يا حمقى، أنا مرهق ووحيد ومأزوم لكني لا أستسلم، أشعر بالإهانة وطعم الهزيمة اللاذع لكن لا سبيل آخر، يرن هاتفي مرة أخرى: - حسن، تعرف أننا نستطيع أن نطعن على الحكم ونغير الأدلة والشهود ونعيد إليك سيفًا فلا تضيع وقتك ووقتنا.

أغلق الهاتف وأترك لنفسي المثقلة رغبتها في الانسحاب بعيدًا عن هذا العالم، عندما أستيقظ سأجد ألف حلٍ إن شاء الله.

عندما استيقظت كان جرس الشقة يصدح بدويٍّ بعيد ثم طفا فجأة ونزعني من مكاني، فتحت الباب ووجدت نور، كانت متوشحة بوشاح أسود أظهر جمال وجهها، تنظر إليّ بارتباك واضح، أثر النوم في رأسي يُغيّب الكثير من الوعي والاتزان، أرمقها طويلًا كأني أستطلع قادمًا غريبًا.

- هل ستتركني واقفة على الباب يا حسن؟

أثوب إلى رشدي شيئًا فشيئًا، أفسح لها وأتذكر شهادتها في حلقة سلمى، تغشاني كآبة قاتلة، تتقدم إلى غرفة الاستقبال متخاذلة وخاضعة، تلقي نظرة مشفقة على هيئتي الرثة.

- لم تبدل ثيابك بعد!

- ماذا تريدين يا نور؟!

يتضرج وجهها تقول إنها لم تعتدني قاسيًا بهذا الشكل.

- أنت صلب من الخارج وصعب التوقع، لكن أنجذب إليك كقطعة حديد صدئة إلى مغناطيس.

كلام خطير يطرق قلبًا خاويًا بلا روح.

- لا بأس يا نور، أخذت منك شرفك وأخذتِ مني سيفًا وشرفي أيضًا. هل نحن متعادلان الآن؟

تتوتر ملامحها الرقيقة وتغمرها موجة غضب، توقعت أن تغادر الشقة في الحال، لكنها تماسكت ونظرت إلى عيني مباشرة، قالت: - أعلم أنك حزين وغاضب -حري بك أن تفعل- لكن أرجوك لا تظن بي سوءًا فأنا لست ناكرة للجميل، أريدك أن تعرف أن سلمى نصبت لي فخًا، كنت محطمة ولا أحد يثق بي حتى أمي، لجأت إليها لأستعيد شيئًا من نفسي، لم أكن أعلم أنها زوجتك، في الواقع لم يكن ليخطر لي على بال أن سلمى جمال تكون زوجتك.

أشعرتني أنني صغير لا أُرى بالعين المجردة، كانت تتحدث بعفوية وحماس، الحماس دائمًا أعمى ويزعجني، تمد سبابتها وتشير نحوي وترتسم على وجهها تعابير متحفظة، أردت أن أصرخ فيها وأقول إن في عروقي دمًا نبيلًا وليس ماء كالذي يجري في عروق سلمى وأمثالها، أنا سليل أسرة عريقة خضع لها جدود سلمى كرعاة إسطبل وسائقي سيارات السراي، لكني صمت وابتلعت الإهانة غير المقصودة بروح رياضية، لم يعد الواقع يقبل عجرفة كاذبة، ما مضى مضى والحاضر أصدق من ألف ذكرى وموقف وتاريخ، ليذهب التاريخ إلى الجحيم ما دمتُ لا أستله للدفاع عن ابني، أنا حقًّا صغير يا نور ولا أصلح لأكون زوج امرأة بنفوذ سلمى، أمام نظرتي الكابية تقول نور: - لا أقصد الإهانة والله لكني تفاجأت حقًّا، سلمى جمال.. يا إلهي! حسن، هل أنت بخير؟

أريد أن أنام هذا كل شيء، لم تقترب مني نور هكذا؟ تتحسس جبهتي بيدها الناعمة، هل هذا عرق؟ أنا مخدر ومرهق ولا أستطيع المقاومة يا أولاد الكلب، عندما أستيقظ سأجد ألف حلٍ.

***

أفتح عيني تدريجيًا، جفناي ثقيلان لا يستجيبان بسهولة، نور تقف عن يميني وسعيد يجلس على طرف سريري، أنا ممدد بينهما على فراشي ويتساقط محلول طبي في نهايته إلى وريدي قطرة قطرة، أقول بصوت لم آلفه: - ما الذي حدث؟

- هبوط حاد في الدورة الدموية، أنت لا تأكل ودائم التفكير وهموك كبيرة.

- دخلت لأعد لك طعامًا لكن ثلاجتك فارغة ومطبخك خاو كمعدتك!

حتى جسدي تمرد علي، تقول إن الطبيب وصف لك وجبة دسمة كعلاج، أحضرت طبقين كبيرين ينبعث منهما بخار راقص، يقول سعيد بارك الله في اللحم والثريد، شهيتي معطلة كأن معدتي مسدودة بحجر، أترجل وأذهب إلى الحمام، أنزع ملابسي وأنتعش بملمس الماء على جسدي، تهبط أرذالي مع خيوط الماء التي تهطل مني، أعود إلى غرفتي أكثر تيقظًا وثباتًا، سعيد ونور ينتظران في الخارج، رؤيتي للطعام تجدد عصارتي، يتفتت الحجر وتتحرك شهيتي كقطرات المحلول قطرة قطرة، عندما أخرج إلى ضيوفي

تقول نور إنها وجدت طريقة لإظهار الحقائق، تمد إليّ هاتفها وتقول: - هذه صفحتي على الفيسبوك تصل إلى مليون متابع.

الصورة الشخصية مقسمة إلى نصفين؛ النصف الأيمن حمل نصف وجه نور والآخر نصف وجه سلمى، اسم الصفحة أنا وهي والمرأة، المنشورات التي كتبتها نور تهاجم فيها سلمى وتظهر نفاقها بأسلوب أدبي فخم مائل للسخرية، تحكي كواليس استدعائها إلى البرنامج مرة في فيديو على الصفحة يجلب مليوني تفاعل، وتارة في منشور يجلب مئات الآلاف، كنت مبهورًا بهذه الخطوة حقًّا.

- متى خطرت لك الفكرة؟

- في نفس اللحظة التي طُردت فيها من الاستوديو.. سأريك شيئًا آخر.

تفتح صفحتها الشخصية على تويتر، تريني الوسم المتصدر «#سلمى_جمال_تاجرة».

أبتسم رغمًا عني، تقول نور:

- هل سامحتني يا حسن؟

- 15 -

كنت معزولة في غرفتي، لا تحدثني أمي ويتجنب سعيد النظر في عيني تمامًا، حتى طعامي كنت آخذه إلى غرفتي، لا أفعل شيئًا سوى دفن رأسي بين كتب التاريخ وقراءة الأساطير القديمة، حاول حسن التحدث إليَّ من خلال المكالمات والرسائل لكني تعمدت أن أبتعد عن هذا العالم، أستعذب كوني ضحية تارة وأنقم على ضعفي تارة أخرى، صحة أمي تتدهور، ضغطها يرتفع بلا مبرر ويهبط مرة أخرى، فحصها الطبيب ووصف لها أقراصًا تمنع ارتفاع ضغط الدم، عرفت من هند عن طريق سعيد أن حزنها الأخير هو ما سبب لها هذا الاضطراب، بكيت في غرفتي في صمت، وعندما رن هاتفي عدة مرات متلاحقة وعرفت أنه ليس حسن فتحت المكالمة: - أستاذة نور، أهلًا بحضرتك.

- من يحادثني؟

- أستاذ أمجد، معد برنامج أنا والمرأة.

شهقت وحدست ما سيطلب مني.

- توصلنا إليك بصعوبة من خلال حسابك الذي أرسلتِ منه الرسالة، هل أنتِ مستعدة لتعرضي مشكلاتك على الهواء مباشرة؟

ترددت وطافت في رأسي الكثير من الأشياء، ظلم الكلية في التعيين وظلم المجتمع والعالم كله، كنت بحاجة لأن أشكو لشخص واحد لكن شعبًا بأكمله شيء صعب.

- أنا آسفة، لكن لا أحب الظهور على الملأ.

- لا بأس يا نور الكل يخشى الظهور على الشاشة، لكن صدقيني ستعتادين بعد ثلاث دقائق لا أكثر، لا تفوتي فرصة ذهبية مثل هذه يا أستاذة.

هل سأفضح حسن أم أفضح نفسي على الهواء مباشرة؟ ثم وائل وحادثة الشقة! سأتسبب بقتل أمي هذه المرة.

- أرجوك، لا تضغط علي.

أغلقت الهاتف وعدت إلى كتبي، لكن عقلي ظل شاردًا بعيدًا يعيد التفكير في العرض مرة أخرى، سمعت أمي تنادي عليّ بالخارج، قفزت من فراشي وهرعت إليها، عندما رأتني عاد إليها عبوسها الرهيب، ناولتها أقراص الدواء كما طلبت، أخذتها ولم تنهض من فراشها، لم أرجع إلى غرفتي وجلست بجانبها، تسللت يدي إلى رأسها وداعبتها، جرت دمعة حامية من عينها على وجنتها الجميلة، تمالكت نفسي وقلت: - سامحيني.

لم ترد أمي، فقط أشاحت عني، قالت بعد فترة صمت انصهرت فيها: - أنتِ لن تتزوجي أبدًا.

- لا أريد الزواج.

زفرت أمي كأنها تلفظ نفسها الأخير.

- لا يوجد امرأة في العالم لا تريد الزواج.

- من يتزوجني يتزوجني كما أنا.

- إذا كنت آخر فتاة في الدنيا ربما.

تسارعت نبضاتي.

- هل أنا معيبة إلى هذا الحد يا أمي؟

- خسارة أن يبور كل هذا الجمال، لكن للسوق مطالبها دائمًا.

ملأني الغضب حتى فاض من عيوني وأنفاسي كنيران الجحيم، سارعت إلى غرفتي وأنا أقول: - إذًا سأغير هذه المطالب!

عندما ارتميت في فراشي رن هاتفي، استقبلت المكالمة، صوت أنثوي رائق وبالغ العذوبة.

- نور، كيف حالك؟

- من معي؟

- أنا سلمى جمال يا نور، لماذا رفضتِ الخروج معي في البرنامج؟!

تبخرت كلماتي من أثر المفاجأة، شعرت أن جناحين شقَّا طريقهما من ظهري وأحلق بعيدًا جدًّا عن الشقة والحارة وكل أعباء المجتمع التي تكبلني.

- أستاذة سلمى، حضرتك لا تتصورين مدى سعادتي بهذه المكالمة.

- ستسعدينني حقًّا إذا حضرت إلى برنامجي الليلة يا نور.

- الليلة؟!

- نعم.. سيكون شيئًا رائعًا وسنناقش أمورًا كثيرة معًا ولو رفضتِ الحديث عن مشكلتك سنحترم ذلك جدًّا يا عزيزتي.

- أستاذة سلمى، أنا أقدر جدًّا لكن..

- لا تخشي شيئًا أو شخصًا، سأحميك من أي وغد يمس عرضك بشيء.

- أنا لس..

- سأرسل لكِ السيارة في السادسة مساءً، لا تخذليني يا نور.

أغلقت المكالمة قبل أن أشرح لها موقفي. لكن سلمى جمال هي الشخص الوحيد في العالم الذي يفهمني، أضم ركبتي إلى صدري، أحتضن نفسي وأفكر، إحساس الغبن وهواني على أمي يدفعني إلى الجنون، مجتمع وسوق ومطالب، اللعنة عليهم جميعًا، ما الذي سيحدث لو خرجت معها على الهواء

مباشرة وشنعت على كليتي وظلمهم لي! سأوضح أن الأمور بيني وبين حسن ليست سيئة كما يظنون، لن أقترب من وائل لكني سأحذر من الخطوبة وأضرارها.

على مشارف السادسة مساءً خرجت إلى أمي، كانت جالسة في الشرفة تراقب اللاشيء.

- لدي لقاء على الهواء مباشرة.

تنظر إليَّ في غير صدق.

- لقاء على ماذا؟

- سأخرج مع سلمى جمال شخصيًا.

تبتسم ابتسامة كاذبة، تمص شفتيها مصدرة صوت مزعج.

- لا تصدقين، أليس كذلك؟

- وما هو سبب الاستضافة الكريمة؟!

- سنتحدث في مشكلات المجتمع والمرأة.

تهز رأسها باستهتار.

- وماذا تعرفين أنت أو هي عن المرأة؟

السخرية مني لا تعني شيئًا، لكن من سلمى جمال فهي كبيرة لا تغتفر.

- أمي، أنت إذًا توافقين على ظهوري أنا وهي على الهواء؟

أشارت بيدها إشارة بلا معنى، تظن أنني أهذي وكانت هذه أسهل موافقة حصلت عليها، ارتديت ثيابي وتجهزت للخروج، حملتني السيارة إلى استوديو أنا والمرأة، كان خلية من النحل دائبة الحركة، صحبني المعد الذي كلمني إلى غرفة جانبية لتوضيب بعض الأشياء في شكلي، تلقفتني فتاة تجميل، مررت فرشة سوداء على بشرتي، هندمت حجابي ورشت عطرًا في وجهي ورأسي وقميصي كأنها تريد أن تمحو آثار الحارة، عندما بدأتُ التصوير وجدت نفسي أبتسم تلقائيًا رغم كفيّ الملتحمتين في عناق أبدي، التقطت عدة صور لنفسي احتفالًا بهذه المناسبة قبل أن يطلب المخرج مني أن أغلق الهاتف، سلمى جاءت كملكة تتبعها حاشيتها، ترتدي بدلة زرقاء داكنة، شعرها كستنائي وعيونها واسعة، عمرها لا يتجاوز الخمسة والثلاثين عامًا على أقصى تقدير، مصافحتها أقل حميمية من محادثتها على الهاتف! ربما غفلت عني، لكنها بعد أن فرغت من التنظيم عادت إليَّ وتأملتني بنظرات غامضة.

- نور شاذلي مختار ابنة عم حسن!

- نعم يا أستاذة.

- أنت جميلة حقًّا يا نور كما سمعت عنك، هل نبدأ التصوير.

أومأت برأسي.

- ثلاثة.. اثنان.. واحد.. ابدأ.

تقول سلمى:

– خذي راحتك سيتم قص أي شيء لا تريدينه، وسؤالي لكِ: متى تم اغتصابك على يد ابن عمك؟

– في الواقع كان هذا منذ دهر مضى، ولم يعد يشكل لي أزمة حقيقية، وعلاقتي بحسن أصبحت مختلفة تمامًا عن ذي قبل وك..

– ماذا تعنين بعلاقتك بحسن أصبحت مختلفة عن ذي قبل؟!

– أعني أنه نادم بشدة واستطاع أن يكفر عما فعل بأمور عديدة.

– متى تم اغتصابك يا نور بالتحديد؟

– في العاشرة، عندما كنت في الصف الرابع الابتدائي.

– هل شعرت بألم أو نزفت؟

– أشعر بالكثير من الخزي والخجل من هذا السؤال.

– هل تكرهين حسن يا نور؟

– الآن لا أكرهه مطلقًا.

– هذا واضح، لكن هل كرهتِ حسن من قبل؟

– كرهته، وكنت أدعو الله أن يسخطه قردًا.

تضحك ويضحك من في الاستوديو.

– كيف نظر المجتمع إلى ضحية مثلك؟

– حملني كل الأخطاء والذنوب التي في العالم.

– هل أنت ناقمة على المجتمع؟

– حتى أنسى نظرة الآخرين لي.

– كيف تعاملت مع الأمر؟ كيف تصالحتِ مع هذا المجرم؟

– هو لم يعد مجرمًا، لكني خضت الكثير من جلسات العلاج وأود أن أشكر الدكتورة ملك الخولي بهذا الصدد بالإضافة لدخولي العديد من التجارب، كما أن لصديقتي هند فضلًا كبيرًا، ثم في النهاية حسن نفسه ساعد في كثير من القضايا.

– كيف ساعدك حسن في كثير من القضايا؟

– أول شيء تكفل بعلاجي عندما أرهقتني التكاليف وثان...

– لا بأس، هذا يكفي يا نور.

– كنت أريد أن أذكر لك الظلم الذي وقع عليّ في الكلية.. هو السبب الرئيسي في القدوم إليك.

– بالتأكيد، سنتطرق لهذه الأمور فيما بعد.

تقدم مني شخص ما ثم خرجنا من مساحة الكاميرا.

كانت الساعة التاسعة على بعد دقيقتين، هجم الكثير من الأشخاص على سلمى لتوضيب خصلات الشعر وتجفيف أي رطوبة في بشرتها، هندموا بدلتها الزرقاء ومسدوا رموش عينيها، كانت متألقة، عندما انتهى العد التنازلي أخطأت في المقدمة خمس مرات، سمعت موسيقى البداية مرتين وفي الثالثة استطاعت سلمى أن تتجاوز المقدمة ليسقط فكي السفلي كأي بلهاء تمامًا وأصعق من المفاجأة.

– مساء الخير ضيوفي الكرام، اليوم سأقدم لكم ضحية مختلفة عن كل الضحايا السابقين، ضحية الكذب والخداع والخيانة، امرأة كانت تستضيف وتحتضن مشكلات الآخرين وظنت أنها بمنأى عما يحدث للمجتمع المتعفن من حولها، حسنًا عليها أن تعترف أنها ضحية بالفعل وعليها أن تلقي بأحمالها وتشاركها مع جمهورها لعلها تجد بعض الراحة في الفضفضة أو سلامًا في تعاطفه معها، أقدم زوجي الذي أصبح طليقي الآن، حسن سليم مختار، سليل أسرة عريقة أو كانت قبل أن يجرفها الزمن مع تياراته، زوجي السابق اكتشفت أنه بيدوفيليك وعاشق لجنس الأطفال، مغتصب قديم تطارده جرائمه حتى اللحظة، كل شيء ظهر لي عندما قتل ذلك الرجل بدم بارد بحجة أنه يثأر لأبيه، لكن اغتصابه للقاصرات ثأرٌ لماذا يا ترى؟!».

تجفف سلمى دموعًا وهمية ويتهدج صوتها ثم تطلب فاصلًا، أقف مشدوهة أمام صورة حسن التي ملأت نصف الشاشة، كان يبتسم ويرتدي بدلة سوداء بقميص أسود وأسنانه البيضاء الناصعة تضيء في الكادر كحبات لؤلؤ، حسن هو زوج سلمى جمال؟! يا للعجب! وإمعانًا في تحطيمي نهائيًا تبث سلمى مقطوعات من حواري معها وأنا أكره حسن وأتمنى أن يسخطه الله قردًا، تدمع سلمى ويأتي وجهي وأنا أقول بحقد إني أكره المجتمع، اجتزاءات منتقاة بعناية خدمت تشنيع سلمى على ابن عمي بأقذر طريقة، تقول إنه كان عنيفًا معها في الفراش بصورة مَرَضية، هرَّبت ابنها بعيدًا عنه للأفكار المتطرفة التي بثها في رأسه، ثم اكتشفت أنه يتحسس جسم سيف بطريقة مريبة أثناء خلوته به، ثم تتجه إلى الكاميرا الرئيسية وتقول: – أتقدم ببلاغ للنائب العام أن يحميني وابني من مغتصب الأطفال، أنا أم، وكل ما أطلبه من الحياة هو أن أحيا بأمان مع صغيري.

جن جنوني وصرخت في أثناء البث:

– أنت كاذبة ومنافقة!

لم يصل صوتي سوى للفريق الذي حولي، أما البث فله ميكروفونات خاصة، تقدموا مني واصطحبوني بخشونة إلى الخارج، وللمرة الثانية وجدت نفسي أمشي طريدة ومهانة ومغتصبة في مدينة السادس من أكتوبر، ألتفت حولي لعلي أعثر على حسن أو يعثر هو علي ويلفني في سترته السوداء، تحاملت على نفسي ووقفت على جانب الطريق، أخرجت هاتفي وحددت موقعي على برنامج أوبر، بعد عدة عصور جليدية وقفت أمامي السيارة وانزويت بداخلها هاربة من مدينة الأشباح.

فتحت الباب وتسللت برفق، كنت فاترة ومستسلمة لأي هجوم، سعيد يجلس في الشرفة يتحدث بهاتفه، وأمي تجلس بجانبه تنصت له، قلبي يقفز في صدري مثل كرة تنس، هو يتلقى الخبر الآن، سأظهر له على الشاشة وأنا أعترف باغتصابي من ابن عمي ليعرف العالم كله، دمي ينسحب من شراييني ويتسرب على هيئة خوف ينبعث من مسامي، في المرآة التي تواجهني أكتشف كم أنا شاحبة وحلقي جاف كتربة متشققة، أقف في منتصف الغرفة خلفهم مباشرة، أنتظر مصيري بصبر زاهد، لقد أخطأت وأتحمل عاقبة خطئي كاملة، تحين من أمي التفاتة مفاجئة، تسري في جسدي رعدة.

– نور، تعالي. سعيد حدد موعد الزفاف.

هم لا يعرفون إذًا، لم أتفاجأ بموعد زفاف سعيد، هند تخبرني بكل شيء، جلست بينهما مضطرة وعلى وجهي ابتسامة مسروقة، بين أفكاري الكثيرة والمتطاحنة تقول أمي: – ما بك يا نور؟

أستعد لتماسك وهمي ورسم ابتسامة أخرى أخدع بها أمي، لكن دموعي تسبقني وانهياري كان صاخبًا، تقترب أمي وتحتضن كفي، وسعيد متلهف ومقبوض، أشرع في الاعتراف بكل ما حدث، يتلون وجهاهما بين كره وغضب وحزن ثم عتاب صامت.

– ركبتِ دماغك وذهبتِ إليها.

تقول لائمة دون غضب مني أو حقد، إنها فقط –ويا للعجب– مشفقة علي، أتحاشى سعيدًا الساهم وأخشى ردة فعله لكنه يقول: – سلمى هذه امرأة قذرة ما كان عليك تصديقها، لقد تزوجت صديق حسن الذي كان يعمل لديه وجعلت منه رجل أعمال كبيرًا لكي تذل حسن.

أحدق إلى الوجوه التي تخلت عن صرامتها وأندهش، ألن يقسو عليّ أحد وأتحمل ما يحدث لي؟

– أنت فقط ساذجة وعنيدة.

لأنهما لم يريا الفيديو، لكن إن شاهداه ستختلف ردود فعلهما، لكن لم يتغير شيء، صمتهما جاف وهمها ثقيل، تجمدت دموعي ونشأ محلها حقد دفين على سلمى.

في غرفتي قررت أن أصلح شيئًا مما أفسدته، لا أدري من أين هبطت الفكرة لكني أنشأت صفحة جديدة على الفيس، ملأت البيانات، الاسم هو «أنا وهي والمرأة» شعرت أنها تتاجر بالمرأة وأن عليّ أن أكشف ستار الوقار والتضحية التي تغطي بهما وجهها القبيح، صورة الصفحة تقاسمناها معًا، كتبت المنشور الأول: – ربما لا تصدقون لكن سلمى جمال مخادعة كبيرة وإليكم الدليل...

توقفت أمام الدليل طويلًا، واكتشفت أنني لا أملك ما أقيم عليه ادعائي، وعندما هممت أن أقذف بالهاتف عرض الحائط، طفرت الفكرة فجأة في رأسي كنبتة تشق سطح الأرض، قمت بإخراج الرقم الذي هاتفتني به، اتصلت بها، رن الجرس طويلًا حتى شعرت بحماقة ما أفعل، أمثال سلمى لا يهاتفون أحد بأرقامهم الخاصة ربما كلمتني من رقم المعد الآخر، لكن وللمفاجأة التي زلزلتني ردت سلمى بصوتها الرقيق النافذ: – ألو.

– أستاذة سلمى كنت أود أن أعرض مشكلتي.

- من يحادثني؟!

- أنا نور شاذلي مختار، هل نسيتِ صوتي؟

- أنت حمقاء حقًّا يا نور حتى تعيدي الاتصال مرة أخرى!

أغلقت الخط وكنت قد حصلت على أبعد مما حلمت به، كانت فكرتي أبسط من هذا بكثير، سيرد عليّ أحد العاملين لديها وأفتعل معه حوارًا يثبت شيئًا مما سأنشره للعامة، حفظت التسجيل وقمت بتحميله إلى منشوري الأول، كتبت: - ليس هذا فحسب، سأعرض عليكم قائمة المكالمات؛ لأريكم أنها اتصلت بي هي ومعد البرنامج بعد عصر اليوم للتأكيد على حضوري للحلقة، وسأشرح لكم في المنشورات التالية كواليس الفخ الذي وضعتني فيه.

قمت بالنشر وأرسلت العديد من الدعوات لكل صديق على صفحتي الشخصية وطلبت منهم أن يشاركوا المنشور والصفحة حتى تتسع رقعتها الافتراضية، لعدة دقائق أظل أحدق إلى الشاشة أراقب عداد الإشعارات دون فائدة حقيقية، لا يوجد أي تفاعل مع الوسيلة التي أعلنت بها الحرب على سلمى، سكن الإحباط أعماقي وشعرت بفتور خانق، دخلت إلى الحمام وملأت الحوض بالماء الساخن، نزعت ثيابي وغرقت بداخله منعزلة تمامًا عن أي أذى يأتيني من الخارج، أغمض عيني وأسترخي، تعودت على كتم أنفاسي لدقيقة ونصف، عندما أوشكت عروقي على الانفجار نهضت لاهثة ككلب محموم، لم أقدر هذه المرة على تجاوز أربعين ثانية، فشل الماء الساخن في خفض توتري، أجفف جسدي وأرتدي منامتي، أنكمش في فراشي مقهورة وعيناي محملتان بالدموع، عندما أستحضر وجه حسن الغاضب تنتابني رعشة سريعة، بشكل ما أشفقت من خذلانه مرة أخرى، تتسلل يدي إلى هاتفي وأهم بمراسلته، سأعتذر منه وأقسم له إنني ذهبت لشيء آخر مختلف عما تورطت فيه، أفتح الهاتف وتغمرني عشرات الإشعارات، صفحتي الجديدة على فيسبوك صاخبة إلى حد غير معقول، المنشور تجاوز الخمسمائة تفاعل وعشرات التعليقات والمشاركات، طلبات للمحادثة على الخاص، أنتفض في فراشي وأحدق إلى هاتفي مذهولة، لم تمضِ ساعة على تحميلي المنشور، كم أنا حمقاء في استعجالي! تتضح الأمور شيئًا فشيئًا، ظهوري في حلقة سلمى أكسبني انتشارًا ونوعًا من المصداقية، سلمى جمال مشهورة بالقدر الكافي لأن تتفاعل الملايين مع أخبار تخص زوجها المتحرش، وزوجها المتحرش هو نفسه الشخص الذي ظهر منذ شهر وذبح شخصًا آخر بحجة أنه يثأر لأبيه، والأدهى أنه اغتصبني وأنا ابنة عمه وأهاجم زوجته التي من المفترض أنها تدافع عني! قضية متشابكة وتهز الرأي العام الداخلي وربما تلقي بظلالها على الخارجي أيضًا، كيف لم أنتبه لكل هذا من قبل؟!

لم تتوقف الإشعارات أبدًا، تظل تهطل كسيل متدفق يحيل جفافي إلى حياة، التعليقات متعاطفة أحيانًا ومتشككة أحيانًا أخرى، لكني تفاجأت من بعض التعليقات التي تهاجمني، وما زاد استغرابي أنهن فتيات تحزَّبن للدفاع عن سلمى جمال ونعتنني بالمأجورة، كدت أحترق من الغيظ، هممت بالرد عليهن لكن العشرات قاموا بالهجوم المضاد، تحول المنشور إلى ساحة لتصفية الحسابات بين مختلف التيارات،

تجاوز المنشور ألفي تفاعل ومثلهم من التعليقات، أصبحت مفعمة بالكثير من الثقة والثبات، علقت بهدوء من يملك كل هذا: - إلى من يهاجمني، أنا لست مؤدلجة أو مدسوسة، أنا أكبر من هذا، كصاحبة قضية وحق شرعي في فضح المرأة التي تاجرت بعرضي لتصفية حسابها مع طليقها الذي هو -ويا للمفاجأة- ابن عمي.

لم أكتب وغاصبي، شعرت بثقلها وفقدانها لصلاحيتها، التعليقات المتوالية على تعليقي ذكرتني بها، الهجوم مستمر والدفاع مستميت، نشرت المنشور الثاني مع تواشيح الفجر: - في السَحَر أدعو الله الكريم أن ينتقم من كل ظالمٍ ومفترٍ عليّ ببهتان.

أرفقت به صورة التقطها لنفسي أمام مرآة في استوديو التصوير، وتظهر خلفي كاميرا عملاقة وشعار أنا والمرأة.

- هذا توثيق آخر للحظة تحضيري للجزارة سلمى جمال.

يُحدث هذا المنشور زلزالًا بقوة ألف ريختر، الجميع يؤمن ويحسبن على سلمى، الكثير يسخر من الأجواء الدرامية التي أعيش فيها، والكثير أيضًا يتغزل في ملامحي بطريقة صريحة! لكن متابعي الصفحة في ازدياد مثير، يؤذن الفجر وأنا مكاني في فراشي أؤجج وقود النيران إذا خبت، أنهض لأصلي وأعود مرة أخرى لمسايرة الأحداث والمعارك، عندما سمعت خطوات أمي الرتيبة في الخارج علمت أن الصباح قد قهر الليل، ساعة أخرى وتخترق الشمس ستائر نافذتي، ثم أقل من ساعة وتخترق أذني دقات متسارعة على الباب، أعرف هذه النغمة جيدًا، أنهض لأفتح الباب وأبدي استغرابي في وجه هند قبل أن تدخل، تسحبني من يدي إلى غرفتي مباشرة.

- ما الذي يحدث؟!

- أيتها المجنونة ماذا سيقول سعيد وأمي عندما يجدونك هنا والآن؟

- نمت واستيقظت منذ ساعة لأجد صفحتك الجديدة والمثيرة! لم أستطع أن أنتظر، أصبحت مشهورة ومثيرة للجدل في ليلة واحدة!

أروي لها ما حدث في حلقة الأمس وما تلا ذلك، تقترح أن نشاهدها على اليوتيوب، كانت هذه المرة الأولى التي أشاهدها من الخارج، تقول إنني دمرت حسنًا نهائيًا، تضغط باعترافها هذا على جرح متقيح في روحي.

- لهذا أنا أقود هذه المعركة دفاعًا عنه.

تمط شفتيها باستغراب واضح.

- لو كنت سألتني قبلها لنصحتك بعدم المخاطرة بشيء تافه مثل هذا، لكن الآن أصبحت كفتك راجحة يا نور.

نفكر معًا في صياغة المنشور الثالث، تقترح أن أحتفظ بالصورة السلفي التي أخذتها أمام مبنى القناة في مدينة الإنتاج الإعلامي؛ حتى لا ينفد كل ما لدينا ولا نجد شيئًا ننشره، أتذكر الرسالة التي أرسلتها على صفحة البرنامج، أوثق الرسالة ورد البرنامج ثم أقطع الفيديو الذي يُظهر سلمى وهي تواسيني وتقول في خاتمة المواساة نون شين ميم، أبدأ منشوري الجديد.

– سأحكي لكم موقفًا طريفًا حدث في برنامج العزيزة سلمى جمال، لقد ظلت لخمس مرات تحاول أن تلقي المقدمة ذات الجمل السبع ولم تقدر حتى أني سمعت المخرج خلفي وهو ينعتها بـ «الحلوفة التي لا تعرف شيئًا» ثم أرفقت الرسالة والرد والفيديو وكتبت في آخر المنشور #سلمى_جمال_تاجرة.

– هل وصفها بالحلوفة فعلًا؟

– لم أسمعه، لكنه كان يقول «استووب» بطريقة غاضبة، ألا تعتقدين أنه قالها ولو بينه وبين نفسه.

أمام تنبيهات الإشعارات التي لا تتوقف يطرق سعيد باب الغرفة ويدخل فاغرًا فمه، يشير إلى هاتفه قائلًا: – ما هذا؟!

قبل أن أجيب يلمح هند بجانبي، يزداد فمه اتساعًا: – من هذه؟!

***

بعد يومين من الانتشار السريع لصفحتي تعرضت للعديد من محاولات الاختراق والإلغاء بسبب محتواها الضار مجتمعيًا، ألححت على سعيد لتوثيقها، بعد تدخل هند لإقناعه أصبح لدي نجمة زرقاء مطموسة بجانب صورتي، لكن ما اخترقني كالسهم واستقر في أحشائي هي صورة حسن البائسة ببنطلون قصير وبدلة للنوم يقف أمام القاضي بتهم عديدة أقصاها تحرشه بطفله، آلمني تماسكه وابتسامته الهشة، كان يبدو صلبًا لكني شعرت بخوائه وقلة حيلته، وحيدًا وعاجزًا يواجه العالم كله بماضٍ لم ينطفئ وحاضر ساهمتُ في إشعاله، تنقل الكاميرا شعره المشعث ولحيته المهملة وبشرته الناصلة وتسيل دموعي حارة على وجنتي، يداه مصفدتان ويقرِّب شرطي عجوز الميكرفون من فمه ليرد على القاضي الذي سأله عن اسمه، ينتهي الفيديو عند هذا الحد، وتخرج صور عديدة للمحاكمة يظهر منها أن حسنًا يدافع عن نفسه أمام جيش من المحامين والحقوقيين وحاشية سلمى، ثم يصدر في نهاية اليوم قرار بعدم صلاحيته لحضانة سيف، اتخذت قراري وتهيأت لزيارته وليحدث ما يحدث، ترمقني أمي بنظرة متفهمة، تقول: – هل أذهب معكِ؟

ثم تقول:

– اذهبي، وسأتبعك بسعيد.

أمام باب الشقة أتعثر في ترددي، آخذ من يأسي قوة وأضغط زر الجرس، المزيد والمزيد من الضغطات، يتأرجح ثباتي كريشة في عاصفة القلق التي اجتاحتني، ضغطت باستمرار على الجرس وراودني إحساس أنه لم يحضر بعد، هممت بالرحيل لكن الباب انفتح أخيرًا، يتأملني حسن بنظرة تائهة، ثم يفسح لي الطريق فأمرق إلى عشه مهلهلة المشاعر توشك قدماي أن تنهارا، أجلس على أقرب كرسي وأتابع

الشبح الذي فارقته الحياة يتقدم ليرتمي على أريكة في مواجهتي، شرعت بالاعتذار منه وأقسمت له إنني مخدوعة، جفاؤه الذي قابلني به لم يغادره، ثم فجأة تزداد ملامحه شحوبًا وتغور عيناه أكثر من ذي قبل، تتلعثم كلماته ويهبط تدريجيًا في سلم الوعي حتى غاب تمامًا.

هاتفت سعيدًا بصوت مختنق يخرج بين دموعي بصعوبة، جلست بجوار حسن على الأريكة وأسندت رأسه إلى صدري وانتظرت، إنه يتنفس وقلبه ينبض لكنه لا يستجيب، الطبيب فحصه بعناية ثم قال وهو ينزع الضامة التي لفها حول ذراعه: - هبوط حاد، ونقص السكر في الدم.

يعلق له محلولًا طبيًا ويوصي بأن يتغذى جيدًا ويرتاح كثيرًا، أتأمل وجهه بشك، يبتسم ويقسم إنه لا شيء آخر! جلست إلى جوار حسن وهو ممدد في فراشه، بشرته شاحبة ونحل وجهه كثيرًا عن المرة الأولى التي قابلته فيها مرتبكة ويائسة في الورشة، أنهض إلى مطبخه الفخم ككل شيء في شقته فلا أجد شيئًا سوى الفخامة وأواني فارغة وثلاجة بلا مثلجات، ألا يأكل شيئًا هذا الحسن؟! يحضر سعيد الطعام من الخارج وأشرع في تجهيزه في مطبخ حسن وإحساسي بالغرابة يتبدد داخل صدري، يرن هاتفي فأجيب أمي وأكذب بشأن مرض حسن، اعتادته صلبًا لا يتأثر بما نتأثر به، أنهي مكالمتي معها وأعود إلى نشاطي الذي بدأته في الأيام المنصرمة، الاشتباك بوتيرة عالية مع سلمى جمال في عالمي الافتراضي، تجاوزت صفحتي خمسمائة ألف متابع منذ يومين، لكن عندما ألقيت نظرة على عدد المتابعين الآن انتابتني قشعريرة وصرخت كالمجنونة في مطبخ حسن، كان سعيد يقف مفزوعًا خارج الباب، اقتربت نحوه متجاهلة الغضب الذي اجتاحه لنزقي، أشرت إلى هاتفي: - انظر عدد متابعي الصفحة!

قرأ ببطء وأعاد القراءة مرة أخرى:

- مليونا متابع!

كنت منتشية ولا أستطيع السيطرة على أعصابي، قلت: - ماذا أنشر الآن؟ أريد أن أنشر شيئًا يدمر هذه المأفونة.

سعيد يحدق إليَّ متجهمًا:

- هل حقًّا لا تدرين لِمَ زاد عدد متابعي الصفحة بين عشية وضحاها؟

أقرأ ملامحه الناقمة متوجسة.

- أنتِ تستفيدين من ظهور حسن أمام العالم «بفانيلا وشورت» في محكمة متهم بالاغتصاب والتحرش.

تحاملت على نفسي وقلت بلهجة متحدية:

- سأثأر له.

يضحك ساخرًا ويذهب ليجلس بجوار حسن، أعترف أنه أفسد نشوتي وجعلني أرغب بسلق الهاتف مع اللحم الذي يتعذب في إناء من الماء المغلي، لكن رسالة ماسنجر التي ظهرت أمام عيني فجأة أعادتني إلى

فورة نشاطي، لم أكن أرد على المراسلات الخاصة، أغلبها لأهداف أخرى غير الذي أسعى إليه، لكن «منى هشام» كانت مثل قبلة الحياة لصفحتي التي لم أعد أدري ما أنشره بها، فتحت الرسالة: - نور، عزيزتي، أتمنى ألا تتوقفي أبدًا. أنا منى هشام التي ظهرت مع سلمى في الحلقة الأخيرة من الموسم الأول، سأرسل إليك رابط الحلقة لكن أولًا يجب أن تعلمي أنني كنت أطالب بميراثي من إخوتي، ولجأت إلى سلمى كالمعتاد واستطاعت أن تقيم دعوة قضائية وحصلت على الكثير من الأراضي في قريتي بالجيزة، لكن الغريب يا نور أنهم أخذوا نصف نصيبي بحجة أنهم ساعدوني، وأقاموا عليها مصنعًا للكيماويات أفسد الأرض المجاورة بمخلفاته وأرهق سعرها تمامًا، الآن أنا فقيرة معدمة ولا أستطيع أن أزرع أو أبيع أرضي للإنفاق على نفسي.

ثم أرسلت منى الرابط والبطاقة الشخصية وصورة حكم المحكمة وصورة للمصنع العملاق في أراضيها، للمرة الأولى تخذلني حماستي، ترددت وشعرت ببعض القلق، يكتسب الموضوع منحًى آخر أخطر مما ظننت، قد يكون فخًا أيضًا يفاقم أزمتي مع حسن، لكن رؤية حسن مسجًّى على سريره ومحلول طبي يُفرَّغ في وريده محت كل تردد: - شكرًا يا منى وسأنشر ما أرسلتِ.

وبلا أدنى تردد قمت بنشر كل ما أرسلتْ كما هو دون زيادة أو نقصان، وكتبتُ في نهاية المنشور #سلمى_جمال_تاجرة.

هذا الوسم في أقل من ساعة كان تصدر تويتر كالوسم الأول في مصر والشرق الأوسط، جرعات النجاح التي أتجرعها أصابتني بالتخمة وجعلتني أكثر ثقة من ذي قبل، قمت بإعداد الطعام وأنا أتابع ارتدادات المنشور في مختلف الاتجاهات، أبحث عن الملح في شقة حسن الخاوية وأقرأ مشاركات الصفحات الرسمية للقنوات ومشاهير التواصل الاجتماعي لمنشوري، أضع اللحم في الطبق وأقرأ منشورًا عريضًا لليوم السابع وهي تتساءل عن حقيقة نور شاذلي مختار وصراعها مع سلمى جمال، ينادي سعيد من الداخل: - ضعي صورتي بجانبك على الصفحة يا نور.

أبتسم، حتى سعيد يعترف بنجاحي، أذهب لأقف بجانب حسن وأتأمل ملامحه الكابية في حنان جارف، يبدو أنني أخيرًا استحققت وقوفي بجانبه في معركته ضد طليقته الفاجرة، تتفتح عيناه ببطء كوردة في صباح نادٍ، ينفغر فمي مع انبلاجة عينه الأولى.

- ماذا حدث؟

يسأل حسن فأقول إن ثلاجته خاوية من الطعام كمعدته، كنت أتصرف بخفة لا تتناسب مع الموقف، رغبتي في تجاوز الأمور عاتية، أنا لست في حاجة للوم وعتاب أحد، حتى حسن، سارعت إلى المطبخ وأحضرت له طعامه، كانت نظرته التي تلقاني بها محايدة، لا امتنانًا حقيقيًا ولا لومًا، تعود إليه طبيعته الثلجية بسرعة هذا الحسن، ينهض من فراشه ويمكث في حمامه وقتًا لا بأس به، أعد أوراقي جيدًا متحينة لحظة خروجه، عندما يخرج من غرفته أضع أمامه الصفحة وصراعي مع سلمى، ملامحه تنفرج

شيئًا فشيئًا، تتملكه الدهشة ثم ينظر إليَّ نظرة مختلفة منذ دخولي شقته، أحسها بروحي قبل أن تلتقطها عيناي.

- متى خطرت لك هذه الفكرة؟!

- لست وحدك من يفكر يا بابا!

أنتهز غياب سعيد في الداخل وأقول:

- هل سامحتني يا حسن؟

ويبتسم هذا الحسن ابتسامة بنكهة الفانيليا.

- 16 -

ما قامت به نور أيقظ روحي من جديد، أعاد حس الدعابة الذي فقدته أمام القاضي وحرك أمواجًا ركدت وغَشِيَها العطن، مثل شعاع ضوء، راح نشاطها يبدد ظلمة يأسي، أتأمل بهجتها وحماسها وأردد في نفسي أن الحماس ليس بالسوء الذي ظننته، مثل الشرارة التي تدير المحرك أدارتني ابتسامة نور وفوق هذا إلحاحها لكي أسامحها، تذكرت عينيها البريئتين ووجهها الذي تتفنن في تشكيل ملامحه على موجات إحساسها وأبتسم، الصورة التي في جيبي تخرج للمرة الأولى بعد أن اعتزلت الحياة، دققت في ملامح صاحبها وحددت العنوان الذي سُجل على ظهرها وانطلقت بسيارتي، كانت بوادر الغروب تغزو الأفق، ركنت سيارتي أمام فيلا صغيرة هادئة في التجمع الخامس، نزلت من السيارة وتأملت السياج المحيط بها، قرأت اللافتة المطبوعة على المدخل، فيلا محمود عباس، وقفت أمام الباب وضغطت على زر الجرس مرات متتالية حتى أتاني صوت ناعس: - من؟

- حسن سليم.

يصمت حتى هممت بالرحيل، ينفتح الباب الحديدي ويقول:

- تفضل يا حسن.

تقودني الطريق الترابية إلى الباب الرئيسي، مفتوحًا على مصراعيه، ويتقدم شاب أربعيني قاسي الملامح على كرسي متحرك ببطء ويتوقف قبل أن يمسه الضوء الباهت لقرص الشمس، المكان معتم ولا تضيئه سوى شعلات راقصة من مدفأة كلاسيكية في ركن الاستقبال، يبتسم فأتعرف على ابتسامته بصعوبة، أحتاج لمهلة حتى تعتاد عيني الروح الكئيبة التي تغلف المكان، يقودني إلى أريكة بجانب المدفأة ويجلس في مقابلها كدوق قديم، رأسه حليق وجسده الذي بدأ يتضح لي متينًا ليناسب ضابطًا سابقًا، جزؤه السفلي متوارٍ أسفل غطاء مخملي مائل للخضرة، الرائحة محايدة والسكون يشي بالوحدة.

- أهلا يا حسن، بناءً على رسالة حسام رشيد توقعت أن تزورني منذ أسبوع مضى!

- ظروف يا باشا!

- نعم ظروف يعرفها العالم كله يا صديقي.

يلتفت نحوي:

- أُخذتَ على حين غرة ورأَفتُ بك وأنت تقف بشورت وبيجامة تدافع عن نفسك في محاكمة القرن.

يمط شفتيه بأسى بالغ، يقول:

- النساء أقذر مما نتوقع.

تصلني رسالته وأتنبأ بما سيقول:

– لم أنتظر أن تبقى زوجتي معي بعد الحادث لكني توقعت بعض الكياسة.

يصمت ليبتلع ذكرى قديمة.

– بعد أن رحلَتْ تصر على أننا أصدقاء يا حسن، وبالأمس أرسلت لي صورة وليدها الجديد من زوجها الذي كان طبيبًا في المستشفى التي عالجتني وفشلت.

على ضوء النار الكابي تتراقص عيناه، يخرج هاتفه ويخرج لي صورة امرأة ثلاثينية ترتدي مريلة المستشفى، جبهتها متعرقة وشعرها دبق، تحمل قماطًا به قطعة من اللحم تجاهد لتفتح عينيها، يقول:

– كان عليَّ أن أمثل أقذر دور في حياتي وأنا أبدي سعادتي الغامرة بزوجتي التي وضعت رضيعها وأرسلت صورته في الحال، أحيانًا أتساءل في خلوتي التي لا تنتهي، متى تعرفا على بعضهما؟ هل كان يعالجني ويتأمل زوجتي الواقفة بجانبي، هل كانت تجلس طوال الليل بجواري في فراشي أم بجواره في مكتبه؟ ربما لا تكفي رجولتي الآن لإحداث انتصاب لكنها مثل النار تحرق جدراني.

يدفع كرسيه إلى الأمام ليقترب من المدفأة، يقول:

– أنت أفضل مني أتعرف لماذا؟ لأن لديك الفرصة للوقوف على قدميك من جديد، وعندما تصبح بطل مصر القومي لن تكون طليقتك بمجتمعها الهش قادرة على سلب ابنك.

الضوء الكابي والروح المسرحية هدهدتني كطفل يخلد للنعاس، كنت بحاجة لمن يمد يده أخيرًا وينتشلني من كبوتي، أهز رأسي في صمت وتأتيني كلماته كترنيمة سلام.

– متى يمكن البدء في العملية؟

– الآن لو أردت، لكن أخبرني أولًا ما الذي بقي بحوزتك.

– لوح رخامي يحمل رموزًا، وأوراق بردي.

– حجر رشيد آخر ينتظر من يفك طلاسمه.

– لكن معذرة يا محمود بيه، أنا شخص مريض بعدم الثقة في الآخرين. كيف لي أن أضمن وقوع المفتاح في أيدٍ أمينة؟

– سيكون كل شيء أمام عينيك، لكن أخبرني أولًا، لماذا لم تطمع في هذا الكنز ولم تفتش عنه إلى الآن؟ لماذا لم تشاركهم يا حسن؟

– القبور يا باشا، للقبور حكمة بيضاء قاهرة، إذا كان الكنز سيمنعني من القبر سأسرقه بلا تردد، لكن جدي الكبير لم يسلم من القبر ولم يحمل فدادينه معه، وعندما مات احتاج إلى متر في متر، لا أجد أكثر حمقًا ممن ينسى هذه الحكمة ويتعب نفسه فيما لا يملك، أنا إنسان فان فما هي الحكمة من كل هذا التعب؟!

يمط شفتيه ويتفرس ملامحي طويلًا.

– لم أكن أعرف أنك زاهد هكذا، وتوقعت منك خطبة عصماء.

- ليس هذا زهدًا، بل واقعًا.

- أنت محبط فحسب.

- إحباطي لا يؤثر على عقلي. فهل لي بضمانة يا محمود بيه؟

- نعم بالطبع، وإليك الضمانة الأولى رغم أني متفاجئ من طريقة تفكيرك.

- أعتقد أنها الطريقة الوحيدة التي حفظت الكنز لمصر.

يبتسم وتظهر أسنانه النضيدة، يدفع القابس للأمام فيتحرك الكرسي إلى مكتبة صغيرة بالجوار، يخرج كارت ميموري ويدسه في هاتفه، يقربه مني وأسمع المكالمة بين مدحت سليمان وخالد صوفي، يأتي محتواها واضحًا وفجًا.

- الفيديو معي يا مدحت بيه، حسن كان سينشره لولا تدخلي في اللحظة الأخيرة، أقنعته أنك لو سقطت معه في القضية لن تخرج الفيديو الذي يظهر ذبح أبيه وبالتالي إعدام لكليكما.

- شكرًا لك يا خالد، ولن أنسى صنيعك هذا.

- أنا في الخدمة يا باشا، وتعرف طلبي جيدًا.

- ستجده على مكتبك، وتفقد حسابك البنكي بنفسك.

تنتهي المكالمة ويخرج لي محمود عباس ملفًا يحمل صور لخالد ومدحت في الشيراتون معًا، يمزح خالد مع مدحت في صورة، يكاد مدحت ينفجر في ذروة الضحك في الصورة الأخرى، لا يحتمل الأمر تأويلًا آخر، كان يمكن أن يتدخل ويمنعني من السجن، أما وضعي في زنزانة انفرادية لمواجهة خوفي القديم لن أغفره أبدًا يا خالد، لكن كيف عرف بأسراري القديمة وأنا لم أخبر أحدًا على الإطلاق؟!

- أرجو أن تكون تأكدت من أننا الأخيار في هذه اللعبة يا حسن.

يدير كرسيه ويقول:

- والضمانة الثانية بسيطة وخالية من المخاطرة، أنت لن تحضر اللوح ولا الأوراق، ستبقى معك حتى ينتهي الأمر وتسلمها بنفسك للدولة، ويمكن أن تفاوض بها مدحت للحصول على ما تريد دون أن يأخذهم بالطبع، لكن أحصل لنا على صورة يتطلع عليها الخبير ومعه لواء من الداخلية وسوف يتسلمانها منك شخصيًا، وعندها سينتهي كل شيء يا صديقي.

- هل سأحصل على ابني وثأري؟!

- بالطبع ستعود إليك حضانة سيف فأنت بطل قومي، أما ثأر أبيك فالفيديو الذي باعه خالد لمدحت سيدينه، ومدحت المدان في قضية قتل وآثار سيأتي بمن معه وسيحاسب الكل بسيف القانون بما فيهم قاتل أبيك.

أخرج من الفيلا مسرورًا مظفرًا، ينبض قلبي بحرية للمرة الأولى منذ زمن بعيد، أقود سيارتي في شوارع القاهرة وكلي شوق لسيف ونور والبيت القديم، كنت قد رسمت خطة للقاء صغيري في حال

استمر الحصار الغاشم، لم أعد بحاجة إليها، الكثير من الجهد سيتوج بلقاء عابر في حديقة عامة لدقائق معدودة لا تروي شوقي، وخالد صوفي سيجذبه مدحت معه إلى الأعماق بالأدلة التي معي، كل هذا الكابوس سينتهي غدًا في فيلا التجمع في التوقيت ذاته، لم أرد أن أغامر وأذهب إلى الأحواض الآن لربما يلاحقني أحد، الصور التي التقطتها قديمًا ما زالت محفوظة على جوجل درايف بعدما حذفتها من هاتفي، لن يكلفني استعادتها شيئًا يذكر، للتمويه أمكث في شقتي لا أغادرها كعادتي في الآونة الأخيرة، تهاتفني نور للمرة الأولى في حياتي، تقول إن حربها الشعواء على سلمى اتخذت منحًى جديدًا، الآن تتهمها سلمى بأنها مريضة بمتلازمة ستوكهولم؛ لأنها ضحية وتعشق غاصبها، ضحكت وتظاهرت بأني لا أبالي، ثم سألتُ نور: - وأنتِ؟

- وأنا ماذا؟!

- هل حقًّا تحبينني؟

أدركت أني ألقيت قنبلة أعماق ثقيلة ومباغتة، يتلعثم صوتها وتتبدل نبرته، تقول ببحة لاسعة: - هل أنت مجنون؟! لقد اغتصبتني وأنا في العاشرة من عمري! كيف أحب شخصًا اغتصبني وأنا في العاشرة من عمري؟!

ثم تغلق الهاتف، شعرت بنبضات سريعة وقوية تأتيني عبر القاهرة، يرن هاتفي مرة أخرى: - حسن، أين أنت؟

- في شقتي يا خالد بيه.

- لم تقابل أحدًا اليوم؟

- لم أخرج إلا لشراء سجائري!

- طيب. أحضرت لك عنوان الدكتورة سارة شريف مديرة أعمال زوجتك والمعلومات التي طلبتها، لكن أرجوك أخبرني أنك لن تفعل شيئًا أندم عليه.

- لا بأس يا باشا هي خدمة مشروعة ولن تندم على شيء.

كنت أرسلت له رقم هاتفها، استطعت أن أنتزعه بصعوبة من خلال مكالمة مضى عليها أشهر، خدمة أخيرة من مخادع لن تضر أحدًا، هذه الفتاة ستكون بوابتي السرية لصغيري سيف، إحساسي بالنشوة جعلني أنتهز الفرصة وأذهب لعقد اتفاق صغير، العنوان الذي بعثه خالد يظل مبهمًا حتى أتوقف أمام الفيلا القديمة، هذا المكان يبدو مألوفًا لدرجة تفاجئني، كل ما أردته من لقائي بسارة هو حوار هادئ أنفذ من خلاله إلى أعماقها، طريقة تفكيرها والنقاط التي تصلح للمفاوضة، لكني أركن سيارتي الآن في المكان نفسه الذي ركنت فيه سيارتي مع الدكتور جمال عبيد منذ خمس سنوات، وقتها مشينا معًا على طريق حجرية تشق الحديقة المفضية إلى بوابة الفيلا كالتي أمشي عليها تمامًا، اشتراها من صاحبها لأغراض تجارية كما أخبرني، لكني عرفت أنها جحر جديد يأوي إليه مع عشيقة جديدة، سارة هي العشيقة الأجدد، وربما تكون زوجة على ورق تستعصي أن تخرج للعلن، خادمة فلبينية تفتح لي الباب،

ترطن عربية مخفوقة بلسانها الآسيوي، تقودني إلى الاستقبال وتسأل هل كنت على ميعاد مع الدكتورة، لا تنتظر إجابة وتغيب داخل خبايا الفيلا، أجلس على أريكة وثيرة وأطالع أثاثًا فاخرًا، آنية وتماثيل لا يكفي مرتب سارة أن يشتري نصفها ولو عملت لمئة عام أخرى! عندما أستعيد صورة سارة في ذهني أجد أنها تناسب ذوق الباشا، وعندما تهبط على السلم الرخامي أدرك أنها تجاوزت ظنوني بمراحل، لم تكن سعيدة بحضوري، الروب الذي ترتديه مشبك على بطنها برخاوة، خطواتها ثابتة وتنقلها بثقل أميري، نجلس معًا نتبادل مجاملات فاترة، تحررت من الرسميات وقلت: - أعتذر عن قدومي بدون ميعاد سابق، لكني أريدك في خدمة.

تقول بطريقتها الجافة كمديرة أعمال:

- وما الذي يمكن تقديمه يا حسن بيه؟

- سيف.. أريد أن أرى ابني يا دكتورة وأجلس معه كأي أب.

تقطب حاجبيها وتتساءل عن دخلها في هذا الأمر.

- يمكن أن تكلم الدكتورة سلمى وتحدد معها اللقاء الذي تريده.

تضع الخادمة الفليبينية كوب العصير على المنضدة، عندما تمر بالقرب من سارة تنكمش ملامحها سريعًا ثم تنفرط من جديد، متى كان لسكرتيرة فيلا أفخم من شقتي ومدبرة منزل مستوردة؟!

- تعرفين يا دكتورة أنها لن توافق على ذلك، ومجيئي إليك هو معروف ودين في رقبتي.

تفكر وتقارن معروفي بمعروف الباشا، إجابتها متوقعة، تضع يدها للمرة المليون على بطنها وتمط شفتيها قائلة في إشفاق كاذب: - أنا لا أستطيع أن أفعل شيئًا في هذا الأمر يا حسن بيه، أعذرني.

- الأمر بسيط يا هانم؛ أنت من تقومين بوضع جدول الأعمال لسيف وأمه، كلانا يعرف أن سلمى مشغولة عن سيف ولا تراه إلا صدفة، لن يحدث شيء إذا استطعت أن أقابله بفضلك مرتين في الأسبوع سوى إسعاد قلب أب مكلوم.

ضايقتها هانم وشبكت ذراعيها بطريقة سلسة وحنونة أمام بطنها البارز قليلًا.

- آسفة يا باشا، لا أستطيع أن أغامر.

- أنا لا أتحرش بابني يا دكتورة بالتأكيد، لا تصدقي هذه السخافات.

نظرتها جامدة ومستفزة، بالتأكيد هي لا تصدق لكنها لا تتعاطف مع أمثالي.

- اسمعي يا سارة، أنت أم، ولا شك أنك تعذرين مشاعر أب مكلوم.

تذوب طبقة الجليد التي تلف بها نفسها، تزدرد لعابها وتتساءل في اندهاش حقيقي: - ماذا تقصد بأم؟

لا تكوني حمقاء! بطن بارز قليلًا لقوامك المرهف لا يمكن أن يكون غازات! مشية حذرة وملابس واسعة، تثيرك رائحة المطبخ التي انبعثت من الفليبينية، ثم ذراعك الذي يقف أمام بطنك أغلب الوقت، كل

هذا طريقة عقلك الباطن للدفاع عن جنينك الذي ينمو في أحشائك، وبما إن الباشا يستضيفك في فيلته فأنت حامل بابنه لا شك.

– سارة، أريد منك خدمة ولست هنا للتدخل في شؤونك. هل ستوافقين على طلبي؟

تتأملني بنظرة باهتة، يتسلل القلق إلى وجدانها وتلتصق كفها ببطنها أكثر، تحتاج إلى دفعة بسيطة وينهار تحفظها، إنها أضعف مما ظننت.

– أنا من اشترى هذه الفيلا لجمال عبيد يا سارة لا ترهقي نفسك، بالتأكيد شهدت على عقد بيعها لامرأة أخرى بعدها بشهرين ليبعدني الباشا عن جحره، لكني عرفت أن المرأة التي اشترت الفيلا هي طبيبة أسنان تقوم بالتدريس في جامعته الخاصة وكانت بالطبع عشيقة شابة ويافعة ومفعمة بالأنوثة.

أصمت وأتابع نظراتها الغائرة:

– أنت لست الأولى يا سارة، وبالطبع لن تكوني الأخيرة، لذا أرجوكِ قدمي لي معروفًا الآن ولن أنساه غدًا.

تتململ في مجلسها، تقول بصوت يخرج من قاع المحيط:

– أنت تبتزني!

– نعم، أبتزك.

ثم أنهض وأقول:

– غدًا أحب أن أقابل سيف وسأهاتفك في الوقت المناسب، لكن أنا لست مثل الآخرين؛ من يصدق معي يا سارة أصدق معه دائمًا.

أرحل وأتركها صنمًا حجريًا متصدعًا، بالطبع تعرف أنها ليست الأولى، لكن هاجسًا مريبًا ومزعجًا يغشاها بعنف كما يفعل الباشا.

***

توقفت بسيارتي أمام فيلا محمود عباس، كنت متعجلًا لنفض يدي من كل شيء، الآن ستتولى السلطات الأمر وسأترقب بصبر أسد يربض في الأحراش لحين الانقضاض على قاتل أبي، سأعرفه لو ذهب إلى آخر الدنيا، سأقتله كما قتله وليحدث ما يحدث، ينفتح الباب الحديدي، هاتفي يحمل الصور الكاملة للأوراق واللوح، أتنفس ببطء وانتظام كما علمني أبي، شعرت ببعض القلق لكني سرعان ما طردته، ليتحمل كل مسئول مسئوليته، ينفتح الباب الرئيسي ويتوحش بؤبؤاي لازدراد نتف الضوء الخافتة، يجلس محمود كما هو أمام المدفأة القديمة وأمامه عدة أشخاص على الأريكة المقابلة، عندما أصير بينهم يقول شخص ما بتأفف: – بالله يا محمود أشعل الضوء، لن يقتلك.

أحببت ما طلب، جلست على الكرسي المقابل، عرفني محمود إلى الأشخاص الذين بدأت صورتهم تتجلى تدريجيًا، أشار إلى الخمسيني ذي النظرة الحادة والشعر الفضي.

– اللواء شريف منصور، مساعد وزير الداخلية، ولا يحضر لشيء هين.

ثم إلى صاحب النظارة المقعرة.

– البروفيسور ماجد النجار، أستاذ المصريات في جامعة أكسفورد.

وأخيرًا الشاب الذي في مثل عمري.

– المقدم حازم الهواري من الأمن الوطني.

كنت متفاجئًا خصوصًا من أستاذ أكسفورد، الأمر خطير إلى درجة أراحتني، يظهر نوع من الاحترافية في طريقة عمل محمود عن خالد صوفي المزورة.

– هل أحضرت الصور أم ما زلت قلقًا؟

أمط شفتي وأخرج هاتفي. يقول اللواء منصور:

– شدة حذره تلك هي ما حفظت ثروة البلد.

على شعاع الضوء الكابي أشعر بحماسة البروفيسور الأكسفوردي، ملامحه مصرية ولكنته عندما تحدث منحرفة قليلًا جراء سنواته العديدة في الخارج.

– أرجو من سيادتكم أن تضيئوا الغرفة حتى نستطيع أن نفحص الصور.

استجاب محمود أخيرًا لرجاء البروفيسور، يتحرك بكرسيه الآلي إلى مفتاح الغرفة، أضغط على إرسال فتبدأ البيانات في مغادرة هاتفي، ينهمر الضوء كموجة عاتية ويغمرنا بوهيجه اللامع، ينكمش بؤبؤاي من جديد ليتكيفا مع الجرعة الزائدة، تتضح لي الصورة شيئًا فشيئًا، البروفيسور أسمر البشرة وشعره مصفف، الضابط أصغر مما بدا عليه، لكن لِمَ ينتعل محمود حذاءً في قدميه؟! هل في العادة ينتعل القعيد حذاءً برباط وعنقها طويلة كفارس الخيل، يسقط جانبٌ من الغطاء المخملي الذي يواري ساقيه، تظهر ربلته اليمنى كبيرة وكتلتها العضلية لم تضمر بعد شلل نصفي دام ثلاث سنوات، شعاع الضوء يخترق رأسي، هناك مسدسات في جيوبهم ولا بأس باللواء والضابط، لكن لم يحمل أستاذ جامعي مسدس أسفل سترته؟ بيدي اليسرى أتحسس مسدسي في غماده، وبكياني كله أتحسس الهاوية التي أسقط فيها، هل تم خداعي بضوء خافت ودراما هابطة، يا للخسارة! ضغطت على إلغاء الإرسال ولم يتوقف الإرسال، فقد هاتفي إرادته على التوقف، تحلق الصور بخفة طائر بين هاتفينا، عندما أنظر إلى يد الضابط أجده يعبث بهاتفه ويحدق بهاتفي، يخترقه ويسيطر عليه، هو ليس ضابطًا بل مبرمجًا، أبتسم، يبتسم لي محمود، ينهض ببطء ويتحرك بحرية في الغرفة، يقول للأكسفوردي المخادع: – هل انتهيت؟

أعرف أنه لو انتهى تنتهي حياتي، قبل أن أُخرج مسدسي وأفعل شيئًا تكون فوهة أخرى مسددة إلى رأسي، من أين يا ترى؟!

– أنت عبقري يا حسن، أعترف بذلك لكنك جديد في هذه اللعبة، ما فعلته بنا كثيرٌ ولم يفعله أحد من قبل، أقسم لك أن أجعلك عبرة لأمثالك.

يقترب مني محمود -إن كان هذا اسمه- وينتزع مسدسي، صرت أعزل بلا سلاح أو عقل، يبدو أنني سقطت أخيرًا.

يقول البروفيسور إنه فرغ من نقل الخريطة والبرديات، يقول محمود: - هناك سيارة تحمل فتاتين في التاسعة من عمرهما، سيجلسان معك عاريتين وستأخذ جرعة من الهيروين زائدة، سيعترفان بما فعلته بهما ولن تقف على قدميك مرة أخرى وستموت وضيعًا جدًّا يا حسن.

هذه المرة لن يلتمس لي أحد عذرًا، لا نور ولا سيف عندما يكبر في كنف أزواج أمه، بالتأكيد لن يكون كمال هو الأخير، لكنك لن تختار ميتتي يا ابن الكلب، سأهجم الآن وسأتلقى طلقة في رأسي لا شك، هكذا لن يكون هناك هيروين على الأقل، وعندما أسدد لكمة لوجه محمود مباشرة وتنطلق الرصاصة لا يكون مستقرها في رأسي. يُثقب رأس الذي خلفي، وتنفتح أبواب الجحيم، تبادل إطلاق نار كثيف غمر المكان، المدفأة ناتئة عن الجدار، أستتر بجانبها، ألمح محمودًا وهو يحمل بندقية آلية ويطلق نحو الشرفات والأبواب، مسدسي قريب مني بمترين، أزحف على بطني وأقبض عليه، سأقتل ابن الكلب هذا ولو كانت هذه لحظتي الأخيرة، أقلب المنضدة وأتوارى خلفها، أتفاجأ بعشرة أشخاص كانوا في الفيلا ممن نصبوا لي الكمين، أبحث عن محمود بين الزخات القاتلة، يغيب عني وأضطر لخفض رأسي، في الناحية الأخرى أعثر على البروفيسور وهو يقبض على الهاتف ويعدو بعيدًا، أطلق فيقع أرضًا، ينهزم فريق محمود وتهدأ وطأة النيران، أقتنص الهاتف الذي حمل الصور وتحاصرني قوات أمنية من كل جانب، يظهر خالد صوفي ومعه محمود، يقف أمامي مباشرة، يقول: - محمود عباس، نصاب عالمي وتاجر آثار، قلت لك يا حسن ليدخل كل منا إلى رأس الآخر.

يسلم محمود إلى أحد الضباط، يقول:

- كنت أتتبع حركاتك جيدًا في الآونة الأخيرة، عرفت أنك تشك بي، أخبرني ما الذي دفعك لهذا.

خرجنا معًا، في حديقة الفيلا وقفت طفلتان مفزوعتان أمام سيارة الشرطة.

- هؤلاء يتاجرون بالبشر أيضًا، تخيل؟!

أنظر إلى محمود وهو يتكلل بعاره وأبتسم، يقول خالد:

- لا يعرف أحد من هذه الحملة بأمر الصور، ستبقى معك كما هي حتى تهدهد اضطرابات الثقة الخاصة بك، يا إلهي يا حسن! كان كل شيء سيذهب أدراج الرياح لولا أن تبعتك لأعرف ما ستفعل مع سكرتيرة زوجتك.

يمسح عرقه بكفه القابضة على البندقية، يملأ رئتيه بهواء الحديقة، ينظر نحوي بعيون تفيض إصرارًا.

- إذا كنت تشك بي فإن لديك سببًا وجيهًا، أرجو أن أعرفه.

أخبرته أن يجلب لي هاتفي من أحراز الحملة، أعدت على أذنيه المكالمة والصور، كانت عيناه تتسعان في هلع، انتهت المكالمة وابتسم.

– لست وحدك من يعقد الصفقات يا صديقي.

نخرج من الفيلا ونجلس في السيارة، يدير مفتاحها ونغادر.

– هل تذكر حملة الميناء التي فشلت، أخبرتك أن عنصرًا من الداخل خاننا، لم أستطع أن أكشفه برغم إصراري الكبير لكن ما إن وقع في يدي الفيديو الذي صورته أنت لمدحت وهو يستلم منك التمثال حتى شكل فرصة مثالية، جمعنا لقاء وكان عليه أن يدلني على العميل أو يدان في قضية قتل وإتجار في الآثار، صدقني هذا كل ما في الأمر، حصلت على اسم العقيد حسام رشيد ومبلغ في البنك أصبح عهدة للجهاز.

– إذًا، هو صادق في كثير مما قال.

– تم عقد محاكمة عسكرية له وسُجن في اليوم التالي، الدليل الذي أرسله مدحت كان دامغًا.

أتأمل الأسف الذي غمر وجهه، أقول:

– أخبرني يا باشا كيف عرفت أنني أخشى الأماكن الضيقة؟

يستغرب ما أقول، ويتساءل هل حقًّا أخشى الأماكن الضيقة، ثم يقول بعفوية صادقة إن هذا كان أفضل لي كي يمنعهم من الوصول إليّ، أظل صامتًا وأستحثه بنظرتي الثابتة على المزيد، هو لا يدري حقًّا، لكن من أين أتت الفكرة، يبدو أن أحدهم أوحى إليه دون أن يدري خالد واستخدمه لإذلالي.

– شعرت في حديثي مع مدحت إصرارهم على سجنك، فخشيت أن تكون لقمة سائغة لهم.

***

في مقهى ماريتا كنت جالسًا بالداخل أتطلع عبر واجهته الزجاجية إلى الوافدين وأنتظر السيارة التي تحمل سيفًا وتقودها سارة، يضع النادل فنجان قهوتي، يسكب لي من إبريق صغير فضي اللون بعض الحليب، تتشكل رغوة محببة على سطح القهوة، أرفع الفنجان إلى فمي وأمتص الرشفة الأولى وأعيد ترتيب أوراقي، أراد خالد أن ينتهي الأمر عند هذا الحد، سكنه الإحباط كما تسكن الخفافيش بيتًا قديمًا، تطايرت في وجهي وأفصح عن رغبته في تقديم البرديات إلى خبراء وزارة الآثار.

– سيصبح اكتشاف العصر، والفضل كله لك.

سارعت في إثنائه عن موقفه، لو حدث هذا لن نصطاد –الكيان القبيح كما وصف– الشبكة المهيمنة على تهريب الآثار في اللقاء الأول.

– الكشف الأثري الآن أهم من الإمساك بهم.

راقتني الفكرة وداعبني إحساس الراحة، لكني انتبهت إلى غصة لا يمكن ابتلاعها، هذه البرديات هي ما تبقينا أحياء في حلبة المفاوضة.

– أنت لديك الداخلية لتحميك، أنا لدي طفل وعائلة هشة لا أدري كيف سأتلقى العقاب، لكنه آتٍ لا محالة.

يحصل على الصور ويعطيني مهلة أسبوع لألعب بطريقتي قبل أن يخرج السر للعالم، أضع فنجاني عندما تقف سيارة فولكس ألمانية سوداء، تهبط سارة وتنزع نظارتها الداكنة، يتموج شعرها برياح الخريف الباردة، تفتح الباب الآخر وتنزل سيفًا وتقوده إلى الداخل، الصغير كبر سنتيمترات قليلة في هذه المدة، اكتسب هالة من السحر أحاطت بوجهه كثير الشبه بسلمى، أتأمل عينيه المكحولتين وأطمئن على إرث أبي، لسيف عيون أبي التي مررتها بجيناتي دون أن أكتسبها، سيصير أجمل مني ألف مرة كما كانت تقول سلمى، أنهض وأتلقفه بين ذراعي.

– أنا زعلان منك يا بابا.

تجلس سارة على منضدة أخرى وتنتظر، تترك مساحة كافية لتكتسح أمواج الشوق صغيري الجميل.

– تفضل شغلك عن الجلوس معي.

– هل أخبروك بذلك؟

– جدتي تقول إنك دائم العمل ولا تجد لحظة واحدة للراحة.

الحيزبون الكريهة لا تكف عن بث شرورها.

– أعدك أن نجلس معًا كثيرًا في الأيام القادمة.

يعرف سيف ذو الأعوام الستة أنني انفصلت عن أمه، كان حزينًا وتأثرت علاماته الدراسية بهذا، لكن حزنه الذي يظهر لي الآن جديد ويشع بنشاز يفسد هالته الساحرة، عندما أنظر في عينيه وأسأل عن السبب، يخفض رأسه ويقول بصراحة ويسر كعادته: – نودي والآخرون يقولون إنك تفعل أشياء شريرة وقبيحة للأطفال.

رغم توقعي لما سيقول وتأهبي له إلا إنني تألمت وامتدت قبضة جليدية تعتصر قلبي، لم تفكر بك أمك يومًا!

– ويقولون إنك تفعل لي هذه الأشياء ولم يعد أحدٌ منهم يجلس بجانبي في الفصل.

أعيد ترتيب نغمة صوتي الهادئة، أقول بزلة بسيطة في تردده لن يتبينها سيف.

– وهل تعاركت معهم كالعادة؟

– أخبرتني أمي ألا أثير الشغب في المدرسة وهي ستتصرف.

يضع النادل كوب العصير أمام سيف، أتابع نظرته الكابية وانكماشه كالقوقعة في الكرسي الذي يجلس عليه، أتحرر من غضبي وأهز كتفه برفق: – ما الأمر يا صديقي؟ أنت رجل، والرجل لا يحزن هكذا ولا يخاف شيئًا أبدًا.

يرفع رأسه ويقول:

– لكنك أخبرتني أن الرجل يخاف أحيانًا، لكنه يواجه خوفه وينتصر عليه مثلما تغلبت على خوفك من الماسورة في بيت جدي.

أنتفض. أسأل:

- متى أخبرتك عن هذا الأمر يا سيف.

- عندما ذهبنا لزيارة السراي أشرت إلى الحديقة وحكيت لي القصة.

تنظر سارة في ساعة يدها، يبدو عليها الضجر وتهم بالنهوض.

- هل أخبرت أحدًا بهذا الأمر يا صغيري؟

أمد له كوب العصير وأعبث في شعره وأبتسم مشجعًا، يومئ برأسه ويقول إنه حكى القصة للدكتور جمال عبيد، أنصت للصغير وهو يتحدث بصوت حزين.

- في الليلة التي تركت فيها أمي كانت غاضبة وتبكي وصرخت في وجهي أن أذهب للنوم لأستيقظ باكرًا، أخذني جدي وجلس بجانبي حتى أنام، قال إن أمي بحاجة لي فيجب أن أكون رجلًا ولا أخاف شيئًا، فقلت له إن أبي يخاف الأماكن الضيقة.

تظهر الحقيقة قاسية وقارصة كالجليد، مثل النشاز تمجها أذناك في البداية، ثم تتشربها ببطء وتستوعب شواهدها فتكتشف أنها سيمفونية عذبة وما كنت عليه قبلها هو النشاز والتغفيل، يا إلهي كم كنت أعمى! ولم أقرأ ما داوم على الظهور وأخفيته بحسن النية تارة وعدم التصديق تارة أخرى، إخفاء الصناديق في حاويتي لم يكن عفوًا وحركة متعثرة غير مقصودة، كانت الإجابة هنا منذ البداية ولم أفهم! أحتضن سيفًا وأنا فراغ مبعثر يجاهد للتجسد مرة أخرى، في بقعة ما أعثر على ابتسامة أودع بها سيفًا، أهمس له في أذنه: - لا تخبر أحدًا يا صغيري عن خوفي، هذا سر، ولا تخبر جدك أنني عرفت بالحوار الصغير بينكما.

يومئ سيف برأسه، قبل أن أغلق الباب أقول:

- لو تنمر عليك نودي هذا مرة أخرى فاضربه كما فعلت سابقًا.

- لكني سأكون وحيدًا ومنبوذًا كما قالت أمي.

- لن تكون وحيدًا يا سيف، جد لك صديقًا آخر يستحق رفقتك ولا يتنمر عليك.

يبتسم للمرة الأولى في لقائنا المقتضب وأغلق باب السيارة.

- في المرة القادمة اترك لي تحديد الموعد يا حسن بيه، أرجوك.

-أنا مدين لكِ يا سارة حقًّا.

تقول وهي تضع يدها على بطنها وفي عينيها نظرة بعيدة.

- أتمنى ألا ألجأ إليك لسداد دينك يا باشا.

- 17 -

لا تعرف سلمى أي وضع حشرت فيه نفسها بالتلاعب بمشاعري والمتاجرة بأزمتي، كان للمنشور الأخير أثر قنبلة ارتجاجية في أوساط المجتمع، وللمزيد من الضغط أكثر، اقترحت على منى أن تصور فيديو تشرح فيه ما حدث، ثم قمت بنشره على الصفحة، تلقيت للمرة الأولى أكثر من عرض من أكثر من قناة للظهور في برامجها، رفضت كل هذا الهراء، جرحي الأخير ما زال ينزف، أنا هنا في قناتي على اليوتيوب التي أنشأتها مؤخرًا أكثر حرية وثقة وتملكًا، لا يجتزئ لي أحد أي كلمة ويدمجها في سياقاته الموجهة، أنا حرة في اختياري وفي كلامي وفي سياقاتي، أنا امرأة حقيقية الآن أتمنع وأرفض كما أشاء، صوتي مسموع وصرختي مدوية، هذا العالم الافتراضي كنز ثمين وورقة ضغط لم ينتبه إليها أصحاب الأبواق الثرية، لكن أبواقهم لم تعد تُسمع كما نُسمع، الآن يمكن أن أبصق في منشور لأتلقى مليون أعجبني، لكن العرض الأخير كان مثيرًا حقًّا ويحتاج إلى الكثير من التفكير، سلمى جمال في حلقتها على الهواء مباشرة تعرض أن تناظرني في برنامج آخر محايد لكشف زيفي واستخدامي لأنوثتي في جمع الشباب الهائج -على حد وصفها- من أجل التعاطف المزور، رغم غيظي الشديد من تلك الخبيثة إلا أني نظرت إلى هند ببرود مصطنع وقلت: - ما رأيك؟

تقضم هند الخيارة التي في يدها مصدرة صوتًا مقززًا، وتقول: -لا أعرف.

أتناول منها الخيارة وأقضم مصدرة نفس الصوت المقزز وأتابع المأفونة وهي تصفني بالمريضة النفسية التي أحبت مغتصبها، تلتفت إلى العلامة محمود سالم وهو يحلل شخصيتي ويقَوْلِبني في قالب ستوكهولم، أتصل بحسن.

- تعرض عليّ المناظرة، هل أناظرها؟

- ماطلي واضغطي عليها أكثر، أنت الآن أصبحت ندًا لها فاستمتعي بوضعك الجديد.

- حسن، تقول إنني مريضة بمتلازمة ستوكهولم لأنني أحبك.

يفاجئني حسن بسؤال وقح، أنهره بشدة، وأقول إنه اغتصبني في العاشرة من عمري فكيف أحبه، أنهي المكالمة وصدري يعلو ويهبط، تقول هند وهي تلتهم الخيارة الخامسة: - لم احمرَّ وجهك هكذا؟

- وجهي لم يحمر!

- بل احمرَّ وابتسمتِ أيضًا.

- أنا لم أبتسم ولم يتغير وجهي.

- حسنًا لا تغضبي.. أخبريني ما الذي قاله حسن؟

- أن تتوقفي عن أكل الخيار ونحاول مرة أخرى مع البقعة التي لن تختفي في وجهك.

ثم أشرع في المماطلة كما نصحني حسن، أكتب على صفحتي: - سلمى جمال تريد مناظرة مريضة نفسية تحب الشخص الذي اغتصبها، حسنًا إذًا.. بما أني مريضة نفسية فلِمَ تناظرين مريضة نفسية يا سلمى؟! لكني سأخبرك بشيء.. إذا أردتِ مناظرتي فأنا موافقة، لكن بشرط أن تذيعي اللقاء الذي قمتِ بتصويره لي كاملًا دون أي حذف، حتى وأنا أضع إصبعي في منخاري.

تستلقي هند على ظهرها، تضم ركبتيها إلى بطنها وتضحك كقط سيامي، أقوم بالنشر وأتلقى الآلاف من «هاها» في مدة وجيزة، لكن فرائسي ارتعدت عندما قرأت الرسالة التالية على هاتفي نفسه: - ربما نسيتِ كيف يكون الاغتصاب.

كانت هذه رسالة التهديد الأولى الجادة التي تلقيتها، استمرت رسائل التهديد على هذا المنوال ترافق منشوراتي الجديدة وتلاحقني كوخزة حادة في جانبي طيلة أيام، هممت أن أخبر حسنًا لكنه فاجأني بحضوره إلى شقتي، جلس مع أمي يحادثها أحاديث تبهجها، إذا كان هناك شخص يقدر على رسم البسمة على وجه أمي بأبسط الكلمات فهو حسن، بكل سهولة يحصل على إذن أمي للخروج معه لقضاء شيء يخص قضيته، تجهزت وهبطت معه إلى سيارته، ركبت بجانبه للمرة الأولى وقلت: - إلى أين سنذهب؟

يقول حسن إنه يحمل إليّ مفاجأة، يبتسم بمكر وأستسلم له، يقود السيارة إلى بيت جدي القديم.

- هذه هي المفاجأة؟!

- لا تتعجلي يا صغيرتي!

يعبر البوابة القديمة ويتوقف أمام المدخل العتيق، ينزل من السيارة ويشير إلي، أصك باب سيارته بعنف، يتلفت حوله ثم يريدني أن أتبعه إلى الحديقة، أتسمر في موضعي: - هل تمزح معي؟

- ستكون مزحة قاسية.

يفكر قليلًا ويقول:

- ألا تثقين بي؟

أهز رأسي بفتور.

- اتبعيني إذًا.

رغمًا عني أتذكر كم تبعته قديمًا وماذا كانت النهاية، أتأمل قامته الفارهة وأتبعه كظله، يتوقف في المكان القديم ذاته، أحدق إليه بذهول حقيقي.

- الآن يكتمل علاجك، واجهتي كابوسك القديم بكل تفاصيله.

- ماذا؟!

لا ينتظر بقية كلامي، ينحني بين حوضي اللبلاب القديمين ويبدأ في الحفر، أراقبه على مضض أنتظر ما سيسفر عنه كل هذا العناء، بعد عمق متر من الحفر يظهر حوض لبلاب آخر، يزحزح حسن غطاءه ويمد

يده ليخرج برديات قديمة ثم -ويا للمفاجأة- لوحًا جرانيتيًا يبذل جهدا مفرطًا في وضعه أمامي، أمام دهشتي أقف أمام اللوح والبرديات وأسأل ببلاهة: - ما هذا؟!

- أنتِ من سيخبرني ما هذا.

يحمل حسن اللوح ويسند إليّ البرديات، أتبعه وآفة الشوق والفضول تتمدد في صدري، ندخل البيت القديم، ليس مغبرًا ورثًّا كما كنت أعتقد، إنه فاتر ومقبض وموغل في القدم فحسب، يقرأ حسن أفكاري:

- أوكل إلى بكري أن يحضر من ينظفه بين الحين والآخر.

ندخل إلى غرفة جانبية، لا أتذكر تفاصيلها جيدًا لكنها ملأى بالعديد من الكتب التاريخية الخاصة بالفراعنة.

- من أحضر كل هذا؟

- هذه مفاجأتي لكِ يا نور، أعرف أنكِ تهتمين بهذه الأمور كثيرًا لذا يجب أن تساعديني في معرفة ما يوجد هنا.

تطوف عيني بين رفوف الكتب الكثيرة.

- أنا حقًّا لست بحاجة لكل هذه الكتب، لكني أود أن أعرف من أين أتيت بهذه الأشياء ولم هي مدفونة هنا؟

- سأخبرك بكل شيء في الوقت المناسب.

أجلس على الكرسي الخشبي أمام المكتب وأقول بحزم: - هنا والآن! أو سأذهب ولن أحضر مرة أخرى.

يتفرس حسن ملامحي قليلًا ثم يشرع في الكلام وينفغر فمي بوحشية أمام ما أسمع، حكى حسن كل شيء بداية من الميناء وتسببه في قتل عمي وحتى العملية الأخيرة الفاشلة، أقول رغم انقباضة صدري: - حسنًا، سأبدأ الآن.

- هل حقًّا تجيدين قراءة هذه الأشياء؟

- بقليل من المراجعة والمشقة، لكن نعم أستطيع.

أكمل:

- ولم يكن الفضل لما درسته في الكلية لكن بسبب بحثي وقراءاتي فيما بعد.

يصفني حسن بـ «الجامد» وبصيغة مذكرة، يسأل عن الوقت الذي أريده.

- سأكتشف ذلك بنفسي.

يفتح النافذة ويهيئ لي المكان، أخرجت البرديات وقمت برصها على المكتب، اعتمدت على نفسي في البداية واستعنت بالكتب لقراءة ما لم أقدر على فهمه، التقطت بهاتفي عدة رموز وأرسلتها إلى بعض الأساتذة ممن احتفظت بذكراهم معي بعد مغادرتي الكلية، كانوا يبدون دهشتهم مما أرسل، أكذب وأقول إنني عثرت عليه في الكتب القديمة وإني بصدد بحث ورسالة ماجستير، الحديث كله كان يدور في

نهاية الحقبة الثالثة عشر وبداية غزو الهكسوس لمصر القديمة، هالني أن من كتب البرديات هو «الهمي» أو الحارس كما وصف نفسه، ثم اكتشفت أنه كبير حراس الفرعون، وحارس الأميرة فيما بعد، قرأت الاسم مرارًا، ودونته في دفتري، ساحورع هو اسم الهمي، غرقت بين أحداث الماضي وخرج حسن ليحضر شيئًا لا أتذكر ما هو، لكنه يغيب ثم يأتي بطعام، أظل غارقة في عالمي ولا أقربه، يخرج بعد إلحاح فاشل ويعود مرة أخرى مع مجيء الليل، يسحبني من بين الكتب ويقول إن أمي قلقة علي، يعدني أن أكمل في الصباح التالي، أخرج وأقلب ما كتبت في دفتري بشيء من الرضا، وأنا جالسة بجواره في السيارة، أشرع في القراءة: «الوزير عنخو، القائد أوسر كارع، مستشار الفرعون أسوسي والكاهن الأكبر خنسو.. ماذا يمكن القول سوى إن الغروب قد حل بـ «إيثت تاوي»، لونه أحمر دامٍ، وكآبته طاغية، بين السدل البيضاء في شرفة القصر العتيق أطالع المعسكرات الجديدة التي نصبها الكنعانيون ورعاع الشرق، جماعات متتالية هاربة وضارية، استباحت الحدود رغم الخطر الذي تعرفه جيدًا لكن ما يطاردهم أشد خطرًا منا، يأتيني مبعوث الفرعون.

– جناب قائد الحرس الفرعون يطلبك.

أشق طرقات القصر الحجرية، أمر بين المشاعل الكابية، في مخدعه جلالته ممدد ويحدق إلى سقف الحجرة الملكية كأنما يرى النهاية، أنحني ببطء وخضوع، يقاطع عبارات التبجيل بإشارة واهنة من يده.

– الوقت يداهمنا يا ساحورع.

ينهض ويفشل ثم يحاول مرة أخرى وتخترق أذني طقطقات حادة من عظامه ومفاصله، بعد فترة عسيرة من التفكير أتجرأ وأدعم الظهر الضامر بكفي وأدفع برفق إلى الأمام، ينهض الفرعون ويمد قامته فيبدو أقصر من طوله بنصف ذراع.

– هذه مهمتك الأخيرة، ولن تخذلني كعهدك معي.

يتوقف في الشرفة ويطالع المستوطنات البعيدة التي تلوح في الشرق.

– قضيت على الكثير منهم، لكنهم ما زالوا يتدفقون مثل النهر.

– لا بأس يا ساحورع، هم ليسوا العدو اليوم بل مقدمة الدرع.

تنبعث من الفرعون رائحة نتنة، رائحة العجز والمرض والخلايا المتخثرة رغم أعراف الطيب التي يتضمخ بها جسده، جزء في روحه بدأ رحلة الموت، يلتفت نحوي، صدره لاهث ونَفَسه متحشرج يعاني حتى يحصل عليه.

– أريدك أن تحمل نينيت ومن معها وتغادر المدينة الآن يا ساحورع.

هممت أن أعترض، قائد الحرس لا يغادر الفرعون، المدينة تسقط وأبواق الهمج ترتفع حدتها من الشرق، في أقل من يومين ستغرق الحصون والقلاع ثم القصر بأعدادهم الكثيفة كالهاموش، غير أن لمعة كانت ضارية في عيون غائرة أفقدتني توازني، الفرعون لا يترجى أحدًا حتى لو استحالت نظرته الحادة إلى دمعة مكلومة خلف غشاء واهن مصفر.

– الملكة س..

– خذ نينيت ولا تنس زوجتك وطفلك لتكتمل لديك أهم الأرواح في المملكة.

تجاوز الملكة هو رسالة ضمنية لا يجوز فضها والتفتيش في نواياها، الفرعون يتألم وهو يضغط على قدميه ليخطو خطوة إلى الأمام، يرفع ذراعه الرخوة ويحط بكفه على كتفي.

– أمامك أقل من يوم، ستذهب بها إلى الجنوب واحرص على أن تنزل بينهم كأميرة البلاد.

يحني رأسه فأغادر الجناح الملكي، أرتدي جلد النمر وأحمل عصاي المبهرجة بالتمائم، يتبعني «إزي» كظلي، شاب صلب ويمتلك من الدهاء ما يؤهله للمهمة التي سأوكلها له، عندما أتوقف أمام مخدع الأميرة مدة من الزمن ثم لا أتلقى جوابًا، أخترق السدل وتتزحزح الوصيفة الأولى عن طريقي مرغمة، الأميرة قابعة في فراشها وعيناها الحجريتان تحدقان إليَّ بعناد لاهب.

– مولاتي، يجب أن نغادر الآن.

تظل تتأملني ببرود قارس، تتحرك شفتاها بعد دهر: – الحارس الأول للمملكة والفرعون يهرب من المواجهة!

– ماذا تعرفين عن المواجهة يا صغيرة؟!

– كنت أظن أن قائد الحرس يبقى إلى جانب الفرعون حتى اللحظة الأخيرة ويدفن معه في مقبرته.

– ساعديني في هذا أرجوكِ، ولننهِ هذا الأمر حتى أدفن بجانبه.

ما زالت متصلبة كالصخر ولا يبدو أنها ستستجيب، أشير إلى الوصيفة لتحضر ثيابها، قبل أن تذهب أقول: – قميص كتاني قديم يرتديه الخدم.

تتسع عينا الأميرة، تغيب الوصيفة وتحضر أسمال بالية وتنظر إليَّ حتى أخرج، أقبض على الثوب البالي وأناوله لنينيت.

– هنا والآن.

– أنت تمزح، أليس كذلك؟!

أقبض على ساعدها وأشرع في تغطيتها بملابس الخادمة، تنساق مع يدي العنيفة كطفلة مطيعة، الخمس وصيفات اللائي أصرت عليهن يرتدين مثل ثيابها، تقول الأميرة إنني جبان ولا أجسر على مواجهة الهمج لكني ماهر حقًّا في فرض سطوتي عليها، الغضب الذي تصبه علي ليس مقصودًا، إنها تعرف الكثير مما أعرف وتبتلعه مع الكثير من دموعها، تعرف أنها رغبة الفرعون وتعرف أين أمها الآن، من بيتي الكبير الملحق بالقصر أصحب زوجتي «منسا» والصغير «أوناس» ثم نغوص في الأنفاق الباطنية للقصر، «إزي» يزحزح الكثير من الأبواب الحجرية، نطفوا جميعًا كجرذان المزاريب في الشوارع الجانبية للمدينة المتداعية، أخبار الغزو سطت على تفكير العوام وأصبحت الشوارع تغص بالرعب والغضب، مرورنا بالأنفاق غطانا بطبقة من الأوساخ ساهمت في اندماجنا بالناس وخف قلقي من لفت أنظار أحد

أو عين من عيون الهمج فيلحق بنا، على هامش المدينة قضينا ليلتنا الأولى أسفل صفحة سوداء تتخللها أجرام بعيدة ساطعة وواخزة كمخاوفي، الأميرة تداعب أوناس دون تركيز حقيقي، إنها شاردة كروح هائمة تبحث عن مستقر لها بين أطلال المدينة، ما الذي تعرفه هذه الصغيرة اليافعة، السقوط لا يحدث مرة واحدة، بل له مقدمات عديدة، السطح رائق لكن الأعماق مليئة بالسخام، تكفي هزة واحدة من الهمج لتظهر الثقوب التي تبلع كل شيء، الأميرة تخترق أفكاري، تجلس بجانبي تمامًا، تقول بنبرة كسيحة: - ماذا تفعل هنا يا قائد الحرس؟

- أنفذ أوامر الفرعون.

- أنت المقاتل الأقوى في هذه المملكة كيف لا تحميها بحق آمون.

الكاهن خنسو خادم آمون هو من استبدل أباكِ يا أميرتي في العرش والفراش لو تدرين! أمام أفواج الكنعانيين اللاجئة من الشرق أتت الأخبار الرهيبة التي خلخلت أواصر المصريين الهشة، تروي الأهوال التي يسوقها الهمج في طريقهم، يجرفون الحياة ويشربون عصارتها، كل هذا الفزع حل في معابد آمون، سحر الكهنة امتد إلى النفوس فملكها، يخرج خنسو إلى الحشود الضارعة بطعامه ولسانه، تسكن القلوب والبطون في الآن ذاته، الجموع المحتشدة عصا في أيدي الكاهن يسوق بها القصر، ومن قبل الهمج وأهوالهم كانت سطوته كبيرة وممتدة إلى كل روح، تستدعيني الملكة فأخرج معها إلى المعبد، الصلاة والتقرب لآمون لا يصلان إلا بواسطة الخادم، ولا يقبل الإله الأرعن العبادة إلا في معبده وعلى يد خادمه خنسو، وحده الفرعون من يعاوده خنسو بين الحين والآخر، أمد يدي وألتقط كف الملكة الغضة، تهبط من العربة الملكية وأتبعها إلى الداخل، المعبد كبير وأعمدته رخامية منقوشة بصلوات آمون، نعبر البوابة الكبيرة، المئات من العباد يحملون قرابينهم ونذرهم، يتلقى منهم خدم آمون بكثير من التفضل خيرات محاصيلهم وثرواتهم، نصل إلى الساحة الوسيطة، كهنة صغار حليقو الرؤوس يسجدون في صفوف ليباركهم خنسو، تنتظر الملكة ولا تقطع على الكاهن الأكبر طقوس التطهير، يقبض الكاهن على الرأس بكلتا يديه كأنه سينتزعه، يتلو تمتمات كعزائم السحرة، ينظر إلى أعلى قليلًا مغمضًا عينيه، بسنت يناوله سكين لامع، يمرر النصل على حافة الرأس الأمامية ويتحدر سائل الحياة الأحمر على العينين مباشرة، بسنت يمد وعاء به ماء ليغسل خنسو كفيه من دماء الكاهن، قلاداته الكثيفة تتزاحم على صدره، يرفع رأسه ويطهر كاهنًا جديدا، ينهض السابق ويتوارى داخل أفنية المعبد، الندبة التي سترافقه إلى الأبد لا يحمل خنسو مثلها، كيف تطهّر إذًا؟! عندما يلمح الملكة تنتظر في ثبات شامخ يسند المهمة إلى بسنت، خنسو مربوع القامة وبه وسامة توارت خلف خبثه الظاهر، يضم كفيه أسفل ذقنه وتنحني له الملكة، لا تنحي الملكة لأحد في مصر سوى للفرعون.

- جلالتك.

- جناب الكاهن.

يتقدمنا في ممر حجري قديم إلى محرابه الخاص، هذه المنطقة محرمة حتى على الفرعون نفسه إذا لم يحصل على إذن الكاهن، هنا تتجلى صلة الكاهن بالإله آمون، هنا يطلب المغفرة ويرفع عن المملكة زحف الهمج، يغيب بداخل محرابه بالساعات وربما الأيام والشهور، لا يأكل ولا يشرب ولا يعرف أحدٌ حتى الكهنة من أين أو على ماذا يقتات الكاهن، لكنه في كل مرة يخرج وبشرته متضرجة بحمرة الصحة، الفترة الزمنية تتوقف على طبيعة الطلب الذي يطلبه من آمون، يحتاج آمون إلى أن يستفرغ خنسو ما في وسعه ثم يضيء المحراب بضوء واهن تتسلل خيوطه عبر الأزقة الضيقة في فرج الباب، يعرف الجميع بعدها أن خنسو سيخرج وقد جلب الهبة من آمون.

– لا تستطيع أن تدخل يا جناب القائد؛ لأنك غير مطهر.

على جسدي العاري ندوب عديدة لعشرات المعارك التي خضتها دفاعًا عن المملكة، أشير إلى إحداها.

– ألا يعد هذا تطهيرًا؟!

– لا بد أن يحدث على يدي أنا.

– لِمَ؟ هل هي هبة من آمون أم عجز منه؟

– هبة لي بالطبع.

– وكيف استحققت هبته الغالية؟

– إنه سر يا صديقي القائد.

– عليك أن تحتفظ به إذًا؛ لأنه جدير بالحسد أو السرقة!

يبتسم خنسو ويدعو لي بالغفران، تتبعه الملكة إلى الداخل دون أن تفقد ترفعها الملكي، أظل قابعًا في مكاني أنتظر، يخرج الكاهن قبل أن يتسلل الملل إلى نفسي، يحضر الوزير عنخو وزوجته، ثم أوسر كارع وأسوس، يستقبل خنسو كبار التجار وشخصيات الدولة الأشهر، نساءً ورجالًا، يكتمل المشهد ويبدأ التضرع الأكبر، لا يحظى أحد من باقي الحرس بما حظيت به، لا يجرؤ على الوقوف أمام باب المحراب سوى قائد الحرس الملكي، الشعائر المقدسة بدأت عندما تسللت رائحة الطيب عبر الفرجات واخترقت أنفي، شعرت بالخدر في أعصابي، تمتمات ودقات منتظمة وإيقاعية، آهات حارة تتهادى إلى سمعي، تخفت تدريجيًا وتشتعل من جديد، في كل مرة تشتد فيها الرائحة الغريبة تذوب حواجزي ولا أشعر بالغبن عندما يمر الكريه بسنت ليطمئن على المحراب ثم يتوارى في جحره من جديد.

الكثير من الوقت يمضي، ثم ينفتح المحراب ويتسرب منه المؤمنون لكن الإرهاق والتعب باديان عليهم، لا ينسى رجال القصر تحيتي قبل الرحيل، جلودهم رطبة وملامحهم رائقة كأن السر الآموني هبط وستتخلص البلاد من كابوسها المحدق.

تخرج الملكة ويتبعها خادم آمون، يتضوع جسدها بالعطر المقدس، جبهتها متعرقة وجلدها أيضًا لامع ورطب، سرت عليه الزيوت المقدسة لآمون، حتى فرجة صدرها التي ظهرت وهي تهم الصعود إلى العربة،

إلى أي مدى وصلت هذه الطقوس يا ترى؟!

ألتفت إلى الأميرة وأتساءل هل تعرف ما يحدث في جناح الملك، تقول نينيت وذهولها مسلط على زوجتي.

– لو كنت استجبت لي يا جناب القائد لأصبحت الفرعون وتزوجت الأميرة.

– أكنتِ تقبلين أن أقتل الفرعون؟!

– الفرعون ميت منذ مدة.

إذًا هي تعرف الكثير.

– ومع ذلك لم أكن سأسمح بقتل أبي، كان سيمكث في جناحه دون أن يعرف أحد أو يعرف هو حتى.

إذا لا تعرفين أسوسي، الصديق القديم مس الذات الإلهية للفرعون بحبل الصداقة الوطيد، لو مات الفرعون فأسوسي هو من سيحكم، حياة الفرعون كانت الضمانة الوحيدة التي كفلت لأمثالي التحرك بحرية، حتى أنتِ كنت ستتزوجينه في النهاية، هذا الفاني ما زال يحقد عليّ حتى الآن، أنا من ظفرت بقلبك وتركته عاريًا، أنا لا أملك في القصر سوى سمعتي وحفنة من الرجال، أما أسوسي فيملك كل شيء.

– الأمور لا تبدو كما هي عليه يا أميرتي.

– وما الذي تغير؟

– أوسر قارع مزق الجيش وأضعفه بصراعاته الداخلية مع عنخو وجعله أداة في يد خنسو ينظم بها نزره.

– لماذا لم تقتل عنخو وأنت من قال إنه همجي له دخل بهجوم الهمج؟

– لم يقتنع الفرعون بما قلت وأمر أن أصمت إلى الأبد.

تركت الأميرة وذهبت للنوم في حضن زوجتي للمرة الأخيرة، مع انبلاجة الفجر الأولى كانت هناك سحب من الغبار تتصاعد خلف الكتائب الزاحفة من الشرق، لم تكن نينيت نائمة، كانت تقف فوق التلة وتراقب السقوط الحاد للمدينة الكبيرة، اقتربت منها واستطعت أن ألحظ على الضوء الواهن للفجر دموعًا فضية تسري على وجنتيها.

– أتعرف ماذا سأفعل يا ساحورع؟ سأذهب إلى الجنوب إلى طيبة وأتزوج أميرهم وأستحثه على القتال إما أن ينتصر أو يموت، وقبل أن يموت سأحرص على غرس بذوره في أحشائي وسأهبهم واحدًا تلو الآخر حتى يمسحوا خطأك أيها الخادم المطيع».

***

– نور، لقد وصلنا!

أنظر إلى حسن بعينين غائرتين.

– متى نستطيع أن نكمل ما بدأنا؟

– في الصباح إن شاء الله.

هذه الليلة لم أستطع النوم كما توقعت، أعيد قراءة ما كتبت مرة أخرى، هذه الحقبة منسية وضائعة من التاريخ، ما الذي ساقته الأقدار إليّ؟! لم أعد راغبة في مسايرة هراء الواقع والمعركة التي بدأتها مع سلمى جمال، سافرت بعيدًا لعدة آلاف سنة ولم أعد أرد على هاتفي ولا مراسلات أحد، أتأمل الصورة التي التقطها للوح الجرانيت وأحاول فك الرموز التي علقت به كحجر رشيد جديد، بعد عدة محاولات أفشل ويدفعني اليأس والإرهاق إلى النوم، عندما أستيقظ يكون حسن جالسًا في الخارج منتظرًا، أنهض لأتبعه إلى البيت القديم، أجلس بين رفوف الكتب والبرديات القديمة وأتجرد من واقعي وأغوص مرة أخرى في الأمس: «كنت أفكر في عهدي المقدس، أيقظت إزي والباقين، عهدت بهم إلى إزي، أتابع النقع العرم الذي تثيره الزواحف المميتة وأقبل ابني وزوجتي، لم تفهم نينيت ما أنوي القيام به.

– سأذهب إلى الفرعون ولن أتركه وحده.

الكل يعترض حتى أوناس، نينيت تنظر ذاهلة، تقول: – لم أفهمك يومًا.

– افهمي أنني الحامي الذي هربك إلى الجنوب لتخوضي حربك من جديد.

منسا تتشبث بي تشير إلى بطنها المتكور: – أنا حامل.

– الأميرة ستتكفل بكل شيء.

– تتخلى عنا؟!

أقبلها بين عينيها.

– الواجب يا عزيزتي.

أقطع بجوادي الطريق الأسرع إلى القصر، هؤلاء الهمج الرعاع لا يعرفون أرضي أفضل مني. قبل أن يدخلوا المدينة أكون في الأنفاق الباطنية للقصر، أصعد إلى مخدع الفرعون، يكون مستلقيًا كعادته، لا ينهض هذه المرة، فقط يبتسم ويقول: – لا أستطيع أن أغضب منك يا ساحورع، لكن هل أوكلت الأميرة إلى من تثق به؟

– وصحبتها بنفسي إلى الخارج مولاي.

– كيف سنفعلها؟

– بالطريقة الملكية.

أخرج سم الكوبرا وأدسه في الشراب.

– تعلم أنني لا أحتاج إلى شيء للعبور إلى العالم الآخر يا ساحورع.

يشرب الفرعون الشراب الملكي، لا أفضل أن أراه يحتضر، أقف بجانبه كالصنم، يتحشرج صوته وتغالبه أنفاسه، تغور نظرته وتفتر ثم يشهق وتسيل قطرات قانية من دمائه على جانبي فمه، أغادر الجناح الملكي، لم يكن القصر مضطربًا أمام الغزو الجديد، عنخو هيأ كل شيء ليستقبل زعيم القبائل

الهمجي على عرش الفرعون، بعثت إلى أسوسي أبلغه رغبة الفرعون في لقائه، لم أتوقع أن يحضر في هذا الوقت، لكننا تقابلنا معًا أمام مخدع الملكة، من أين تأتي يا أسوسي؟!

– أسوسي، الفرعون قد مات.

لم يبدُ عليه أنه فهم.

– أنت خادمه المخلص.

أقترب منه وأدس خنجري الممسد بسم الكوبرا في بطنه، تجحظ عيناه، ويلفظ أنفاسه الأخيرة.

– تشاركتما كل شيء، الحكم والصداقة وربما ما هو أبعد، يتبقى الشيء الأخير يا جناب المستشار.

الملكة بين وصيفاتها ترتدي الثياب الملكية وتبدو في أبهى صورها لاستقبال زعيم الهمج، عندما رأتني حدست سبب مجيئي، أصابها الخوف وتحجرت في مكانها، أنا أقرب إليها من طموحاتها، همستُ في أذنها أن الفرعون مات ويجب أن تصحبه في رحلته إلى العالم الآخر، استقبلت طعنتي بهدوء، وأمرتُ الوصيفات بتسجيتها على الفراش الملكي.

أوسركارع كان يهيئ الكتائب لاستقبال الهمجي، يكفي أن تعلن خضوعك وتصبح واحدًا منهم، علمت أن عنخو هو من طلب ذلك، لا حاجة للقتال إذا كان بلا جدوى، متى صارا متوافقين هكذا؟! ربما يصير أوسركارع القائد أيضًا في الجيش الغازي، بنفس الطريقة أعلنت خضوعي للفرعون الجديد، ولمكانتي صرت أرافق القائد الجديد كظله، وفي اللحظة المواتية أخبرته بموت الفرعون، ضحك كأنه شيء لا يعنيه، لكنه بدا مذهولًا وأنا أسلبه روحه، وهو ينزف بين يدي أخبرته أن عليه أن يصاحب الفرعون في رحلته الأخيرة.

اجتاح الهمج البقعة الصغيرة من الجيش التي لم ينخرها أوسركارع، بعض الجنود البواسل الذين تكاتفوا للدفاع عن المدينة واجهوا نوعًا جديدًا من الأسلحة، عربات خفيفة تجرها خيول صغيرة الحجم وفي غاية السرعة، أقواس وسهام كبيرة تصل إلى مسافات أبعد من تصوراتنا، تم تدمير الكثير من الأسوار، تكومت الجثث في شوارع وأزقة المدينة كحِوالات القمح في موسم الحصاد، كثيرة وزهيدة ورائحتها قاسية، الغروب شديد ومرهق يا ساحورع، أمام عيني مباشرة همجي يمتطي مصرية، ما كان هذا ليحدث حتى في أعتى كوابيسي ظلمة، بجلد النمر الذي أرتديه وعصاي المشقوقة أبدو همجيًا أكثر من الهمج، ينظر إليَّ مبتسمًا ويقدم دعوة، أنزعه من فوقها وأحطم جمجمته، تسيل الدماء الزنخة على ساعدي، أهوي برأسه على الجدار الحجري فيتهشم كثمار الأناناس، على امتداد النظر الكثير من الهمج والكثير من المطايا، أصم أذني وأكف بصري وأشق طريقي نحو المعبد، الآلاف من العوام ينشدون الأمن في ساحات آمون، يتراكمون على الأبواب وينتظرون الفرج، لا يبدو أن المعبد الضخم سيستقبل أرواحهم كما استقبل ثرواتهم، يصد خدم آمون الأبواب في طريقهم، كتائب الهمج بعجلاتها الرشيقة تقترب من الحشود الغفيرة، تقتل وتأسر وتسبي وتنهب تحت سمع وبصر آمون وخدمه، أين خنسو الخادم الأكبر؟! الفرعون يطلبه هو الآخر، بعدما اخترقت المعبد من أحد أبوابه السرية للخدم لم أعثر على خنسو، الكثير والكثير من

الغلال والذهب لم يقربها حتى الهمج الذي يجولون بالداخل في هدوء مريب، محراب آمون ليس محرابًا، عندما دخلته كان جناحًا ملكيًا للخادم الأكبر، تماثيل حجرية صغيرة مرصوفة في دائرة، ساحة كبيرة وسرادق متراصة على الجانبين، شعلة من النار في المنتصف والكثير منها معلق في الجدران الدائرية، بهذه الشعلة كان يمهد خنسو لخروجه الإلهي، في هذه الساحة مورست أقذر الطقوس بحق المملكة والفرعون الغافل.

أقبع في المحراب منتظرًا خنسو، يعود في المساء بعد أن بارك الفرعون الهمجي وأجلسه على كرسي العرش، نفوذه تقلص قليلًا لكنه ازداد إيغالًا في قداسته الدينية، الفرعون الهمجي يعلم الكثير عن حياتنا وسياستنا، الفرعون الهمجي درسنا بعناية شديدة وعندما حانت الفرصة لم يتردد.

– خنسو.

ارتج بطنه العملاق ونظر نحوي بفزع عميق.

– لم يمنعني آمون من الولوج إلى محرابه.

– تت.. ساحورع أنت كافر مرتد!

– سأقدم دماءك الآن ضحية لآمون لتعرف أنني أكثر إيمانًا منك.

أقبض على رأسه كما في طقوس التطهير، تخرج منه صرخة لا تليق بمقامه، أمرر خنجري على عنقه وأحزه حتى يرتمي الجسد على الأرضية المقدسة ولا يزال رأس الخادم الأكبر في يدي.

أميرتي نينيت إذا وفيت بوعدك وعدت ذات يوم إلى الشمال فأرجو أن تعثري على المقبرة الملكية في باطن القصر، اقرئي ما كتبت جيدًا لتعرفي أنني قمت بواجبي وصحبت الفرعون إلى نهايته وانتقمت ممن خانه وخان البلاد، الأجساد الأربعة حرقتها وبعثرتها في العراء حتى لا تصل إلى الجانب الآخر ووضعت بدلًا منها تماثيل صغيرة لتذكر جلالته بما حدث في العالم الآخر، أما عنخو فلم أعثر عليه لأن فرعون الهمج قتله بعد أن استتب له الأمر خشية من نفوذه في القصر، أميرتي نينيت في العالم الآخر لن أتردد لحظة واحدة».

أقلب البردية الأخيرة ولا أعثر على شيء آخر، هذه النهاية! أعيد القراءة مرة أخرى من البداية ولا شيء جديد، كيف مات الهمي؟! أين دفن؟ أتذكر اللوح فأمرر يدي المحمومة فوق نقوشه، ربما كان للأمر علاقة بالهمي، لقد وفى نذره ومهمته المقدسة لكن ماذا عن نينيت؟ يرسل لي أستاذ المصريات رسالة عن اللوح، بعد الكثير من الكذب ومحاولة تضليله أصر على أن ما في يدي كشف أثري جديد، وأن اللوح عبارة عن خريطة لمقبرة متضمنًا رسالة «سأظل بجانب الفرعون»، تهبط عليّ فكرة حمقاء وطائشة لكن لم لا؟! وكل الكشوف الكبيرة كانت محض ترهات في البداية، أخرج هاتفي وأتصل بحسن.

– نور، أنا قادم.

– حسن، أين وجدت هذه التماثيل والبرديات؟

- لا أعرف!

- لا تعرف.. يا للخسارة.

- لماذا؟

- أظن أني عرفت من تكون الأميرة في التاريخ الفرعوني.

- أي أميرة؟!

- إياح حتب، أم أحمس.

- إياح حتب؟! هل هناك كنز.

- لا يوجد سوى مومياوات متفحمة يا حسن، ألا تفكرون في شيء سوى المال؟!

- لا يوجد كنز!

- لا يوجد سوى تماثيل ستة وقد خرجت بالفعل.

يضحك حسن ويقول إنه سيكون عندي في أسرع وقت ممكن، أتأمل الفكرة التي اختمرت في رأسي وأعتقد أنها ستكون رسالة دكتوراه مدهشة وكشفًا تاريخيًا مذهلًا، نينيت ذهبت للجنوب وتزوجت سقنن رع وأنجبت أميرين، مات الزوج والابن الأكبر في قتال الهكسوس كما وعدت، ثم حرر الأصغر الشمالَ أخيرًا من الهمج، يتبقى العامل الزمني وهو ليس بالأمر الجلل لو حرر أحمس مصر من الهكسوس في عمر الأربعين لأصبحت الفوارق طفيفة وتقبل اختلافات المؤرخين، أخرج دفتري وأدون أفكاري، وفي الخاتمة أضع وردة قطفتها من الحديقة القديمة أقوم بتثبيتها وأكتب بجوارها الهمي والأميرة.

- حسن، هل أتيت؟

وقع خطوات رتيب يقترب، أنهض لأستقبل الهمي الخاص بي، ينفتح الباب وأطالع غرباء بسترات سوداء ويقبضون على أسلحة مرعبة، يدفعني أحدهم إلى الأريكة، أجلس ويسلط الآخر فوهة بندقية إلى رأسي، يقوم الآخرون بالسطو على البرديات واللوح، يقول القائد لآخر: - اخرج وقابل حسنًا بوضوح حتى لا يفاجئنا بشيء متعب، أخبره أن فتاته معنا.

قلبي ينتفض في صدري، أنا خائفة وبرودة قطبية تسكن روحي، رغم ذلك أدعي الصمود والصلابة، يدخل حسن وللمرة الأولى أرى القلق منتشرًا في تقاسيمه وهو ينظر نحوي، تسري دموعي على وجنتي رغمًا عني، يقول بهدوء: - يا سادة، أخذتم المفتاح، فأرجو أن تخرجوا بسلام ولا داعي لأي عنف.

القائد ينظر لحسن ببرود شديد، يقول حسن مشيرًا إلي: - إنها من فكت الرموز وأخرجت الخريطة، تستطيع أن تقودكم إلى الكنز بسهولة.

- الأوامر تشدد على ألا نخاطر معك بأي شيء، فأنت مخادع كبير يا حسن.

ويطلق...

- 18 -

نبضة خافتة إيقاعية منتظمة تخترق جدران حلم غير مفهوم، تتصاعد تدريجيًا محدثة شرخًا في جدار الوعي ثم مرة واحدة يتدفق الواقع إلى رأسي فأستيقظ، أين أنا؟! ممدد في فراش مريح ويداي مكبلتان بأنابيب تصب سوائل شفافة ومصفرة قليلًا، جسدي عارٍ ومغطًى بمريلة زرقاء، النبضة تصبح صافرة تأتي من اليمين، أنظر فأرى شاشة ترسم نبضات قلبي في صورة منحنيات تعلو وتهبط، أنا في غرفة طبية في مستشفى ما، أين نور؟! يا إلهي.. نور! تحضر ممرضة وتحاول تهدئتي، نووور! لقد تأخرت مرة أخرى وانتهى الأمر.

- استدعي الطبيب حالًا.

الرصاصة اخترقت رأسها تمامًا.

- حالته تزداد سوءًا!

ما كان يجب أن أتركها وحيدة، ما كان يجب أن تقتلوها يا أولاد الكلب.

- حقنة مهدئة، مهلًا هل هذا الجرح ينزف؟

سأقتلكم جميعًا، أقسم بربي لأطاردنكم إلى آخر العالم، أقسم أن ألج خلفكم كل جحر وكل شق، سأقت..

***

أنفاسي منتظمة أبقيها منتظمة كما علمني أبي، شهيق بطيء وزفير أبطأ، أسمع نبضي في أذني، أفتح عيني وأتأمل السقف المربع، الأضواء الخافتة، وقلبي الذي يحتضر في صدري، هل أنا أبكي؟! سامحني يا أبي لا أستطيع أن أحبس دموعي كرجل هذه المرة، نوور..

- حمدًا لله على سلامتك يا بطل.

بطل! خالد صوفي يجلس بجانبي منذ متى؟! ألتفت إليه، يقف في الركن مستندًا إلى الحائط، يقترب مني بتخاذل: - خشيت أن أفقدك يا صديقي.

يربت على كفي الخالية من المحقن، لا تتوقف عيوني عن الدموع رغم محاولتي: - من أنت؟!

- من أنا؟!

ينظر إلى بريبة.

- ألا تتذكرني يا حسن؟!

بالطبع أتذكر كل شيء، حتى البقعة الحمراء بين عيني نور أتذكرها أيضًا، أتذكر تخاذلي وغضبي وكل شيء يا باشا.

- أنا خالد صوفي.

- من خالد صوفي؟!

- يبدو أنك ما زلت تحت تأثير المخدر، لا بأس لقد انتهى كل شيء يا صديقي وعثرنا على مقبرة الهمي وتم القبض على مدحت سليمان بتهمة تهريب الآثار.

والقتل يا باشا؟! أهز رأسي مستفهمًا.

- استخدمت الفيديو القديم؛ فبعد أن ظهر كل شيء لم يعد لحصانته التي انتزعها مني في التفاوض معنى، إنه في سجن المزرعة الآن وكل هذا بفضلك وبفضل فك الرموز التي قامت بها نور.

نور.. الرحمة يا إلهي.

- أنا لا أعرف ما الذي تتحدث عنه يا سيد خالد.

ريبته تتحول إلى صدمة حقيقية، يستدعي الطبيب ويقف خلفه مذعورًا، يتفحصني الطبيب جيدًا، يفتح عيني ويوجه إليها كشافًا صغيرًا، يسألني بعض الأسئلة، ينظر في الملف الذي يشخص حالتي، يقول: - مخه سليم، ولا يوجد سبب عضوي يؤدي لفقد الذاكرة، العملية التي قام بها كانت لإخراج رصاصة بجانب القلب، لا أرى شيئًا يمنع تذكره سوى العامل النفسي، أنصح بعرضه على استشاري طب نفسي لأنه تعرض لصدمة عصبية بسبب ما حدث ويعاني من حالة إنكار.

حبست ضحكاتي، كنت أود أن يعرضوني على محمود سالم، يقف خالد مشفقًا ويهز رأسه في أسى بالغ، يقترب مني ويقول: - صديقي القديم، لقد حصلت على وسام الجمهورية لمساهمتك في القبض على شبكة تهريب آثار خطيرة، وجهودك في اكتشاف جزء من تاريخ مصر، كما حصلت الشهيدة نور على الدكتوراه الفخرية لوضعها الخطوط الأولى لعلماء المصريات والآثار في التنقيب عن شخصية أثرية جديدة.

يخرج عدة صور لي معه، ثم صورة سيف ويقول:

- كما تم إسقاط الحكم القضائي الذي يمنعك من حضانة سيف، أتمنى أن تحرك هذه الحقائق شيئًا في ذاكرتك.

كيف تكون أبله؟ فقط أسمع كل هذا وأسأل ما دخلك به؟ عندها يمكن أن ترى الإحباط. يخضع خالد للأمر الواقع، يهز يديه بحسرة وقبل أن يخرج يقول إنه سيعود مرة أخرى.

- أنا لن أمكث هنا يا سيد خالد.

- لكنك ما زلت في فترة النقاهة.

- منذ متى وأنا هنا؟

- عشرة أيام.

يا إلهي!

- وهل كنت فاقدًا للوعي طيلة هذه الأيام؟

يشير إلى الخارج ويقول:

- يقولون إنك كنت تنهض متشنجًا، ثم تأخذ حقنة مهدئة وتنام مرة أخرى.

- أود أن أذهب إلى بيتي.

- وهل تتذكر أين هو؟

- يبدو أنك تعرف، أليس كذلك؟

يعود خالد بعد خمسة أيام كاملة، يقول إن الطبيب سمح لي بالخروج أخيرًا، يصحبني إلى الخارج ويقود السيارة إلى شقتي، نهبط معًا أمام بنايتي ويقودني إلى الطابق الرابع، نخرج من المصعد ويولج المفتاح الذي حصل عليه من سيارتي في الباب، ندخل ويتوقف في المنتصف، يقول إن هذا بيتي، مرة أخرى يتأملني بإشفاق حقيقي، يصافحني بود ويقول: - سأتركك تستكشف بيتك بنفسك، أتمنى لك التوفيق يا صديقي البطل.

يغادر خالد الشقة وأشعر بالشفقة لمشاعره الصادقة، إنه حزين لأجلي ويشعر بشيء من المسئولية، لكن أبي كان يقول إن للبيوت رائحة، تستطيع أن تميز البيوت من ساكنيها، لشقتي رائحتي ورائحة سجائر أبي أحيانًا، أما الآن فأشم رائحة غريبة، تتحرك غرائز الذئب بداخلي، المطبخ أولًا وأبدًا يحمل الكثير من الإجابات، في سلة المهملات ألمح بقايا طعام جديد ليتضاعف شكي، أمرر يدي على الحوض فلا أعثر على غبار ناتج عن غياب خمسة عشر يومًا، صنابير المياه رطبة وليست جافة، مائدة الطعام تحمل فتات خبز جديد، أخرج من المطبخ أتحسس طريقي إلى باقي الغرف، في غرفة المعيشة وأمام الشاشة الكبيرة المسطحة شبشب مخملي أزرق يطل من جانب الأريكة، أتأمله بهدوء وأتذكر نور، قلبي ينقبض وتداعب رأسي خيالات حزينة، هل يمكن أن أعثر عليها هنا تحمل طبق شوربة تتراقص أبخرته أمام وجهها الخلاب؟! عندما دخلت غرفتي وتحسست فراشي وجدته دافئًا وليس جافًا كما يجب، أنظر إلى حمام غرفتي فأجده مغلقًا، أتحرك ببطء وأفتح الباب مرة واحدة، تصرخ سارة مفزوعة، أتأملها بدهشة حقيقية: - سارة!! ماذا تفعلين هنا؟

تسدد سبابتها نحوي قائلة ببهجة:

- أنت لم تفقد الذاكرة كما سمعت!

أفسح لها الطريق، تقول:

- فاجأني الضابط بوضع المفتاح في الباب، لم أعثر على شيء للاختباء فيه سوى حمام غرفتك.

- منذ متى وأنتِ هنا؟ وكيف دخلتِ الشقة؟!

- أنا هنا منذ أسبوع تقريبًا، ودخلتها من خلال مفتاح سلمى، وتفاجأت أنك لم تغير القفل.

- يبدو أنني أرتكب الكثير من الأخطاء في الآونة الأخيرة، هلا خرجت من غرفة نومي.

تضحك وتقول إنها أصبحت غرفة نومها هي، وأنا من يجب أن يخرج، نجلس في الخارج وأسألها عن سبب اللجوء إليّ.

- أخبرت جمال أنني حامل، وأراد أن أجهض طفلي.

تتحسس بطنها برفق ولمحة من الحزن تغزو ملامحها فجأة.

- قلت إنك مدين لي يا حسن، أريدك أن تسدد دينك.

لا تعرف سارة كم أنا ممتن لهذه الهدية.

- أرجوك يا حسن، أنت الوحيد القادر على حمايتنا.

تنهض وتغيب داخل شقتي مقتحمة خصوصيتي وتعود بحقيبة يد، تخرج منها صورة ضبابية وتدفعها إلي، ألتقط الصورة وأحاول أن أتأمل الكائن العجيب الذي يتوارى في الأعماق: - حسن، إنه في الشهر الرابع.

نظرتها غائمة.

- أشعر بركلاته في جانبي، أنت أب وستشعر بما أشعر به.

بالتأكيد لم أشعر بأي ركلات.

- أخبريني، هل هو ابن شرعي؟

تنتفض غاضبة، بطنها برزت بشكل ملحوظ.

- أنا لست كما تظن يا باشا!

أتفرس ملامحها الغاضبة وأقول:

- هل معك ما يثبت؟

تظل عيناها معلقتين بعيني فترة ثم تتحرك إلى حقيبتها، تخرج منها وثيقة زواج عرفي وتمدها إلي، أقرأ الوثيقة جيدًا وتختمر في رأسي الفكرة، أما سارة التي تشعر بالإهانة فلا أعثر على روح في جسدي تسمح باعتذار، أحتفظ بالوثيقة وأسأل سؤالًا ملحًّا: - هل قمت بإخفاء آثارك أم هناك آلاف الأصابع التي تشير إلى حيث تقفين الآن.

- لا أظن أن أحدًا يعرف أنني هنا.

- هل خرجتِ من الشقة للطعام أو العيادة؟

- كان هناك الكثير من المعلبات والفاكهة في مطبخك وهذا أكثر مما تحتاجه امرأة حامل على مدار أسبوع، وأتابع مع الطبيبة على الواتس.

ثم تتذكر شيئًا.

- وكانت هناك رسالة بخط منمق على باب الثلاجة تنصحك بأن تأكل جيدًا.

تتسلل إليّ برودة عنيفة، الحبيبة نور تصر على عصر قلبي، لو كنت وحيدًا الآن لبكيت بحرية كما ينبغي لذكرى نور، أخرج الهاتف وأتوقف قبل أن أتصل بسعيد، أضعه مرة أخرى وأحاول التفكير في شيء آخر، لن أواجه سعيدًا وفريدة هانم إلا بعد أن أنتقم، عندها يمكن الوقوف بينهما منتصبًا والاعتذار بشكل مقبول، أما قلبي فعليه أن يتعذب إلى الأبد.

– هل يمكن أن أطمئن إليك يا حسن؟

نفسي متجهمة وجسدي شاخ ولا أظن أني قادر على حماية نفسي، أرفع رأسي إليها، نظرتها القلقة تحرك في صدري رياحًا ثلجية، أردت أن أطردها لأختلي بدموعي وسجائر أبي ورسالة على ثلاجتي سأبحث عنها إلى أبد الدهر.

– أرجوك يا باشا لو خرجت من هنا سيقتلونني أنا وجنيني، الدكتور جمال عرف بهروبي لا شك وأصبحت نواياي مكشوفة.

تناديني بلقب جدي القديم وتجلس عند قدمي متضرعة، فاجأتني حركتها الضارعة، لا تعرف أنني ضعيف وخاوٍ ولا أقدر على رفع نفسي أو رفعها من الأرض، استحالت نظرتها الفزعة إلى دهشة حقيقية، فمها يتسع وتكتسي الملامح الفزعة إشفاقًا وعطفًا غريبين.

– هل هذه دموع؟! أنت تبكي يا حسن!

أبكي؟! ماذا تقول هذه الحمقاء، كفها تحط فوق ركبتي، تقترب مني وتخترق رائحتها أنفي، تواسيني كطفل صغير يبكي لعبته الضائعة، أنا أبكي نوري الضائع وخذلاني الكبير، أشعر بالكثير من الغضب، لا يجب أن أتعرى أمامها هكذا، لكني عاجز عن النهوض أو حبس دموعي الحبيسة منذ دهور، تحل لحظة صمت قاسية، إنها تحترم فورتي العاطفية، أتحاشى النظر إلى عينيها وأفيق من سكرتي أكثر صفاءً، كأني تخلصت مع الدموع من الغبش الذي يبدد رؤيتي، ثم أستعيد غضبي ليترسب في قاع جوفي جمرة جمرة، تتأملني سارة بنظرة صافية خالية من شوائبها الأولى، تقول: – أنت إنسان الآن يا حسن، صدقني كنت أخاف منك مثلهم تمامًا فلم تكن تختلف عنهم كثيرًا في نظري، تقتل وتتآمر وتبتز ونحن من نُسحق في معاركك دون أن تنتبهوا لنا، لكني الآن لا أشعر بأي خوف منك.

تنهض وهي تقول:

– كنت أفكر في الرحيل لأني شعرت أنك تخطط لاستغلالي، لكني سأبقى هنا معك حتى لو قتلتني.

تتجه إلى غرفة نومي، تغلق الباب وتسكر مزلاجه.

– يمكنك أن تنام في مكانك أو في غرفة سيف، أما أنا سأنام هنا للمزيد من الراحة لامرأة حامل كما تعلم، وإذا أردت أن تتخلص مني فاعثر على طريقة تخلصني من جمال عبيد.

أتابع عزف أنفاسي للتغلب على نقمتي عليها، رغم حاجتي إليها فيما بعد إلا أن طريقتها المقتحمة لا تتناسب مع نزعتي الباحثة عن الوحدة، أخرج إلى الشرفة الصغيرة في غرفة الاستقبال، بعد أن سطت سارة على شرفتي المفضلة، وأسحب سيجارة من علبة أبي، الليل جميل وممتد، والأفق مرصع بآلاف

الجواهر كأسنان نور، سألتني متى بدأت في التدخين ثم ضحكت على عادتي الغريبة كما وصفتها، أقنعتني أن أكف عن التبرع لأبي بالمزيد من الدخان والاكتفاء بالدعاء له، لا تفهم نور أنني أستمد من طريقته في التدخين حضوره المادي، خيوط الدخان تستحضر طيفه ويمكن أن نتحدث قليلًا ونفكر معًا في أمور شتى، تقول لي وهي غارقة في كومة الكتب تترجم البرديات في البيت القديم.

– لم أكن أعرف أنك فيلسوف.

تبحث في كتبها وتدون الملاحظات التي وصلت إليها:

– الفلسفة معقدة لا تناسب الحياة؛ فالحياة أبسط من أي فلسفة، لن تستفيد شيئًا من التدخين سوى أن تفقد رئتيك، ولن يعود أبوك.

– هل تريدينني أن أتوقف عن التدخين؟

– نعم، بالتأكيد.

– إذًا تزوجيني وسأتوقف عن التدخين.

– لن أتزوجك ولو كنت آخر شخص في العالم يا حسن!

أقترب منها وأقول إنها تحبني، أراقب اختلاج عينيها والحرارة التي تشع من وجهها، تنظر إليّ بعناد طفولي: – أحبك، لكني لن أتزوجك.

– لماذا؟! حتى سلمى جمال فعلت، أنا شخص لا يقاوم صدقيني.

– تبالغ في تقدير نفسك وبارد كالجليد وتستطيع أن تقتل أي وردة بمجرد اللمس، لا تقترب مني يا حسن.

– أووه لم أكن أعرف أنك فيلسوفة.. أخبرني شخص حكيم منذ دقيقتين أن الفلسفة معقدة ولا تصلح للحياة، الحياة أبسط من الفلسفة يا نور، أنا أحبك، أنت تحبينني، الزواج هو نهاية الأمر.

تشهق وتقول إنها توصلت إلى شيء عجيب، أسألها فترفض أن تخبرني وتقول إنها لن تريني شيئًا حتى تنتهي، يوسوس إليّ الشيطان فأخرج لقضاء شيء ما والغريب أنني لا أتذكر دافعي للخروج، هل لجلب طعام أم هدية أم أطلب يد نور من سعيد وفريدة هانم؟ لا أدري، تبخر هذا الجانب من ذاكرتي بلا تظاهر أو ادعاء، أعود لأجد سيارتين وأحدهم يرفع لافتة أن فتاتي معهم، جسد عمي لطفي مسحوق على قارعة الممر، دخلت وعجزت عن التفاوض، وجودها بين أيديهم خائفة وبعيدة شل تفكيري، كنت مستعدًا للانحناء وتقبيل قدمه، لكنه دون تردد أطلق بين عينيها مباشرة، رصاصة واحدة حسمت أي محاولة وبددت صرختي، آه يا نور لا تعرفين ماذا أخذتِ معكِ؟

يفشل دخاني في استدعاء طيف أبي، يجافيني الآن ويحملني المزيد من الأخطاء، أقذف السيجارة وأمزق العلبة وأطوح بها بعيدًا في الفضاء البعيد، أعود إلى داخل الشقة وألمح الشيء الذي تركه خالد صوفي على المائدة قبل أن يخرج، أقترب وأحترق! دفتر نور الذي حملته بين يديها في اللحظة الأخيرة، أنهار

على الكرسي وألتهم صفحاته بنهم، تحكي كل شيء عن البرديات وتقول إن اللوح هو خريطة لمقبرة الهمي نفسه، سوف يغلق عليه بابها ويموت بجانب الفرعون، أخبرني خالد أنهم عثروا عليها ووجدوها خالية تمامًا، نور تعلق في مذكراتها أنه سيعاقب نفسه ويضحي من أجل فرعونه ومحبوبته، لا تحنيط ولا حياة أبدية في العالم الآخر، أجد نفسي مشمئزًا من حجم التضحية، أتخيل نور وهي توبخني على استهتاري بمشاعر الآخرين، في الصفحة الأخيرة تكتب نور: - إهداء إلى الهمي الخاص بي... حسن سليم.

أعيد قراءة الإهداء عشرات المرات بروح ممزقة وقلب نازف، عندما أغلق الدفتر أعثر على بقعة دم جافة وباهتة على الغلاف تعيد إلى أعماقي ضراوتها وجحيمها القديم.

في الصباح قبل أن تستيقظ المرأة التي سطت على حياتي، أغادر الشقة لممارسة مهامي المقدسة كهمي نور، في مدينة العبور أنتظر أمام العنوان القديم كما كان على ظهر الصورة، تهبط الدكتورة ريهام ومعها طفلتها الجميلة من برج جديد، أعترض طريقها عفوًا فتتأملني كأنما تتذكر وجهًا مألوفًا، تتذكر الوجه وتخاطبني بود: - هل أنت السيد حسن سليم؟

أومئ برأسي مبتسمًا، تقول إنها سعيدة بلقاء بطل مثلي، وتعتذر عن موت الشهيدة نور، تقول شهيدة بنبرة عزيزة تحمل الكثير من المواساة، أدرك أنها التقطت الطعم، وبعد عدة دقائق أكون جالسًا بجوارها في سيارتها توصلني إلى المدرسة التي تدرس فيها ابنتها لكي ألتقي بصغيري سيف، قبل أن أخرج مسدسي أفكر في الصدمة التي يتسبب بها بطل قومي يقوم بخطف أم وطفلتها، ربما تعتقد الدكتورة أنني -كما قيل سابقًا- مغتصب أطفال.

في ساحة السجن على نفس الأريكة المخصصة للزيارات، جلست وانتظرت حسام رشيد، كانت نظرته غائرة ومشيته متخاذلة، جلس في مواجهتي وابتسمت له ابتسامة فاترة.

- حسام باشا، جئت لأخرجك من هنا كما وعدت.

يزدرد لعابه ويحملق في وجهي مرتابًا.

- ماذا تريد يا حسن؟

أخرج له صورتين وأضعهما على المنضدة.

- اختر يا باشا من يجب أن يموت.

يحدق إلى الصورتين، إحداهما لمدحت سليمان والأخرى لزوجته وابنته، تقفز علامات الاستفهام من وجهه، ينتظر توضيحًا لهاجس يجلده كالسوط.

- مدحت سليمان هنا في ركن ما، ستعثر عليه وتحقق العدالة حتى لا يتحقق نقيضها في الخارج.

قبل أن يغلق فمه أخرج هاتفي وأريه لحظة ركوبي مع زوجته في سيارتها، كلماتها الدافئة الممتنة، ابتسامات طفلته ونظرتها البريئة لبطل قومي، ثم أخيرًا مسدسي واحتجازي لهما في مكان سري.

– سأعطيك يومين، ثم سأنتظر مكالمتك في السابعة صباحًا من اليوم الثالث، إذا لم تفعل سأقتل زوجتك، وأعطيك يومين آخرين قبل قتل الصغيرة.

– أنت لن تفعل شيئًا.

أهم بالنهوض وأقول:

– إذًا انتظرني بعد يومين لتتأكد بنفسك.

– مهلا يا حسن، كيف سأصل إليه؟! إنه محصن في جناح خاص.

– تستطيع أن تصل إليه؛ فأنت رجله يا باشا.

أغادر الساحة ويحاول حسام أن يتفاوض بأي شيء آخر، عندما أبتعد يهددني بالقتل لو اقتربت منهما، في طريقي أجلب معي الكثير من الطعام، ما يكفي ليومين، معجون أسنان وفرشتين ولا أنسى حقن الإنسولين التي تتعاطاها الصغيرة، كان سعيد قد استأجر مخزنًا قديمًا في العمارة الخلفية للورشة عندما توسعت تجارتنا، تم نقل بعض الماكينات إليه، لكنه تعطل عن العمل للظروف الأخيرة. في غرفة المعيشة الخاصة بالحارس، تجلس الدكتورة ريهام على سرير صغير وفي حضنها ابنتها، تستقبلني بلهفة.

– كما توقعت يا دكتورة، إنه يصر على البقاء مختبئتين خلال أربعة أيام حتى ينتهي الأمر.

– أرجوك يا حسن، أخبرني ما الذي يحدث!

أنظر إلى ملامحها المتراقصة من شدة التوتر، أقول:

– هناك شخص شرير يجب أن يموت وإلا سينتقم من حسام باشا على مساعدته لي في السجن بأن يقتل طفلته.

– ومتى سيخرج حسام؟!

– كما قلت لكِ يا دكتورة، بعد أن تنتهي هذه العملية ينتهي كل شيء.

أداعب شعر الصغيرة وأقول:

– هناك شيء آخر يجب أن تقومي به لسلامتكما يا دكتورة.

– ما هو؟

– سنصور فيديو.

أغادر المخزن وأمر من أمام ورشتي، أبوابها مغلقة للمرة الأولى منذ ثلاثة عشر عامًا كاملة، حتى عندما مات أبي لم تغلق أبوابها سوى يومين واستعاد العمل دأبه كخلية نحل، أتابع طريقي إلى شقتي، أضطر أن أضغط الجرس عدة مرات لتنبيه الضيف الثقيل الذي يجسم على راحتي، أدخل وأتفاجأ بأنها أعدت مائدة الغداء، تقول: – لماذا تتظاهر أنك فاقد الذاكرة يا حسن؟

سعيد والسيدة فريدة، لم أستطع مواجهتهما إلى هذه اللحظة، أتذكر لقاء أبي بفريدة هانم وكيف حملته مسئولية قتل زوجها وانشقت عنا إلى الأبد، كيف يمكن أن أقف أمام امرأة كهذه إلا لو كنت فاقدًا للذاكرة.

- ما حاجة قتل رجل لا يتذكر شيئًا عن ماضيه؟ ثم لا أستطيع مواجهة والدة نور.

تعلو وجهها جهامة قاتمة.

- ما الأمر؟

تشيح بوجهها بعيدًا وتقول لا شيء.

- ليس من السهل إخفاء شيء عني كما تعرفين.

تنظر إليّ بتردد وتقول:

- الست فريدة ماتت بعد موت نور بيومين.

أتحنط في مكاني كمومياء قديمة متعفنة تذروها الرياح، تنهض سارة من كرسيها خلف المائدة ببطء وارتباك وتقول: - لم أكن أريد إخبارك، لكنك أصررت.

حكمتك يا رب! كيف حدث هذا؟! لقد طالتهم لعنتي، انفرط عقد البيت منذ خطت قدمي عتبته، يا لشؤمي عليكم يا نور!

- هل أنت بخير؟

صوتها له صدى عنيف في جوفي، لكني بخير وأقسى من ذي قبل، لم يعد هناك بد من اللهاث خلف حسنة أخيرة تمحو كل هذه الذنوب، أهم بالحديث فيخرج صوت غريب لا أعرفه.

- كيف حدث هذا؟

- ارتفع الضغط لديها وحدث نزيف على المخ.

- كيف تعرفين هذه الأشياء؟

- أنت ونور أصبحتما شخصيتين عامتين وكل هذه الأخبار منتشرة على التواصل الاجتماعي، حتى سلمى تقدمت بخالص التعازي.

كمحاولة للقفز على الموضوع تخرج هاتفها وتريني الفيديو الذي تواسيني فيه سلمى.

«أنا تفاجأت مثل الجميع تمامًا، استطاع حسن خداعي بمكره وأوهمني أنه شخص سيئ، من السهل أن تقنع الآخرين أنك سيئ ولن يكلفك هذا سوى بعض القسوة، لكنه كان يجاهد وحيدًا من أجل تراب البلد، فقد نور وعائلته وحتى أنا حرمته من ابنه، أنا مدينة له باعتذار صريح لكل ما حدث».

ثم يتهدج صوتها وتذرف دموعها وتتوقف عن التصوير، أنظر إلى سارة فتبتسم: - تركب الموجة لا أكثر.

أجلس على الكرسي منهكًا وأحتضن رأسي بكفي، أفكر في سعيد، أين هو الآن وكيف يشعر حيال كل شيء؟ أتذكر هندًا فأهاتفها، بعد لحظات ثقيلة ومريرة يأتيني صوتها بعيدًا وحزينًا.

- هند، أين سعيد؟

- حسن، هل أنت حسن؟

- نعم يا هند، هل سعيد بخير؟

يتغير صوتها وتعتريه حسرة مفاجئة:

- إنه محطم تمامًا ولا يغادر شقته.

حمدًا لله أنه لا يفعل.

- وأنتِ كيف حالك يا هند؟

- لست أفضل حالًا يا باشا، كلنا كذلك.

أنهي مكالمتي مع هند وأشعر ببعض الراحة على غير توقعي، لم أسمع ما هو أسوأ مما سمعت من سارة، لكن صوت هند وضع في يدي شيئًا ماديًا ملموسًا من أثر عائلتي المتداعية.

- ألن تقابل سيفًا؟

سيف! إنه ما يبقيني متماسكًا، لكن لا يجب أن يقترب مني هذه الأيام حتى أنهي كل شيء، أنهض وأذهب للنوم في فراشه.

- ألن تأكل؟

-أغلق الباب بيني وبين إلحاحها، وجودها في شقتي مربك واختراقها حياتي على هذا النحو يزعجني.

***

كان ميعادي مع حسام رشيد بعد يومين، لكني في اليوم التالي للقائي به ذهبت إليه وجلست أمامه مباشرة.

- لم أتلقَّ مكالمتك يا باشا؟

- قلت إن أمامي يومين، ولم تمضِ سوى ليلة واحدة!

أتظاهر بالنسيان وأصفع جبهتي برفق.

- يبدو أنني نسيت وقتلت الدكتورة ريهام.

ينفغر فمه كالأبله، أخرج هاتفي وأضعه أمامه، يراقب الفيديو الذي يُظهر ذبح زوجته المتوسلة، وينظر إليّ بعدم تصديق، أخرج منديلًا من جيبي وأفك أطرافه، يظهر إصبع مبتور يلفه خاتم بفص ماسي، يعرف هو هذا الخاتم.

- أعتقد أنه هدية عيد زواجكما الرابع، أليس كذلك؟

أراقب اختلاجات حسام وامتقاع بشرته، إنه ينصهر داخليًا، أنهض، أنظر إليه: - خطأ غير مقصود يا باشا، أنت تعلم أنني لا أتذكر شيئًا منذ خروجي من المستشفى، لكن لا تنسَ أن غدًا في تمام السابعة صباحًا سأتلقى المكالمة التي أريدها، أرجوك لا تجعلني وغدًا يغتصب الأطفال قبل أن يقتلهم. آه، سأذهب الآن لأعطي ابنتك حقنة الإنسولين إنها جميلة حقًّا كأمها تمامًا.

أغادر المكان وأسمع تهديداته العمياء، الآن أصبحت متأكدًا أنه سيفعلها، لكن ما أقلقني أنني أستشعر لذة ما أفعل، هل أنا مثلهم كما تتهمني سارة؟ أقود سيارتي إلى المقابر للمرة الأولى، كنت أصر على تأجيل هذه الخطوة حتى أكون قادرًا على النظر إلى قبر عمي ونور وحتى فريدة هانم، لكن ما بداخلي من جحيم لن يطفئه إلا القبور، من بعيد أراقب الطيف الجاثي على ركبتيه أمام قبور عائلتي، أتوقف خلفه تمامًا وأسمع أنينه الخافت، على شاهد القبر نُقشت هذه الكلمات: - شهيدة الواجب، نور شاذلي مختار.

دُفنت مع أمها وأبيها، لكن القبر حمل اسمها فقط، تمالكت نفسي وحاذيت سعيدًا، انتبه إلى وجودي ورفع بصره إلي، عندما رآني هم واقفًا واحتضنني بقوة.

- حسن.. أنت بخير!

يبدو أنني بالغت في تقدير الأمور، تهيبت اللقاء منذ خروجي من المستشفى، تساءلت إن كانت هند أخبرته بمكالمتي.

- سعيد، أنا آسف.

ينظر إلي بعينين حمراوين، وجهه مكفهر وجسده ناحل، يهز رأسه ويقول: - لم يعد لهذا معنًى الآن.

تمر كلمته عليّ دون أن أقبض عليها لأفهم ما وراءها، عندما أجلس بجانبه على المقعد الذي تم بناؤه مؤخرًا وأخبره بنيتي قتل مدحت سليمان غدًا أفهم ما عنته هند بالمحطم، يتطلع إلي سعيد بعيون خاوية، يتساءل مرة أخرى عن معنى هذا الآن، حتى أنا لا أجد فائدة من إقناعه بشيء، فقط أهز رأسي وأنتظر أن يأخذ الوقت مجراه، أترحم على نور للمرة الأولى وأرسل لها أحر دعواتي، أنتهي من الزيارة وأجذب سعيدًا لنخرج إلى الحياة مرة أخرى، عندما دخلنا شقته معًا، عاد إلي حنيني القديم يجرفني في تياره، للبيت رائحة أهله الذين فارقوه، أتحسس رائحة نور وأتبعها بروحي إلى غرفتها، أتأمل الفراش البسيط وكتب التاريخ المرصوصة بعناية هنا وهناك، حتى حمامها جذبني إليه بيد خفية، زجاجات الشامبو ومساحيق تجميلها، ضممتها بعيني واستدعيت طيفها وهو يعبث بها، تراقصت نظرتي وعزمت ألا تسقط مني دمعة كما يريد أبي، أغادر الغرفة وأجلس في الشرفة كما جلسوا، يخرج سعيد من غرفة أمه التي أصبحت غرفته ويجلس بجانبي، يعزف كلانا سيمفونية الحزن بطريقته وتتقاطع ألحاننا معًا دون أن نفقد أثار البيت القديم، لم يعد من عائلتي سوى سعيد وسيف، تُرى هل يعرف سعيد سيفًا أو قابله؟ كم كنت مشتاقًا لأن تقابله نور! يطرق أحدهم الباب وينتزعني من سكرة الذكريات، سعيد كما هو ساهم ويحدق إلى البنايات المقابلة، أفتح الباب وتتفاجأ بي هند، تحمل طعامًا لسعيد البائس.

- حسن!

أفسح لها الطريق لتدخل، تنبسط أساريرها لوجودي وتحدس تأثيري على سعيد: - إنه كان بحاجة إليك.

كم أنتِ حمقاء! أنا من كنت بحاجة إليه، ذبلت روحي واحتاجت إلى رشفة من حضور سعيد وذكريات نور.

- هو لا يأكل كما يجب، أرجو أن تحمسه على تناول شيء.

أنا أيضًا لم آكل منذ مدة ولم تراودني رغبة للطعام، لكن رؤية سعيد وجلوسي على مائدة نور أعادا إليّ أشياء من نفسي، أتركها تعد المائدة وأذهب إلى الشرفة حيث يجلس سعيد.

- قلت إنك ستقتل مدحت سليمان غدًا، كيف ستفعل هذا؟

أنتشي للمعة الاهتمام التي عرته فجأة.

- هناك من سيفعلها في السجن بدلًا مني.

- كيف؟

- أحتفظ بزوجته وابنته لدي.

لو كان سعيد في كامل وعيه لاستطاع أن يعرف من هو.

- هل تحتجزهما رهائن؟

- هذا ما يبدو عليه الأمر لكنه مختلف تمامًا، إنهما ورقة ضغط لا أكثر.

تنادي هند من الداخل لتناول الطعام، أصحبه من ذراعه وأقول: - لا تستطيع أن تواجه البندقية المسددة نحوك بمسبحة يا صديقي، إذا كنت ستواجه بندقية فاحمل مدفعًا.

ينظر إلي سعيد وهو يجلس في مقابلي على المائدة:

- إنني أحسدك على صلابتك يا حسن.

لا بد أنك تمزح يا ابن عمي.

- أنا أيضًا أحسدك على تحملك كل هذا يا سعيد.

قبل أن تغادر هند الشقة تقول:

- لم يأكل هكذا منذ موت أمه، لا أعلم ما الذي يحدثه وجودك.

أنا أيضًا أكلت كما لم آكل من قبل، إنه الأمان الذي نشعره بوجود شخص يحمل نفس الهم ويفهم شيئًا من آلامنا، خطرت في رأسي فكرة رائعة، سأبيت هنا الليلة، نجلس أنا وسعيد في الشرفة صامتين ثم نتطرق لأحاديث مقتضبة لنزجي الوقت، وعند النوم أعرض عليه أن أبقى هنا معه، لا يمانع وينام في فراش أمه، أما أنا فأتمدد على فراش نور ويجتاحني طوفان المشاعر، أتخيل طيفها مشتبك اليدين ويتأملني بعبوس، يأمرني أن أغادر فراشها، أصر على البقاء وأتلذذ بمناكفته كما اعتدت في الأيام الأخيرة،

يا إلهي متى أحببت نور كل هذا الحب؟! يرن هاتفي فينسحب الطيف إلى ركن ما، سارة تتصل: – ما الأمر؟

– ألا تظن أنك تأخرت كثيرًا؟!

– أنا لن آتي الليلة.

– وتتركني وحيدة؟

– كما كنتِ طوال أسبوع، لن يحدث هذا فارقًا.

أنهي المكالمة قبل أن أسمع ردها، تحشر أنفها في حياتي أكثر من اللازم، أعود إلى الطيف المحبب فلا أجده، أبحث عنه فلا أعثر عليه، تبخر في فضاء نفسي، ألتحف بغطاء نور وأنام باستغراق طفل خالٍ من أي هموم، عندما أستيقظ أسمع أذانًا خافتًا يطرق أذني باستحياء، لولا الضوء الذي اخترق السدل لظننت أنه الفجر، انتفضت من فراش نور ونظرت في الساعة، لم أنم في حياتي كلها عشر ساعات متواصلة، عندما أخرج من الغرفة أجد سعيدًا جالسًا في الشرفة ويتأمل هاتفه، يعطيني الهاتف وأقرأ الخبر العاجل بنشوة حقيقية.

– انتحار غامض لرجل الأعمال المصري مدحت سليمان في سجن طرة، والتحقيقات مستمرة.

باخت نشوتي عندما قرأت أمارات اللامبالاة عالقة في وجه سعيد.

– ألا تشعر بشيء من المواساة.

– المواساة الحقيقية أن تعود أمي ونور.

– أنت رجل مؤمن يا سعيد، ما حدث هو قضاء الله وقدره.

يبتلع كلمة أخيرة وأفضل عدم الخوض معه حتى لا ينكأ جرحًا قديمًا، أجد فنجانًا من القهوة ما زال بخاره يتصاعد، يشير إليه ويقول: – أعددته لك.

أتناول الفنجان كبادرة حسنة وأهم بالمغادرة، على باب الشقة أقول لسعيد إنه يجب أن يتزوج هند ويترك الحياة تتدفق في مجراها الطبيعي.

– ربنا يسهل.

أثناء هبوطي الدرج القديم أفكر في وصف هند لسعيد بالمحطم وأترصد دلالاته المتشعبة، إنه ينوي أن يتخلى عنها، لا شك في ذلك، ربما استشعرت مقدمات فراره منها وتقوقعه على نفسه، وربما دفعها ذلك لملاحقته كظله، وهذا هو الخطأ الذي تقع فيه هند، قبل أن أخرج من العمارة المتداعية أواجهها خارجة من السيارة التي نقلتها، أعترض طريقها.

– هل هو بخير؟

– يجب أن تأتي معي.

– إلى أين؟

- أريد أن نتحدث قليلًا.

تصعد معي إلى سيارتي، أتجه ناحية المخزن لتحرير الرهائن كما وصفهم سعيد، تختبر هند صمتي القاسي لكنها لا تحركه أو تحاول خلخلته، إنها فطنة جدًّا وتتهيأ لتواجه رسالة سعيد غير الشفهية.

- في تجربة الفروسية الأولى لي، سقطت من فوق الحصان وكدت أن أموت مهروسًا بسنابكه.

تنصت هند إلى ما أقول:

- عدت إلى البيت وكان أبي غاضبًا لأني فشلت في شيء بسيط مثل هذا وكدت أن أفقد حياتي، انطويت على نفسي حزينًا ولاحقتني أمي في كل مكان، دعمتني وبررت ما قمت به، لم تكتفِ بهذا فقط بل اختلقت الكثير من الأعذار؛ مثل صغر سني وخوفي من الخيول، وبررت سقوطي لأبي ولعمي وزوجة عمي وكانت مستعدة أن تبرر ذلك للعالم كله، لكن ما فعلته أمي هو أن رسخت عجزي وجعلته مستساغًا ومحببًا إلي، لم أشعر أنه ظرف استثنائي ويحتاج إلى تغيير بل هو طبيعتي وطبيعة الأشياء.

أمر أمام الورشة وأتوقف بالسيارة في مكان مناسب، أنظر إلى وجه هند الممتقع.

- ما أريد قوله هو أنك تساهمين بشكل كبير في جعل سعيد مجرد مسخ خالٍ من أي شعلة، العطف الكبير الذي تغمرينه به الآن يذكره في كل دقيقة أن أمه وأخته فارقتا الحياة، أنتِ لم تعطيه فرصة أن يعول هم تجهيز طعام على مدار عشرة أيام.

- هل أنا المخطئة الآن؟!

- بالتأكيد ليس عن عمد، بل إن التصرف اللائق في هذه الظروف أن تكوني كما أنتِ تمامًا الآن، لكن النفوس ليست واحدة، وما قد يصلح معي ليس بالضرورة صالحًا معه.

أتأمل صمتها العاجز وأنفاسها المتزاحمة في صدرها وأقول:

- أريدك أن تتوقفي عن زيارته وتكتفي بمكالمة واحدة في المساء، تتحدثين معه عن أي شيء آخر ما عدا حالته، حدثيه عن مباراة اليوم وطبخة اليوم، حدثيه عن خبث زميلتك في الشغل، لكن لا تحدثيه عن نور أو فريدة هانم، ولا تنسي أن تبدأ المكالمات بعد يومين من الآن حتى يتسنى له أن يفتقدك.

تهز رأسها ببطء وتحتقن عيناها.

- العطف الزائد لون من ألوان النعيم الزائد، يفتر العزائم ليس إلا.

أخرج من السيارة.

- انتظريني سأعود بعد قليل.

أتوجه صوب المخزن، عندما أطالع الدكتورة ريهام يتحرك الندم في أعماقي كوخزات حارقة، أعتذر عن تركي لها هذه المدة لكن هذا ما تطلبه الأمر، تتهلل أساريرها للإفراج عنها، أداعب رأس صغيرتها وأقبلها بين عينيها، أخرج هاتفي وأضع أمام ريهام خبر موت مدحت سليمان، تتأمل الصورة مندهشة وتقول إنها رأته مرة مع زوجها، أتظاهر بالكثير من التأثر وأتمنى لها حياة سعيدة.

- هل سيخرج حسام قريبًا؟

- قريبًا جدًّا إن شاء الله.

أراقبها وهي تستقل السيارة التي جهزتها لها وأرد تحية الصغيرة بكثيرٍ من الود، عندما أعود إلى سيارتي تسألني هند: - كيف استطعت أن تتغلب على مشكلة الفروسية؟

أقول إن أبي أخذني بعد فترة إلى النادي لأشاهد شهد وهي تتبختر فوق فرسها، وكان هذا أكثر من كافٍ لأمتطي كل جواد في الإسطبل.

- 19 -

كما قلت سابقًا كل شيء من البداية كان يشير إلى جمال عبيد، حماي العزيز، بسهم من نار، وضْع الصناديق في حاويتي، قتْل أبي والمطاردة الحثيثة التي عرفت أدق أسراري، لكن كل هذا لم يخرج عن مسمى الظن، يحترق قلبي وأحمل كل الحقد الذي في العالم بسبب الظن، آتي إلى الغردقة في فندقه لأني أطارد الظن، أنوي مقابلته والمناورة بكل ما لدي بدافع من الظن، لكن متى يتحول الظن إلى يقين قطعي في لحظة واحدة؟ عندما يمر جمال عبيد وتلمح في طائفة الحراس الرجل الذي أطلق الرصاص على نور، ممشوق القامة وشعره خفيف ونظرته متحجرة، مفترس كاسر في صورة إنسان! أكبح نفسي بذمام من نار، أغادر الفندق وأتنقل برشاقة على الشاطئ، الغروب جميل والشمس المتحدرة نحو النهر فتنة لا تراها في الواقع، دقائق قليلة وأنتهي من استئجار لنش بحري -زورق بخاري- لعدة ساعات، الإنسان نمطي ومكرر بطبعه، مع تسلط العادة يصبح من السهل وبقليل من الصبر الانتظار عند خط النهاية، لجمال ثلاثة أنواع من العلاقات مرتبطة ارتباطًا مثيرًا بالمكان الذي تحدد فيه اللقاء، الشقق المعلقة في أبراج المعادي والنيل للسهرات الخاطفة ذات اللقاء الواحد، الفيلات مثل التي بجواري في الشيخ زايد للفريسة الصعبة التي لا تفتح ساقيها إلا بعقد زواج، واليخت الذي يمخر عباب البحر في ليلة بدرية يكون في العادة لكبار الزوار، ضيف ثقيل وفي الغالب زوجة أحد الحيتان الباحثة عن نشوة جديدة بعيدًا عن تثاقل الحوت أو ربما انتقامًا منه، يتم كل شيء بعناية فائقة، طاقم الحراسة ينتظر خارج الجناح الذي ينزل فيه الباشا، يتسلل في الموعد المحدد بحارس أو اثنين فقط حتى لا يلفت الأنظار، يتحرك اليخت الفضي بعد الغروب مباشرة، وعندما يرخي الليل سدوله، يبتعد عن الشاطئ بالقدر الكافي لحجب أية آهة شاردة، مرة واحدة فقط تعرضت هذه الخطة للخطر؛ زوجة سفير خليجي فاتنة ومليحة في خمارها الأسود تصاب بتسمم الكحول ويهرع اليخت إلى الشاطئ لنقلها إلى المستشفى، ولولا ستر الله لكانت فضيحة القرن.

أطفئ اللنش في بقعة مظلمة في كبد الخليج، أتابع بنظارتي المكبرة اليخت العملاق وهو يبحر مبتعدًا عن الشاطئ، يوغل في العمق ويتوقف وتنطفئ أنواره إلا من شعاع خافت يصدر عن نافذة القمرة، أخرج مجدافي وأشق المياه نحوهم، بعد نصف ساعة من التجديف المتواصل أكون قريبًا بالقدر الكافي للعوم، أرتدي بدلة غطس مطاطية من غير أنبوب أكسجين وقدماي حرتان بلا زعانف، تغطي البدلة كامل جسدي حتى شعر رأسي، هي الخيار الأنسب لتحيل بيني وأي بصمة قد تشير إلى وجودي على اليخت، أضع مسدسي في كيس بلاستيكي ليحفظه من الماء، بعد أن أعاين الحارس الأوحد الذي يجلس مسترخيًا على ظهر اليخت أقترب ببطء وحذر شديدين، عندما ألتصق بجدار اليخت ألتقط أنفاسي وأستشعر برودة نوفمبر تطفئ بركان الغضب المتأجج في صدري، أصعد بنفس البطء والحذر الشديدين، الحارس يجلس على كرسي خشبي أمام منضدة زجاجية ورأسه شاخصة في السماء، لا ينتبه إلى وجودي حتى يسمع

خشخشة الكيس وأنا أصوب نحوه المسدس، على شعاع البدر الكابي يمكن رؤية شعره الخفيف وعينيه الحجريتين تفقدان ثباتهما وتتراقصان من وقع الصدمة.

– قبل أن تطلق النار على نور، قلت إنني مثل أبي تمامًا. ماذا قصدت بهذه الكلمة؟

البدلة تبتلعني تمامًا ولا يظهر مني سوى عينَيَّ وأنفي، لكنه تعرفني من صوتي والسؤال الذي طرحته عليه، ينهض ويجثو على ركبتيه كما أشرت له، يضع يديه فوق رأسه وينظر إليّ بنظرته الوقحة.

– أرجوك، لا تكن قاسي القلب. ماذا قصدت بهذه المقولة؟

يرفض أن يتكلم، عندما تتصلب ملامحه أدرك أنه يهم بمناورة فأضع خنجري بيدي اليسرى بين ترقوتيه تمامًا، يشهق، تجحظ عيناه، وتتفجر الدماء من عنقه كينبوع حراري ويهوي عند قدمي جثة هامدة، لسقطته على ظهر اليخت صوت ارتطام مسموع، خشيت أن ينبه الباشا لكنه كان غارقًا في نشوته، أقترب من القمرة الرئيسية وأطرق الباب ثلاثًا، بعد ثلاثين ثانية أكرر الطرقات بشكل أكثر حدة، يفتح الباشا الباب غاضبًا ويرتدي روبًا أبيض موشًى بخيوط ذهبية على حوافه، شعيراته الفضية منتصبة في صدره، عندما يراني تلتاع نظرته ويتراجع قليلًا إلى الوراء، أدفع الباب وتنتفض المرأة في فراشه مستترة بأطراف الغطاء، موسيقى كلاسيكية تنبع من ركن ما، أنتظر حتى تغادر القمرة ملتحفة بالغطاء وتقبض على فستانها الأسود بشدة، أغلق الباب وأشير له أن يجلس، أتأمل الغرفة الفاخرة وأجلس أمام الباشا تمامًا، سرير في المنتصف وكرسيان بينهما منضدة نجلس عليهما الآن، رف من أجود الخمور، ومسدس ذهبي موضوع بزاوية في مواجهة إطار لصورة قديمة في الرف الذي فوقه، لون قهوتي هو اللون الغالب على الجانب السفلي للغرفة الملكية، واللون الذهبي يحتل الأرفف على يميني، والأبيض الناصع يمثل السقف والجانب العلوي.

– لماذا قتلت أبي يا باشا؟

تنتفض ملامحه صعودًا هبوطًا، يجتاحه وجودي كموجة عاتية، أقول: – كل شيء واضح الآن.. أنت قتلت أبي وأرسلت من يقتلني أنا ونور، أريد أن أعرف السبب فحسب.

– حسن، أنت ابني الذي لم أنجبه..

ولن تنجبه يا ابن الكلب.

– اختصر يا باشا ولا تضيع الوقت.

يصمت قليلًا ويقول:

– كنت أريدك معي في كل هذا، أنت ذكي وصلب ومناسب تمامًا، لكن أباك كان مثاليًا وحبكيًا قديمًا، ورفض أن يعطينا الصناديق عندما صارحته بكل شيء.

– شكرًا لك يا دكتور، ويبدو أن ساحورع خدعنا جميعًا ببضعة تماثيل والكثير من الثرثرة.

– حس..

سالت الدماء من عنقه على قطعة من ثياب المرأة الداخلية ثم لطخت الفراش الأبيض، خرجت من القمرة بعد أن جففت خنجري بطرف الفراش، على ظهر اليخت ارتدت السيدة ثيابها وظهرت فتنتها بشكل ملحوظ.

- ذوق الباشا لا يضارع يا هانم.

تنظر إليّ بوجوم وترقب، يتحرك لسانها بتثاقل

- ماذا فعلت له؟

- قتلته!

تشهق وتسد فمها بكفها، أقذف الخنجر في المياه، وأخرج هاتفي، أقترب وأطلب منها أن تلف ذراعيها حول عنقي، ترتفع ذراعاها المرتبكتان وتحطان على كتفي، أرفع هاتفي وألتقط لنا عدة صور بأوضاع مختلفة، أهم بمغادرة اليخت.

- هل ستتركني هنا؟

- لا بأس، يمكنك أن تأتي معي.

أقفز في المياه الباردة وأنتظر.

- ألن تأتي؟

تهز رأسها وتركل جانب اليخت بقدمها العاجية، أشق البحر إلى مركبي الذي ينتظر على ضوء البدر الرقيق وتلاحقني صرخاتها الغاضبة.

***

في شرفتي أدخن السيجارة الأخيرة التي عثرت عليها في أحد أدراج مكتبي، يستثير الدخان أنف سارة المرهف لهذه الأشياء التي تفسد جنينها كما تقول، تقترب خطواتها بوتيرة أسرع من المعتاد، تتوقف خلفي تمامًا.

- حسن، متى أتيت؟

ألتفت إليها وأقول إنها أصبحت حرة، ويجب أن تغادر شقتي حتى يمكن التنفس بحرية أكبر، ترتفع يدها إلى فمها مرة واحدة: - ماذا فعلت في اليومين السابقين؟

تجلس على كرسيي المفضل وتقول:

- هل قتلته؟

طيف نور الغاضب يتجسد في دخان أبي ويطلب مني أن أتوقف عن إحراق رئتي، أبتسم وأثير الكثير من الغبار، تسعل سارة وتنفض السحابة التي غطت الغرفة.

- هذه السجائر ستقتلك.. كما يجب أن تراعي وجود امرأة حامل في نفس المكان.

تفيق من نوبة السعال وتصرخ غاضبة.

- هل قتلته؟

- تأكدت ألا يتعرض لك أنت وجنينك بسوء.

يحرف الحمل معالم وجهها الجميل قليلًا، لكن ذوق الباشا لا يضارع حقًّا، تنكمش ملامحها وتهز رأسها ببطء، يبدو أنها فهمت، تخرج الهاتف وتتصفح مواقع الجرائد باحثة عن أي خبر، لا تعثر على شيء، تقوم بإجراء مكالمة هاتفية لإحدى صديقاتها في الشركة، أسمع صوتها وأنا أطالع سماء نوفمبر الغائمة.

- لم يأتِ اليوم للعمل.. تقولين وُجد مقتولًا في يخته؟!

تنهي المكالمة بلا أدنى تأثر، تتساءل باستغراق: - لم يقل لي أن لديه يختًا برغم سؤالي له ذات مرة، يا له من كاذب لعين!

تتأملني بنظرة صامتة.

- أريد أن أنام في فراشي، هلا سمحتِ لي.

- تطردني إذًا؟

رباه!

- بالطبع لا!

- ما زلت أخشى على ابني.

- لن يحدث لكِ مكروه يا سارة، ما دام لا يعرف أحد غيرنا. أرجوكِ أريد أن أحظى ببعض الراحة وحيدًا وبعيدًا عن عينيكِ.

تنهض متثاقلة وتغيب داخل غرفة نومي التي استعمرتها، بعد ربع ساعة تخرج غاضبة وتجر خلفها حقيبة فضية، تتعمد أن تتجاهل النظر إلي، أحمل عنها حقيبتها وأضعها في السيارة، قبل أن تغادر أقول:
- سأزورك كثيرًا لأطمئن على حملك.

- أنت قاتل لعين يا حسن، لا أريد أن أراك في بيتي للحظة واحدة.

أتابع السيارة حتى تغيب عن ناظري، رياح باردة تنخر جسمي، أتطلع إلى الأفق الملبد وتتماهى فيه أعماقي، الوقود الذي يبقيني حيًا تآكلَ وأصبحتُ روحًا هائمة تبحث عن مستقر، قبل أن أصعد إلى مستقري تتوقف سيارة أخرى، ينزل خالد صوفي ببدلته السوداء ونظرته الداكنة، يبتسم عندما يراني: - هل أنت ذاهب إلى مكان؟

- لا.. أودع شخصًا ما.

- سارة، أليس كذلك؟

- أنت تراقبني إذًا!

تحمل الرياح الخريفية رابطة عنقه ويثبتها بيديه: - كنت أراقبك ثم اختفيت مني، وعندما ظهرتَ ظهرتْ جثة أخرى!

أمط شفتي مصطنعًا المفاجأة.

- من يا ترى؟

يضحك خالد ثم يقول بكثير من الجدية:

- تمنيت ألا تفعلها يا حسن.

- هذه كذبة يا باشا.

يضحك مرة أخرى ويقول إنني صالح جدًّا للتحقيق مع المتهمين، يعود ليسأل: - متى استعدت ذاكرتك؟

- عندما قرأت دفتر نور.

- أظن أنك لم تفقد الذاكرة من الأساس.

الكثير من البرد يتسلل إلى صدري، أحتضن نفسي وتتصادم أسناني، لا أظن أن الطقس بارد إلى هذا الحد.

- هل تصعد معي إلى شقتي؟

يمتنع ويتعلل بأشغاله:

- أتيت لأطمئن عليك يا صديقي لكن يبدو أن حالتك مزرية!

لا أتذكر المرة الأخيرة التي ابتسمت فيها! قبل أن يستقل سيارته يقول: - من قتل جمال عبيد لم يترك خلفه أي أثر سوى صورة سيلفي مع زوجة مدحت سليمان، الجميع يشكك في قدراتها العقلية، يظن المدعي العام ومحامو سلمى أن القاتل كان ليقتلها أيضًا إخفاءً للآثار، لا أن يلتقطا معًا صورة سيلفي، لكني لا أصدق أنها قتلت رجل أعمال بوزن جمال عبيد وحارسه الضخم وبقيت ساعة وحيدة وسط المياه تنتظر أن تأتيها دورية الشرطة، ألا يبدو لك كل هذا سخرية لاذعة؟!

يا للمفاجأة! لم أكن أعرف أنها زوجة مدحت!

- أظن أن حالتها النفسية لا تسمح لها بالقتل، إنها امرأة محطمة بعد موت زوجها في السجن وكانت تتلقى بعض الدعم من جمال.

- يمكنك أن تدافع عنها كما فعلت سابقًا في قضيتك.

يستقل السيارة وقبل أن ينطلق ينظر إلي ويقول: - أعتقد أنك فعلت كل هذا، لا أحد غيرك يفعلها بنفس الطريقة.. مدحت سليمان قبل أسبوع والآن جمال عبيد!

- أعتقد أنني ممتن لمن فعل هذا أيًا يكن؛ لأنه أنقذ حياتي.

يبتسم خالد وينطلق بسيارته، أعود إلى شقتي وأرتمي على فراشي، أغوص في بئر غائر وبعيد، إلى أعماق الأعماق بعيدًا عن كل هذا العالم، حيث نور وشهد وفرسها الصهباء التي تسوسها، نور كانت تراقب من بعيد وعيناها الواسعتان تلتهمان كل شيء، أمتطي جوادًا جامحًا، يصفق أبي، أتغلب على خوفي، يحفر بقدمه اليمنى شقًا في رمال المضمار، أرخي عنانه وينطلق... يرن هاتفي فأغلقه، يحضر سيف ويجلس بجانبي على الفراش، يقول إنه انتظرني في عزاء جده ولم أحضر، هل حقًّا فقدت الذاكرة كما يقولون، يتمدد بجانبي على الفراش، تنتظم أنفاسه أسرع مني، أعود إلى المضمار الترابي وأمي المرتعبة تطلب من أبي أن أكف عن ركوب الخيل، يلاحقني بعينيه النافذتين ويهدئ من روعها، تحتضنني نور وتلتصق بي بشدة، تتوسل أن أخفف السرعة، تصرخ قبل أن تسقط من خلفي، أعجز عن إيقاف الجواد، ينطلق بسرعة الريح، حتى أبي يشعر بالقلق، تتوسل إليّ أمي أن أخفف السرعة، شهد لا تتوقف عن البكاء، أنا مسلوب الإرادة والخوف الذي في داخلي يضغط دواسة الوقود، المنعطف يظهر فجأة ولا أحرك مقود السيارة، أراقب الأحداث كأني خارج عنها، تنقلب السيارة ويرن هاتفي، سيف يرد على الهاتف، يقول إن أبي نائم، يهمس في أذني أن الخطر قد زال، لكن أمه لا تعيره أي اهتمام ونودي يتنمر عليه، يقول إن أباه قاتل سافك للدماء، يخرج سيف خنجره من حقيبته ويطعنه عدة طعنات، يرن هاتفي..

- 20 -

أستيقظ على جرس الشقة كأني أُبعث من قبر، لا يتوقف الجرس عن الإلحاح كذبابة تطن في أذني، أزيح قدميّ الضامرتين عن السرير وأدسهما في شبشب سارة الذي نسيته خلفها، وأنا في رحلتي إلى باب الشقة أكتشف كم أصبحت هشًا وخاويًا، أستعين بكلتا يدي حتى أزحزح المزلاج وينفتح الباب بصعوبة بالغة.

- يا إلهي! ما الذي حدث لك؟

لا تنتظر أن آذن لها بالدخول، تندفع عابرة من خلالي إلى الداخل كأنه بيتها، بطنها منتفخ وتدفعه أمامها بصعوبة، قطرات عرق تعلو جبينها وتسحب أنفاسها من قعر بئر، تحرك الهواء أمام أنفها وتقول يا إلهي هل أنا في كهف؟! تتحرك مترنحة إلى كل النوافذ التي في الشقة وتشرعها على مصراعيها، يتحسس ضوء ذهبي طريقه داخل شقتي كضيف غريب، ما زالت تهش أشياء غامضة أمام وجهها ويسكن التقزز قسماته: - ألم تغادر الشقة طوال الأربعة أشهر الماضية؟!

تقترب مني وتتأملني قليلًا:

- متى هي المرة الأخيرة التي نظرت في المرآة؟

أكتشف من خلالها أشياءً جديدة في نفسي، لحيتي المهملة وشعري المشعث وبشرتي الشاحبة كلوح ثلج.

- لقد نقص وزنك كثيرًا، ألا تأكل أبدًا؟

ترتمي على الأريكة وتتحسس بطنها المتكورة كقنبلة توشك على الانفجار: - سألد اليوم ولن أذهب من دونك بالتأكيد، لكن عليك أن تستعيد شيئًا من وسامتك يا باشا!

تنهض مختنقة وتتجه صوب الشرفة.

- هواء! هواء! يا إلهي هذه الشقة تحمل رائحة شخص يحتضر، هيا تحرك! أما زلت تتفرج علي؟

لدهشتي البالغة أتقدم مسلوب الإرادة إلى الحمام، بعد نصف ساعة أخرج مستعيدًا بعض وسامتي وأصحب سارة إلى المستشفى الذي ستلد فيه ابن جمال عبيد، تنظر إليّ ونحن في المصعد.

- يا إلهي! حالتك سيئة حقًّا. لقد بالغت في حزنك يا حسن.

تستقبلها الممرضات ويصحبنها إلى غرفة التجهيز، قبل أن تدخل تقبض على ساعدي وتنظر إلي بعينين مغرورقتين: - أنا خائفة يا حسن، بطني يتقلص بشدة.

وقبل أن تختفي في الداخل أسمع صوتها الحاد يخترق أذني.

- حسن! أيها اللعين! ألا تقول شيئًا؟!

أظل منتظرًا بالخارج مدة لا بأس بها، أعود إلى أعماقي تدريجيًا، تخفت الأصوات من حولي ويختفي المارة وجدران المستشفى ووجه سارة الخائف، طوال الأربعة أشهر الماضية لم يحدث شيء ذو بال سوى زيارة سيف ورغبة سلمى أن يبقى معها مدة بعد موت والدها، لم أمانع ولم يكن عليه أن يراني في حالتي هذه، يهاتفني سعيد عدة مرات ونتبادل أطراف حديث واهن هدفه أن يطمئن كلانا أن الآخر على قيد الحياة، ثم هند تخبرني أن سعيدًا بدأ يهاتفها من تلقاء نفسه ويتحدث معها في أمور عامة، أقول إن عليها أن تجاريه دون أن يفتر تحفظها، ثم في فراشي أجد الملاذ الأخير من فوضى أفكاري التي تئز كَنَحْلاتٍ ماجنات.

- سيد حسن، يمكن أن تدخل الآن.

يطرق آذاني مواء الرضيع وهو ملتصق في قماط وردي بصدر أمه، تنظر إلي سارة مبتهجة بين حبات العرق وخصلاتها الدبقة على جبهتها الناصعة، تساءلت عن صفة وجودي في هذا المكان، لم يحرك في هذا الموقف سوى مزحة قديمة ساخرة، الصورة التي عرضها علي محمود عباس لقصته الملفقة عندما أراد أن يستميلني، المرأة التي في نفاسها تحمل رضيعًا ليس من صلبه وتهديه له، أتذكر ما قاله لي عنها، رجولته غير كافية لإحداث انتصاب لكنها تحرق جدرانه، ابتذلت ابتسامة أشد ابتذالًا من محاولتي أن أكون رديفًا وأهديتها لسارة، ربما تقول إنه يشبهني لتعطيني المبرر الكافي لقتلها، لكنها تبتسم مرة أخرى وأعثر على طريقي للخارج، قبل نهاية اليوم أصحب المرأة وطفلها إلى فيلتها في زايد، أهم بالمغادرة فتقول: - ألن تنفذ خطتك؟

- أي خطة؟!

تخرج لي ورقة قديمة بالية تحمل تهويمات قديمة كنت قد خططتها منذ شهور.

- هذه خطتك التي سطرتها على هذه الورقة، تنتظر حتى ألد ولدًا يحصل على ثلثيْ تركة جمال عبيد، وتُخضع سلمى لتحصل على سيف، وتغلق فمها المليء بالكذب والخداع وتمنعها من الظهور على أي قناة.

أشعر أنها تتحدث عن شخص آخر بلا أي ضغائن أو رغبات، أظن أنني وصلت إلى حالة سعيد المتصوفة، تقول إنها ستفعل ما أردت تماما لكن بشرط: - تتزوجني يا حسن، والآن!

أرفع حاجبي في دهشة حقيقية منذ أعوام.

- أنت رجل محطم بحاجة إلى أنثى تنفث روحها في جثتك المتعفنة هذه وأنا أصبحت بحاجة ملحة لك، سنشعل حربًا جديدة حتى أحصل على ميراث مازن، أنت شخص لا تعيش في سلام أبدًا وما يبقيك حيًا هو قتالك على كل الجبهات التي في العالم.

يظل حاجباي معلقين كما هما، سارة تقول نوادر تستحق أن تُدوَّن، أنهض وأستأذن في الانصراف، تعترض طريقي.

- لقد نمت في فراشك ليالي عديدة وربما امتزج عرقي بعرقك، لو كان أبي حيًا لقتلني لهذا.. ألا يجب أن تحل رقبتي؟

ربما امتزج عرقك بلعاب سلمى! تسد الباب كي لا أخرج: - أنت تهينني يا حسن بهذه الطريقة الجافة، وتجهل مكانة من يطلب الزواج من أرملة جمال عبيد.

تخرج هاتفها وتريني البث المباشر لسلمى على اليوتيوب، كانت تهاجم سارة بعنف شديد، تقول سارة: - لقد ألقيت حجرًا في المياه الراكدة بالفعل، وأعلنت عن نفسي وعن مازن قبل أن أخرج من المستشفى. حسن، أنا بحاجة إليك، وهناك ما يفوق الاثني عشر مليارًا.. بربك هل تترك لهم كل هذا المال؟!

- الأمر سهل؛ قدمي وثيقة الزواج إلى المحكمة فيقوموا بإثبات النسب وتحصلي على ما تريدين!

- هذا سهل، لكن حياتي أنا ومازن سهلة عليهم أيضًا، أنت لم تفهم بعد.. سلمى تخاف منك، الجميع يخاف منك، حتى زوجها كمال طلقها وهرب بعد قتلك لجمال عبيد إلى أوربا، وجودك معي ضمانة لحياتي وحياة الصغير يا حسن، أرجوك.

أنظر في عينيها الملتاعتين، يخافون من رجل محطم! أقول: - سوف أفكر في الأمر.

- حسن، سأنتظرك.

أهز رأسي موافقًا ويصرخ الصغير في حضن الخادمة الفليبينية، تهرع سارة ناحيته وتصرخ بأني عديم القلب وبارد كالجليد، أهم بالمغادرة وألتقط نظرتها الأخيرة، أم بائسة تحمل قطعة من اللحم تساوي مليارات الجنيهات!

***

أزور سعيدًا للمرة الأولى منذ أربعة أشهر، شيدت الحياة جسورًا عديدة إلى روحه، كنت متلهفًا على غرفة نور، يستوقفني ويأخذني إلى الشرفة، أجد فنجان قهوتي ساخنًا وينتظر، يشير إليه ويقول: - سأتزوج هند قريبًا. ما رأيك؟

- هذا هو الصواب يا صديقي، أنت متأخر بالفعل.

يبتسم وأستأذنه في الولوج إلى وكري، أحلق ببصري وروحي في حشايا الغرفة، أستدعي الطيف العزيز لنتحدث معًا، قبل أن يظهر الطيف أرمق هاتف نور وحيدًا في درج مكتبها، متى تم الإفراج عنه يا ترى؟! أضع شاحنه في المقبس وأقوم بالغوص في عالم نور، صورها قليلة على الهاتف وأجملها التي التقطتها في استوديو سلمى، كانت تضحك بملء فمها وأسنانها النضيدة مرصوصة كحبات لؤلؤ، أتذكر صفحتها التي أذلت سلمى، حاولت الدخول وفشلت، يطلب موقع التواصل الاجتماعي تسجيل الدخول أو إنشاء حساب جديد، لمحتها مرة تدون هذا الحساب: - www.Nour Shazly@yahoo.com

كلمة السر تختبر قدرتي على فهم حبيبتي الراحلة، بماذا أبدأ يا ترى؟ دقت الكلمات في عقلي كالناقوس: - همي وساحورع ونينيت.

أعود لأكتب:

- إياح حتب.. هكسوس.

وغيرها من الكلمات التاريخية، لا فائدة ولا مجال للدخول، شعرت أنها معركة أخرى يجب أن أخوضها كما قالت سارة، ضربتني موجة غرور وكتبت: - حسن سليم.

كهمي خاص بها، لم تفلح بكل اللغات التي أعرفها، انتابتني نوبة يأس، ثم مرة واحدة قاد طيفها يدي لكتابة هذه الكلمة: - أحواض اللبلاب.

ينفتح الصندوق الأسود أمام دهشتي الساحقة، أتمالك نفسي وأشرع في قراءة المنشورات التي كتبتها، أمر على التعليقات والمناقشات التي خاضتها باستمتاع حقيقي، أحدهم أخيرًا كان يدافع عني بشراسة! أنتهي من آخر منشور وتغرق عيني بدموع لوعة، وجدت نفسي أكتب منشورًا جديدًا: - عزيزتي نور، لا أستطيع أن أغفر فشلي كهمي خاص بكِ، لا أستطيع أن أمحو نظرتك الأخيرة من مخيلتي، لكني أعدك أن أبقى هميًا ما حييت.. سأظل أحبك إلى أن نلتقي في العالم الآخر.. عندها لن نفترق أبدًا.

تمت بفضل الله..